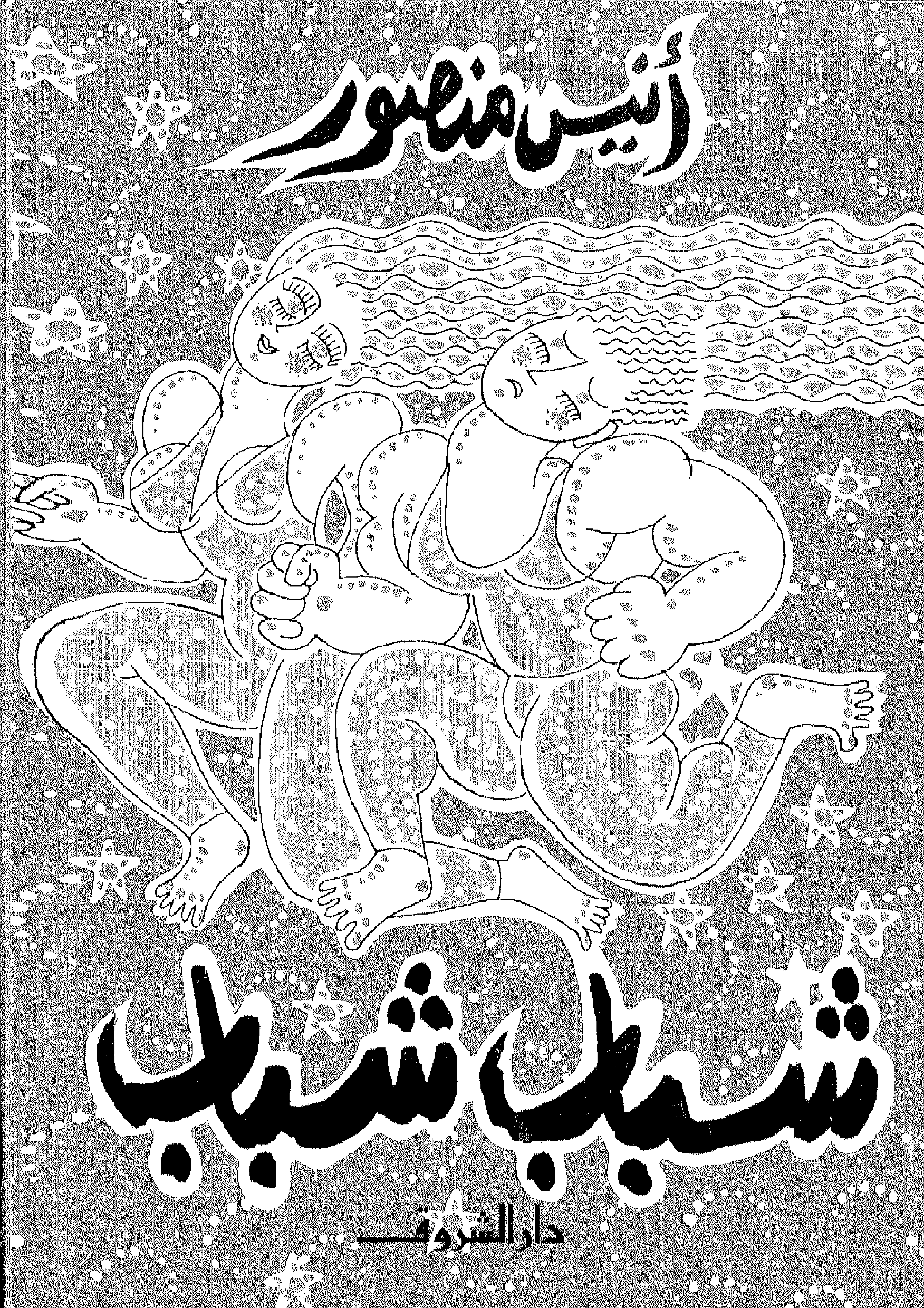

أنيس منصور
شباب شباب
دار الشروق

شباب شباب

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

الطبعة الثانية
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

الطبعة الثالثة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى : email: dar@shorouk.com

أنيس منصور

شباب شباب

دار الشروق

كلمة أولى

ليس في الدنيا أتعس من أغنى رجل في العالم ـ قالها أغنى أغنياء العالم: هوارد هيوز.

وهو لا يريد أن يثير شفقة أحد عليه. فليس هذا ممكناً. فالقلوب التي اهتزت بالحقد عليه لن تلين بالعطف عليه. ولكنه يريد أن يجعل العالم كله شاهداً على عجزه عن إنقاذه من مرض خطير اسمه: الثراء الفاحش. .

فهذا الرجل لا يجد شيئاً. . لأن كل شيء موجود. فالذي يجد هو الذي يبحث، هو الذي يطلب، هو الذي يأمل ويشتاق ويحن. وكل هذه الكلمات لا معنى لها. لأنه يملك كل ما يريد. ولأنه ليس في حاجة إلى أن يقول أو يشير. فرغباته معطلة وأطرافه مقطوعة، أو كأنها مقطوعة لأنها بلا ضرورة.

وهو لا يجد الصدق ولا يجد الكذب ولا يجد الحب ولا يجد الكراهية. فكل شيء رهن إشارته. . أو أنه ليس في حاجة إلى إشارة. .

ولم يكن كاذباً هوارد هيوز عندما قال في إحدى

المـرات: إن كلماتي التي لهـا معنى هي التي أوجهها لكلبي في الصبـاح. . إنـه في بعض الأحيـان يحتـاج إلى أن أشـرح له!

وكما في الدنيا درجات من الثراء والفقر، فهنـاك درجات من هذا الشعور بـالوحـدة أو الوحشـة، أو العزلـة أو الانقطاع عن العالم حولنا. .

وقـد أطلقنا على عصـرنا هـذا عشـرات الأسمـاء. ولكن من بين أصـدق هـذه الأسمـاء نقـول: إنـه عصـر الإنسـان الوحيد. . أي الإنسان الذي يجـد نفسه وحـده بعيداً عن كـل أحـد. . أو أنه مـع الناس، ولكن النـاس في ناحيـة وهـو في النـاحيـة الأخـرى. ولكن لمـاذا؟ لأن النـاس كثيـرون. ولأن هموم الناس كثيرة. . ولأن كل واحد يستطيـع أن يحمل إنـاءه على رأسـه وأن ينشغل بمتى ينكسـر الإناء أو يـطيـر من فـوق رأسه. . أو يطير رأسه أيضاً. .

انـظر إلى الناس عنـد محـطة الأوتـوبيس. . كثيـرون. . وهـدفهم واضح. ولكن وضـوح الهدف، لم يعـطهم شيئاً من الارتياح. ورغبتهم الموحـدة لم تجعل مـلامحهم واحدة. ولا التعبيـر عنهـا واحـداً. . انـظر إلى هـذه التعـاسـة على وجـوه الناس الواقفين معـاً. الجالسين معـاً. المنتظرين معـاً. كأنهم عنـدما يصعـدون الاوتوبيس ينتقلون من رصيف منخفض إلى

رصيف مرتفع. وكأنهم عندما حققوا رغبة الركوب، لم يصدقوا ما حدث، فلا شيء من الارتياح على وجه أحد. وكأنهم وهم في داخل الاوتوبيس ينتظرون أوتوبيساً آخر!

كأن كل واحد يشعر بالوحدة ويريد أن يكون مع أحد من الناس أو. . آحاد من الناس. ولا يدري أنه ليس وحده. وإنه مع غيره. ولكن هذا «الوجود مع» الغير لم يسحب منه شيئاً من القلق. .

انظر إلى الناس وقد جلسوا أمام التليفزيون. . إلى الأسرة الواحدة. . لا كلام. لا علاقة. كأنهم يجلسون متجاورين وبينهم جدران من الزجاج تفصل إحساسهم ومشاعرهم. . ولذلك لا يسمع أحدهم الآخر. أو لا يريد. ولا يشعر به. أو يزهد في ذلك. .

وعندما كتب أديب فرنسا يونسكو يقول: إن الناس يفضلون أن يظهروا على المسرح حيث الناس كثيرون، ويرفضون الجلوس في الصالة حيث لا أحد ـ هذه العبارة كان يعني بها أن الناس على المسرح معاً، لأنهم في حوار مترابط ويشعر بعضهم ببعض. . أما المتفرجون وهم كثيرون فلا يشعر أحدهم بالآخر، إنهم معاً في المكان. . ولكن كل واحد في حاله. . كل واحد مثل «بيضة امتلأت واكتفت بذاتها». .

وعندما يبلغ الإنسان أقصى درجات العلم الحديث، ما الذي فعله؟ إنه أطلق الصواريخ والسفن إلى الفضاء. ولكن من الذين أطلقهم؟ إنه أطلق عدداً من الرجال. هؤلاء الرجال ينطلقون وحدهم.. ويندفعون بسرعة هائلة نحو الظلام والصمت والموت.. إنها أقسى أنواع الوحدة والوحشة التي عرفها الإنسان.. ويكفي أن تتصور أن رائد الفضاء هذا ليس إلا جنيناً وضعوه في بطن أم من المعادن.. هذا الجنين لا حول له ولا قوة.. وإنما هو يستمد طعامه وشرابه وسمعه وبصره من الأرض.. إن سفينة الفضاء هي هذا السجن الأنيق.. هي هذا «الرحم الاليكتروني».. وعلى رائد الفضاء أن يقطع الليل والنهار وحده تماماً.. وحده يطلع ووحده يهبط إلى المحيط.. ووحده يهبط إلى القمر.. إن على الأرض مائة ألف من العلماء يعملون من أجل أن يكون إنسان واحد وحيداً وحدة مطلقة.. إنهم يعملون من أجل تجريده من الإنسانية والحياة الاجتماعية.. فهم يضعونه في الماء البارد والساخن والضغوط العالية والمنخفضة.. وفي مجالات جاذبية وفي مجالات بلا جاذبية.. ويسلطون على عقله وقلبه ومعدته وأحشائه آلاف العيون. .فإذا أصبح حيواناً آلياً تماماً، أطلقوه لخدمة الإنسان، ككل حيوانات المعامل مثل الكلاب والقطط والفئران.. وأكثر رواد الفضاء مات قتيلاً.. أو

انسحب أو أصيب بالجنون. لأن هناك درجات لاحتمال الوحدة الموحشة. ولكن رواد الفضاء تجاوزوا قدرات الإنسان، الذي هو «حيوان اجتماعي بطبعه» - كما قال الفيلسوف أرسطو من ألوف السنين!

ويوصف هذا العصر الذي نعيش فيه بأن عصر الطفل اليتيم أو الابن اللقيط. أي الذي لا يجد والديه عندما يحتاج إليهما. أو إذا وجدهما فإنهما مشغولان عنه. فليس اليتيم هو الذي مات أبوه. ولا اللقيط هو الذي عرف أمه، ولم يعرف أباه.. أو الذي احتضنه أحد الملاجىء، فقامت المدرسات والمدرسون بدور الأب، وأعطوه اسماً طبيعياً. وحذفوا من شهادة ميلاده أنه بلا أب ولا أم. وإنما اللقيط هو الذي يشعر أنه غريب في بيته. وأنه غريب بين أخوته. وأنه غريب بين غرباء..

ففي العصر الذي يعمل فيه الرجل والمرأة، وفي لحظات الحظ يولد الأطفال، ليس هناك وقت كثير لتربية الأطفال. وقد يظهر في البيت أكثر من خادم وخادمة، ولكن الأب ليس هناك، والأم مشغولة بالبحث عن الأب أو عن بديل عن الأب.. أو شعور بالقرف من كل شيء اشتركت في إنتاجه مع الأب. والمجتمع الأمريكي أحسن نموذج لذلك، فالأطفال يفتقدون الأبوة والأمومة. ولذلك يهربون من البيت. وينشغلون مع الأولاد والبنات من سن واحدة

لتكوين أسر جديدة. يقوم فيها الابن بدور الأب، فيعطي لابنه الصغير ما افتقده أو يقوم فيها الزوج الشاب بدور الأب لزوجته الشابة، وتقوم هي بدور الأم له.. إنهم يحاولون أن يعوضوا هذا النقص الهائل في الموارد الطبيعية لقلبي الأب والأم معاً.. وليست أساليب الهروب المختلفة في أوروبا إلا محاولة للعثور على الحنان خارج البيت.. وليست هذه المخدرات إلا وسائل كيميائية لابتكار جنات مزيفة. فالولد الذي لم يجد الجنة في بيته، فإنه يبحث عنها خارج البيت. وإذا لم يجدها في زوجته، فإنه لا يكف بحثاً عنها.. حتى يجدها أو يموت وهو يحلم بها..

والذي يقرأ شعراء شباب الهيبيز أو الأدباء الصاخبين في أمريكا، والأدباء الساخطين في أوروبا فإنه يجد طريقاً واحداً وهدفاً واحداً: أين الجنة وأين بابها؟

ولن تعود المرأة إلى البيت. ولذلك سوف تحاول أن تكون أماً. وفي نفس الوقت سوف تعجز عن القيام بدور الحضانة أو بدور الحنان ـ والحنان هو الحرارة الطبيعية التي ينضج فيها الطفل. ولا يغني الطفل عن أمه ألف مربية وألف زجاجة لبن وألف لعبة ومليون قبلة من مئات الشفاه..

ولذلك سوف تكون هناك أمهات دائماً، وسوف تكون الأمهات محرومات من الأمومة ومحرومات من الطفل..

فنحن في عصر هذا الطفل الذي يولد من أبوين لا يجدهما. وإذا وجدهما فليس عندهما وقت كثير له. . وعلى الطفل أن يقفز من الطفولة إلى الرجولة بسرعة. أي يجب أن ينمو، ويظل طفلاً في أعماق أعماقه.

إن أحد علماء النفس عندما درس تاريخ هتلر ـ وهو ابن غير شرعي ـ قال إنه لو عرف اللعب وهو صغير، ما كانت لعبتهُ ملايين الأجساد البشرية!

إن عدداً كبيراً من المجرمين العاديين قد حرموا الأب والأم، ولذلك كان عدوانهم على كل أب وكل أم، أو كل طفل له أب وأم. .

صحيح أن عدداً كبيراً من اليتامى واللقطاء والأبناء غير الشرعيين قد تفوقوا على غيرهم من الملايين. ولكن الشعور الطبيعي عند الطفل المحروم أن يخطف ما في يد الآخرين، إلا إذا أدركته المبادىء الأخلاقية والدينية فمنعته من أن يكون مجرماً. .

وعدد قليل من الممتازين أحسوا بهذا الحرمان فارتفعوا فوقه. وكأنهم أرادوا أن يكون ملايين المعجبين بهم، هم ملايين الآباء والأمهات والأخوة. ولا يمكن حصر اللقطاء والأبناء غير الشرعيين الذين لمعوا في تاريخ الإنسانية ففي عالم الأدب والفن: الكسندر ديماس الصغير وبوكاتشيو

وأبولونير ولوي أراجون وجان جينيه والموسيقار فاجنـر وزوجته ابنة الموسيقـار ليست ودافنتشي وساره بـرنان وصـوفيا لـورين وفـرنسـواز هـاردي. وفي السيـاسيـة: هتلر وفيلي بـرانت وأرنست بيفن وإيفـا بـراون. . وكثيـرون غيـرهم في الـطب والفلك والهندسة. .

إنهم جميعـاً أحسوا بهـذا الشيء الأليم: إنهم وحـدهم. وإنـه لا أحـد إلى جـوارهم. ولا حـق لهـم في أب أو أم. وإنهم «دون» النـاس جميعاً. فليست لهم بيـوت وحـرمـات. وأبـواب ونوافـذ. ولا يستطيـع الواحـد منهم أن يقـول: عمي وخالي وخالتي. . ولكنهم بعيـدون عن الناس وحـرموا من أن تكـون لهم قـرابـة أو أصالـة أو شجـرة أنسـاب. . أو بيت العائلة. .

ولكن غريزة حب البقاء تحولت إلى ينبوع عبقري ارتفـع بهم من مجـرد البقـاء إلى التفـوق غلى الآخـرين. . أي إلى البقاء أطول وأعرض وأعلى من الآخرين. .

وفي العصـر الحديث لم يعـد المجتمع الأوروبي يستنكر الابن الـذي جاء من غيـر زواج. . فلا فـرق بين ابن الحـلال وابن الحرام فكلاهمـا ابن. ولذلـك له نفس الحقـوق. ثم لا فـرق بين الـذي لـه أبـوان، وبين الـذي لـه أم وليس يعـرف أبـاه. . فنحن جميعاً نعيش في عصـر لا يجد فيـه أحد أبـاً أو أمـاً. . أو إذا وجـدهمـا فهمـا غـائبـان بـالـروح حـاضـران

بـالجسد. . فكـل الناس سـواء: يتامى أو لقـطاء ـ وهـذه هي الحياة الحديثة، ولا رجوع عنها!.

وفي هـذا العصـر الـذي تقـدم فيـه العلم النـظري والتطبيقي انتشرت على أطراف الصحارى الـرملية في أمـريكا والجليـديـة في روسيـا وعلى قمم الجبـال الأوروبية وفـي كهـوفهـا، تلك الصـوامـع البيضـاء المكيفـة الهـواء ـ تلك المعامل التي يعيش فيهـا العلماء يبحثـون. إن هذه المعـامل أشبـه بصـوامـع وأديـرة الـرهبـان والمتصـوفين. إن هؤلاء الممتـازين من أبنـاء العصـر الحـديث يعيشـون في رهبـانيـة علميـة. . أو يعيشـون في هـذه السجـون المكيفـة الهـواء والضـوء والضغط. وتحرسهم الـدول كأشـد النـاس شـراسـة فـي الإجرام. . أو كأنهم أعداء الدولة!

فنحن في عصـر الصـوامـع الالكتـرونيـة. . وفي العـالم مئـات الألـوف. . بـل مـلايين الممتـازين يعيشـون في هـذه السجـون الانفـرادية من أجـل البحث عن الحقيقـة. . إنهم يعيشـون في أقفاص من حـديد تشبـه أقفاص الأسـود والنمور في حـديقـة الحيـوان. . ولهم أرقـام ولهم عـلامـات مميـزة. وممنـوع الاقتراب منهم والـذي يقترب منهم تـراقبه الـدولـة، وتحسب حركاته. .

ولكن هذه العزلة إرادية. .

أي أن الإنسان أرادها لكي يصبح قادراً على العمل أفضل. ولن يتمكن من ذلك إلا إذا انعزل عن الناس.. وهو أشد ما يكون شوقاً إليهم. ولكن المعادلة صعبة: الكثير من الناس يساوي القليل من العلم، والقليل من الناس يساوي الكثير من العلم. وقد اختار هؤلاء «السجناء الممتازون» العلم الكثير. ولذلك عاشوا بعيداً عن متناول الناس.. ليس الواحد منهم مطروداً، ولكنه كالمطرود. ليس منفياً ولكنه كالمنفي.

ثم أن هذه العزلة هي الشرط الوحيد لضمان استمرار البحث واستمرار الحياة.. ففي عالم الحيوان تجد الأنثى تنعزل تماماً عن بقية القطيع لكي تلد.. فإذا ولدت ظلت إلى جوار وليدها حتى يكبر.. ثم عاودت حياة القطيع.. فالعزلة مقدمةالولادة وشرط لبقاء المولود.

والذي يفعله العلماء، يفعله الفنانون أيضاً. إنهم ينزلون إلى بحر الحياة الصاخب يغتسلون وتمتلىء عقولهم وقلوبهم.. فإذا جاءت لحظات الابداع انزووا وانعزلوا.. وأقفلوا الأبواب والنوافذ.. وباعدوا بينهم وبين الناس.. إنهم يختارون عذاب الوحدة، لأنه شرط الولادة.. مع أنهم في نفس الوقت يحبون الآخرين ويحنون إلى الناس.. فهم اجتماعيون وهم أزواج وآباء وأبناء وأسرة واحدة.. ولكن لا بد من الصومعة.. لا بد من الحياة عند أطراف الصمت

وكهوف الهدوء . .

إن المثـل الأعلى هـو حيـوان اللؤلؤ . ذلـك الكـائن الضعيف جـداً الذي احتمى تحت شفتين من المحـار أي من الكالسيوم اللامع . . إن هذا الحيوان عندما يتفتـح ليتغذى . . تـدخل بعض الأشيـاء الصغيـرة جـداً العـالقـة في المـاء إلى جسمه الناعم الرقيق في داخل هذه القوقعـة . . وهو لا يقـوى عليهـا . . فترتفـع درجـة حـرارتـه ويمـرض . . وينـطوي على ألمـه . . ويـظل يبكي ـ نعم يبكي . . فهـو يفـرز مـادة اللؤلؤ البيضـاء اللامعـة حـول هـذا الجسم الصغيـر الغـريب الـذي دخـل إليه من البحـر. ثم يبعد عن الشـاطىء . . وعن سـطح المـاء . . ويظل معلقـاً هادئـاً كأنـه مشنـوق . . وتمضي الأيـام والشهور والسنوات وهـو يفرز ألمـه الأبيض الشفاف . . وبعـد ذلك تمتد إليـه يد إنسـان تفتح شفتيـه وتستخرج من أحشـائه حبة اللؤلؤ . .

هـذه الحبة الجميلة، التي قـال عنها أجـدادنا إنهـا دموع الملائكة، تحسده عليها كل حيوانـات البحر . . تحسـده على حبـة اللؤلؤ، وتنسى مـرضـه ووحـدتـه ووحشتـه في المـاء . . وعجزه عن أن يعيش مثل سمكة أو ينطلق مثل حوت . .

وكلنـا هذا الحيـوان المسكين، الذي لا ينـظر الناس إلا إلى الحبـة اللامعـة التي تخرج من أحشـائه وأحشـائنا . . أمـا

كيف تكـونت ومن أي شيء تكـونت، وإنهـا نهـايـة حيـوان أفرزها ليموت بعدها، فليس هذا مما يشغل الناس!

.. كـل هـذا العـذاب من أجـل أن يمـوت محسـوداً من الجميع، دون شفقة من أحد.

ولـو خيروه - وخيـروني - بين أن أكـون مثيـراً للشفقـة أو مثيـراً للحقد، لمـددت يـدي وأرجلي استـدفىء على أحقـاد الآخرين!

أنيس منصور

القاهرة ١٩٨٨

أذني على الأرض
وعيني في السماء!

عندما يقول لك شخص: أنا عندي فكرة؟

فمعنى ذلك أنه يريد أن يعرض أسلوباً في التغيير. في تغيير أفكارك أو أفكار غيرك. وإنه يريدك أن تقف إلى جواره.. أنت أو ألوف غيرك. فإذا استطاع فهو صاحب رسالة أو مذهب أو دين.. والتاريخ يروي لنا ما الذي فعله أصحاب الفكرة الواحدة القوية. إنهم الذين غيروا التاريخ!..

وقد اندهش الناس في لندن منذ سنوات عندما وقف أحد أبطال مسرحية «كله في وقت واحد» وأعلن قبل نهاية المسرحية بدقيقة واحدة قائلاً: ولكن أنا عندي فكرة!

وفي هذه اللحظة قفز أحد الممثلين من صفوف المتفرجين وهو يقول: إنه شخص عنده فكرة.. هذا شيء خطير شخص عنده فكرة ويظل ساكناً طول هذه المسرحية لا ينطق بكلمة.. ثم يجيء الآن ليقول أن لديه فكرة.. إن هذا الموقف الخطير لا يمكن السكوت عليه.: ولذلك

باسم المؤلف وباسمكم جميعاً أطالب بإسدال الستار ـ وينزل الستار!

ولكن هذا الموقف يدهشني بضع لحظات. ولكنه بعد ذلك طبيعي جداً فصاحب الفكرة يريد أن يقنع الناس بشيء آخر. . المتفرجين والممثلين. وهذا في حاجة إلى مسرحية أخرى. . أو إلى أن ينتقل الناس من المسرح إلى مكان آخر. .

وإذا دخلنا دماغ الكاتب أو الفنان أو السياسي أو الفيلسوف أو المصلح الديني فإننا أمام طراز واحد من الناس عندهم أمل واحد: هو أن ينقلوا الجبال من مكانها إلى مكان آخر. .

وفن التفكير والاقناع بالفكرة هو فن تحريك الجبال. والعبارة الشهيرة تقول: إذا لم يأت الجبل إلى محمد ذهب محمد إلى الجبل. .

وما من صاحب فكرة إلا يريد أن ينتقل إليه الجبل. . ولكن الجبل في حاجة إلى قوة لتهده وتجعله وادياً ثم يتحرك هذا الوادي ليقف على «حيله» جبلاً من جديد. . إن أصحاب الرسالات الكبرى حاولوا أن تنتقل إليهم الجبال. ولكن الجبال لم تتحرك فتحركوا هم وانتقلوا من مكان إلى مكان وهاجروا. . موسى هاجر إلى سيناء وعيسى هاجر إلى

مصر ومحمد هاجر إلى المدينة. . وبعد ذلك سارت وراءهم الجبال!

وليست الفكرة هي التي تنقل جبلاً ولكن صاحب الفكرة وطريقة عرض الفكرة واقتناع الناس بها والصمود معها ولها وحولها وانتقال عدواها إلى الملايين عاماً بعد عام. .

إلا إذا كان الإنسان إلهاً إغريقياً.

فهو قادر على أن يحول الجبل إلى نهر. والنهر إلى جبل. . والوديان إلى مزارع والمزارع إلى حيوانات. . فقط هذا الطراز من الكائنات ليست عندها مشاكل. . بل ليست عندها أفكار. . فالمسافة بين الفكرة والعمل أو بين الرغبة وتحقيق الرغبة لا وجود لها. فالذي تريده يكون. ولكن الإنسان يقطع هذه المسافة الطويلة بين الذي يريده وبين الذي يستطيعه. أو بين الذي يدور في رأسه وبين الذي يدير رؤوس الآخرين في سنوات مريرة.

ويقول الكاتب الأمريكي فانس باكار: إنها ليست السلعة فقط هي التي تروق المشتري، ولكن طريقة لفها في الورق وهذا هو الفن الذي تقدم فيه اليابانيون على كل الناس!

وما يقال على السلعة يقال على الفكرة أيضاً. .

وليست أفكار الإنسان شيئاً صعباً وإنما الإنسان هو أصعب وأعقد من كل الأفكار والمذاهب والأديان التي يدعو لها. . ولذلك كانت الأفكار واضحة، ولكن عرض الأفكار ونقلها والإقناع بها ـ عبر الناس أو عبر حقول الألغام العقلية ـ هي أصعب ما يواجه المفكر والفنان والسياسي ورجل الدين. . ولذلك ضاق أكثر الأنبياء بشعوبهم. . فنوح قال: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً» فهو يطلب من الله أن يحرق الأرض ومن عليها. . وقد غرقت الأرض ومن عليها. . وجاء البحر يحمل سفينة نوح بركابها القليلين جداً!

وأكثر الأفكار وضوحاً، ليست واضحة عند كل الناس. ولذلك لا يمكن أن يكون هناك اتفاق على معنى واحد، أو فهم واحد، أو أسلوب واحد. . ولذلك فالتفاهم صعب. والاتفاق أصعب!

مثلاً منذ سنوات ذهب مئات الألوف من الناس إلى متحف المتروبوليتان في نيويورك لمشاهدة لوحة للفنان الهولندي رمبرانت اسمها «الفيلسوف أرسطو يتأمل الشاعر هوميروس». هذه اللوحة اشتراها المتحف بمليوني دولار وجاء الناس بالطائرات والسيارات والسفن لمشاهدة هذا العمل الفني العظيم. . وجاء عشرات الألوف من طلبة

المـدارس والجمعيـات الخيـريـة. كلهم جـاءوا ليروا: هـذه اللوحــة. . وليتسـاءلــوا: ولكن لمـاذا ينــظر الفيلســوف إلى الشاعر؟ ولماذا اختار الفنان للفيلسوف مـلابس رجل هـولندي غني؟ ومـا هو المعنى؟ ومـا هو الهـدف؟ ومـا هي الفـائـدة؟ وهل تساوي هذا المبلغ؟

هـذه اللوحـة الـرائعـة التي هـزت الحيـاة التجـاريـة في أمـريكـا قـد استقـرت الآن في الــدور الثـاني بين عشــرات اللوحــات لنفس الفنـان ولم يعــد أحـد يلتفت إليهــا بهــذا الجنـون. ولكن الناس ذهبـوا ليروا، وليتحـدثوا بعـد ذلك. . وليقضـوا على الملل والقرف والضيق اليـومي في حيـاتهم. . ولكن هذه اللوحة ليست إلا فكرة فنان عـاش ومات من ثـلاثة قـرون يروي فيهـا كيف أن فيلسوفـاً عـاش ومـات من ثـلاثـة وعشرين قرناً يتأمل شاعراً عظيمـاً مات قبله بخمسـة قرون. . إنهـا فكرة رجـل عن رجلين ورآها مئـات الألوف وكـل واحـد خرج بالمعنى الذي يريده أو يريحه. .

وأهم من ذلـك أن رجـلاً في هــذا المتحف استـطاع أن يثير الناس بفكرة له هـو. هذه الفكـرة لا علاقـة لها بـالفن أو الشعـر أو الفلسفة. . إنهـا فكرة تجـارية سيـاحية من الـدرجة الأولى!

وليس بعيداً معرض توت عنخ آمون في لندن.

فهـذا الملك الذي حكم مصـر ست سنـوات ومـات في الثامنة عشـرة من عمره كـان حلم الملايين. كـل واحد يـريد أن يـرى شيئاً.. أو يرى نفس الشيء ليخرج بمعنى آخـر.. وتـوت عنخ آمـون ليس شخصية هـامة في تـاريخ مصـر. فهو ملـك لا قيمة لـه. ولكن قيمته جـاءت من أنه صـاحب مقبرة سليمـة وتابـوت لم تمسسـه أيـدي اللصـوص.. فهـو «عمـل فني» لحـانـوتي مجهـول.. أو هـو صـورة بـاقيـة رائعـة لفن النحت والنجـارة والتحنيط عنـد الفـراعنـة.. وهـو في نفس الـوقت يـدخـل تـاريـخ الحضـارة البـريـطانيـة التي تعـاونت صحافتها مع علمائها على كشف هذا الأثر التاريخي الرائع.

والناس عندما ذهبوا لرؤية تـوت عنخ آمـون، لم يذهبـوا للفـرجـة على الشخص، وإنمـا على الفكـرة الفنيـة.. على عكس الـذين يـذهبـون للفـرجـة على جثمـان لينين.. فهم ينسـون صناعـة التحنيط السوفيتي لـرجل مـات سنـة ١٩٢٤، ولا يذكر النـاس إلا الشخص لأنهم يعشقون أفكـاره الفلسفية السياسية الاقتصادية..

وفـي أحـدث كتـاب عن «رمبـرانت» للكـاتب الفـرنسي روبير تاتوبزر جـاءت هذه العبـارة: ولما سئـل رجل يقف في نهاية الطابور وقد حمل طعامه وعلبـة صفيح بهـا كوكـا باردة: وأنت لماذا جئت؟ فقال: عنـدي سبع دقـائق.. فقد تعـطلت سيارتي وسوف تحضر ابنتي لانتشالي..

ويقـول الكاتب: ولم أشـأ أن أسألـه عن رأيه في الفنـان رامبـرانت أو في لوحـة الفيلسوف أرسـطو وهو يتـأمل الشـاعر الأعمى الخالد هوميروس!

أعود إلى مسرحيـة «كله في وقت واحد».. ففي الـدقيقة الأولى من الفصـل الأول يقول أحـد الأبطال: «الـذي يـريـح عيني هو الذي يريح عقلي.. الذي أراه بألوانه ومسـافاتـه.. وألمسه بيدي.. أو الـذي أحاول أن ألمسـه بلساني كـالطفـل هـو الشيء الصحيـح.. لا أحب أن أسمـع أحـداً يقـاطعني فيقول أن الفيلسوف الفلاني قال كـذا.. والعالم العـلاني قال كـذا.. مـع احتـرامي للجميـع.. هـذا رأيهم.. ولكن رأيي هـو مـا أراه.. فـرؤيتي هي رأيي.. الـرؤيـة هي الـرأي.. قـولوا: جـاهل قـولوا: سـاذج.. ولكني هكـذا.. وليس من شـأني أن أوجع رأسي.. فليس عنـدي سوى رأس واحـد.. ولكن هنـاك أناسـاً لديهم هـذه القدرة الهـائلة على أن يغيروا رؤوسهم بنفس السـرعـة التي يغيـرون بهـا البـاروكـة أو الحـذاء.. إن المفكـرين والفـلاسفـة والسـاسـة لهم رؤوس الاخـطبوط كلمـا حطمنـا واحداً من هـذه الـرؤوس نبت رأس آخـر.. وهكذا.. ولا أحسـدهم على ذلك.. فـرأس واحـد قـد أوجع قلبي.. ويكفيني هـذا إلى نهايـة الحيـاة أو نهـايـة هذه المسرحية»..

ولـو استعرضت مـا الـذي قـالـه علمـاء الفلك عن هـذه

الأرض التي نعيش عليها لدارت رؤوسنا كالأرض نفسها..
لقد جعلوها طبقاً يسبح في الهواء.. وجعلوها نصف كرة..
وكرة.. وبيضة.. واستقر رأيهم على أنها في شكل
الكمثري أو الجوافة.. ومهما قال الفلكيون كوبرنيكوس
البولندي وبراهه الدنمركي وكبلر الألماني وجاليليو الإيطالي
ونيوتين الإنجليزي فإنه أجمل وألطف وأريح للعين والعقل
أن يقال لك: الشمس طلعت. نامت وصحيت.. الشمس
طلعت.. ومع الغناء والموسيقى لا تتساءل ولا تفكر إن
كانت الشمس تطلع حقيقة أو أن الأرض هي التي تدور
حول الشمس وأمامها؟

عندما سئل العالم اليوغوسلافي الأصل بوبين: وأنت
كيف فكرت في تطوير التليفون والراديو؟

روى أنه عاش في منطقة الصرب.. وأنه كان يرعى
الغنم. وأنه لاحظ أن كل واحد من رعاة الغنم قد تسلح
بسكين كبير له يد من خشب. وأن الراعي إذا أراد أن
يتحدث إلى راع آخر، فإنه يغمد السكين في الأرض ويظل
يدق بقطعة من الحجر على المقبض الخشبي.. وفي هذه
اللحظة يكون راع آخر، وعلى مسافة بعيدة، فعل نفس
الشيء.. ويتلقى هذه الطرقات التي انتقلت في الأرض إلى
السكين الآخر.. وهكذا يتخاطب الرعاة في الجبال..
ويقول بوبين: من هنا عرفت كيف يتصل الصوت.. وكيف

أن «الملف الكهـربي» من الممكن أن يضخم الصـوت. . وفهمت معنى الدائرة الكهربية المغلقة!

ويقول بوبين: لقد كان شعاري كواحد من العلماء هو أن أضع أذني على الأرض وعيني في السماء. . أسمع وأفكر وأتخيل. . أرى وأفكر وأتخيل. . أتذوق وأفكر وأتخيل. . فالذي ليس على الأرض أراه فوق في السماء!

ويقول: أصعب شيء هو الفكرة الأولى. . الفكرة الأولى الواضحة وبعد ذلك يمكن نقلها عبر الكلمات والرموز والإشارات إلى الآخرين!

. . ولو لم يسألني طفل صغير: قل لي يا أونكل ما هي السماء؟ ما أغرقتني هذه الحيرة كلها. وما تشككت في قدرتي على أن أقول شيئاً أو حتى أشير إلى أي شيء آخر ولكن هذا الطفل الصغير هو الذي انتشلني عندما سألني ورد على السؤال فقال: طيب يا أونكل من هو الله؟ أنا أقول لك. . إنه هو الذي خلق السماء!

ولو كان يمكن ضغط السماء في جملة مفيدة أو في برشامة. . أو في حقنة لسارعت فأعطيتها لهذا الطفل أو لأي إنسان آخر. . ولكن المشكلة قديمة: كيف يدخل الجمل في عين الإبرة؟ والجواب: يدخل الجمل إذا سخطنا الجمل فأصبح نملة. . أو إذا فتحنا عين الإبرة لتتسع للجمل!

وليس هـذا ممكنـاً في تعـريف السمـاء أو الله وخلق الله للسماء في عقل طفـل صغير. . ولا عـذر للكاتب أو المفكـر أو الفنـان إذا لم يستطع ذلـك. أليست هـذه صنـاعـة؟ طبعـاً صناعة. ولكن أحداً لا يسأل: ولكن أين حدود قدرته؟

ولا تـزال عبارة الأديب الفرنسي موبـاسان صـادقة ـ مع الأسف ـ إنـه يقـول: إن القـارىء يقـول للكـاتب دائمـاً: أرحني. . أسعـدني. . هـزني أنمني. . أيقـظني. . اجعلني أحلم أضحكني. . ابكني. . جفف دمـعي ودمي وعـرقي. . افعل شيئاً. . إنك قادر على كل شيء!

ولكن الكـاتب والفنـان والسيـاسي وصـاحب الـرسـالـة الـدينية ليس قـادراً إلا على أشياء صغيـرة. . فهـو يبكي وهـو يحلم بـأن يحرك الجبـال وأن يجعلها كـالجمـال تـدخـل في عين الإبرة!

زمن تصيح فيه الدجاجة
أعلى من الديك!

أحد علماء النفس كان يزور مدينة تريستا، ولاحظ أن عدداً كبيراً من الأطفال قد وضعوا الضمادات على جباههم وأنوفهم شيء غريب. نزل من السيارة، ولم يشأ أن يسأل أحداً، وعلى الحدود القديمة بين تريستا ويوغوسلافيا وجد علامات بيضاء على الأرض. وقال: هذا هو السبب!..

أما السبب الذي اهتدى إليه فهو أن الخلافات بين الإيطاليين واليوغوسلاف على ضم مدينة تريستا قد انتقلت إلى الأطفال. فخناقات الأطفال فوق هذه الحدود البيضاء المرسومة على الأرض، انتقلت إلى نفوسهم.. فهناك حدود كانت بيضاء وأصبحت سوداء أو دموية في لعب الأطفال.. فقد مزقتهم هذه البقع البيضاء. وأصبح من مفاخر الأطفال أن يبدو الواحد وقد أصيب في وجهه أو في أنفه.. تماماً كما يتباهى المحاربون القدماء بأنهم فقدوا أيديهم أو أرجلهم في الحرب.. ولما أزيلت العلامات البيضاء من الأرض لم يعد هناك مجال للمفاخرة فقد انحسم الخلاف وزالت الفواصل على الأرض وبين الرجال وبين الأطفال!

ومن عشر سنوات أرسلت إحدى المستعمرات الإسرائيلية شكوى غريبة: إن عدداً من الأطفال يبللون الفراش رغم أن سنهم قد تجاوزت العاشرة. وتكررت هذه الشكوى أيضاً، وجاء عالم كبير اسمه برونو بتلهايم يبحث هذه المشكلة النفسية والتربوية أيضاً. واكتشف أن طفل المستعمرات اليهودية ليس إلا حيواناً قد جردوه من أبويه. فليس من حقه أن يكون له أب أو أم.. فإسرائيل هي أمه وأبوه. وأيقن أن هذه المعاملة الجافة سوف تؤدي إلى ظهور نوع من الوحوش الآدمية المَعقدة.. وإن الحل هو أن يعاد الأطفال إلى أحضان أمهاتهم. وإن هذا التبول أثناء النوم ليس إلا نوعاً من إثارة الشفقة.. وإلا إنذاراً بانحرافات أخرى دموية، عندما يكبرون. وإن أول هذه الانحرافات أن يهرب الأطفال إذا كبروا من هذه الحظائر البشرية إلى الحياة في المدن.. أو الهرب نهائياً من إسرائيل!

وفي سنة ١٩٤٨ اكتشف العالم التربوي الألماني أوتو فوجل أن إحدى القرى المجاورة لمدينة اسن بحوض الرور تحترق فيها سلال القمامة لسبب غير واضح. فليس من عادة هذه المنطقة إحراق المهملات دون رعاية من أحد وسأل. ولم يجد إجابة مقنعة ـ وإنما قيل له: بعض الأطفال الأشقياء. ولكنه كعالم اجتماعي لا يريحه هذا الجواب. بل أن هذا الجواب إعلان صريح عن مشكلة من الممكن أن

تكـون أكبـر. أو أنـه أحـد أعـراض مشكلة من الممكن أن تكـون أعمق. ويقـول د. أوتـو فـوجـل في كتـاب «الأخـطاء الصغيرة في الحياة اليومية ـ بحث نفسي اجتمـاعي ميداني»: لقـد وجدت أن الـذين يفعلون ذلـك أربعـة أطفـال من أسـرة واحدة. وبالدراسة القـريبة جـداً وجدت أن أحـد أخوتهم قـد سقط في إحـدى المداخن فمـات. ومنذ ذلـك الحين وهؤلاء الأطفـال يريـدون أن يحولـوا القريـة كلهـا إلى مـدخنـة لعـل النـاس جميعاً أن يمـوتـوا فيهـا. . وعثـرت أيضـاً على طفـل يقـول أنه سمـع هذه العبـارة من أمه. . وطفـل آخر يقـول أنه سمع مثل هذا المعنى من والده وكان مخموراً!

وفي أحـدث دراسـة عن هتلر للكـاتب الألمـاني فـريـد لاندر يقول: لو استطاع هتلر أن يضـع أصابـع قدميـه في فمه وهو صغير، لانقذت البشرية من الحرب العالمية الثانية!

وهـو يقصـد بـذلـك في كتـابـه «أعمـاق أعمـاق هتلر وآخرين» أن هتلر الطفل قد حرم من رعايـة أمه. . وكـان يجد كـل شيء بعيـداً. ولكي يجعله قـريبـاً كـان لا بـد أن يكـون عنيفـاً. ولو أدرك هتلر أصـابع قـدميـه، مـا احتـاج إلى عنف ليجعل أفواه الناس عند أصابع قدميه بالنار والحديد. .

أي أن هـذه الأشياء الصغيـرة الضارة لـلأطفـال يجب أن نبحث عنهـا في البيت. . عنـد الأم. ولا أقـول عنـد الأب. فالأب بعيد عن الـطفل. عن تـربيته وعن حضـانته. صحيـح

أن الأب ضروري للام والابن. ولكن أثر الأم في الطفل أعمق. فإذا كانت الأم هي التي ولدت الطفل، فالأم أيضاً هي التي تقدم العالم كله للطفل. . تقدمه قطرة قطرة من ثديها. . تقدمه ابتسامة ابتسامة وهي ترضعه وهي تحتضنه. . وكل تجارب الأطفال تبدأ في حضن الأم. فالطفل الذي يعض ثدي الأم، ولا يجدها تمنعه أو تحذره يمضي في العض والضرب والشتم والاعتداء عليها. . وعلى الآخرين أيضاً!

ولا أعرف إن كان أحد من علماء النفس عندنا قد لفت نظره بعنف طوبة جاءته من طفل في الشارع أثناء مروره. . أو سقط فوق دماغه قرطاس من قشر اللب أو السوداني أو البطيخ. . أو فردة شبشب. . أو تساءل: ولماذا يكسر الأطفال زجاج البيوت والسيارات. . ويخربشون الأبواب والنوافذ. . ويحملون معهم أمواس الحلاقة ويفتحون بها بطون المقاعد في دور السينما. . لماذا يدوسون على الأشجار. . لماذا يقطفون الأزهار وبعد ذلك يسحقونها بأقدامهم. . لماذا؟

هي نزعات عدوانية. والإنسان هو أكثر الكائنات شاعرية. فهو محب ولهان، وهو كاره مخترع. فهو الذي اخترع الشعر والغناء وهو الذي اخترع القنابل والمدافع. . هو الذي ابتدع مشاهد الغرام، وهو الذي اخترع الحروب.

والطفل في سلوكه أقرب إلى الحيوانات. .

ففي عالم الحيوانات نجد هـذه النزعـات العدوانيـة على أشدها. لأنها غريزية. فالطيـور تزقـزق إذا اقترب منهـا حيوان غريب. . والقردة تصيح. . والذئاب تعوي. فما الذي تـدافع عنه؟ إنها تدافع عن «منـطقة» لهـا. . أو أرضها. وتكـون هذه الأصوات العدائية إنذاراً للجميع بأن خطراً يقترب. .

بعض الحيوانات تصنع لنفسها حـدوداً. . الكلاب تفعـل ذلك عندما تتبول في الشـارع. . إنها تتبـول في المناطق التي اعتـادت عليهـا أو التي تعيش فيهـا. وتجيء كـلاب أخـرى وتفعـل نفس الشيء. أي أن هناك اتفـاقاً واضحـاً بـارزاً على أن هذه الحيوانات تسكن منطقـة واحدة. وهـذه هي الطريقـة العملية لإرساء حـدود لها روائـح نافـذة إلى أنوف الكـلاب ـ في الريف يصنعون الحواجز والفـواصل من مخلفـات البهائم أيضاً!

وهناك أنواع من الطيور عندما تشعر بالخـطر فإنهـا تنقض على الغريب أو الأجنبي، وتسقط عليها برازها!

وربما كان هذا الدفـاع الإقليمي من الطيـور والحيوانـات هو الذي يعطيها فـرصة للتكـاثر. فهي عنـدما تـدفع الأعـداء عن أرضهـا وأوكـارهـا وأعشـاشهـا تـوفـر لنفسهـا الـطعـام والمأوى. . أي الجو المناسب للتكاثر والاستمرار.

ويحـدث بين الحيوانـات ما يحـدث بين الإنسان أيضـاً: فهي تتجـاور ولا تتقارب. والإنسـان حـريص على أن يكـون مع الآخـرين. . وألا يعيش بمفـرده، بشـرط أن يبقى الجـار بعيداً. . أي بشرط أن تكون له حياته الخـاصة وألا «يجـرحه» الجـار. . فاقتـراب الجار من الجـار «جرح» لا عـلاج لـه إلا بالابتعاد. . أي بأن تكون هناك مسافة بين الاثنين!

والحيوانات عندما تتشـاجر على الـطعام أو الجنس فـإنها تختلف عن الإنسـان. . فبعض هذه الحيـوانـات ينكش شعـر جلده. . أو ينكش ريشـه أو يكشر عن أنيـابـه. . وبعـد ذلـك يبتعـد دون أن يكـون هنـاك عـراك دمـوي. . أو يستسلم وفي هـذا الاستسـلام حسم للنـزاع القـائم. فبين القـردة نجـد أن الـذكـر أو الأنثى اذا استسلم لمن هـو أقـوى أدار لـه ظهـره. وبسرعة نجـد أن القوي يعلو الضعيف. وينتهي الخـلاف عند هـذا الـوضـع وبهـذه الصـورة. دون أن يمـوت الصغـار أو الإناث في هذه المعارك الدمـوية دفـاعاً عن الأرض أو البقعـة من الأرض. .

وبعض الغزلان عندما تتعارك تتـلاصق كتفاً إلى كتف. . تمـاماً كمـا يفعل المصـارعـون اليـابـانيـون. وتـظل الغـزلان كـذلـك. . وفجـأة يهـرب أحـدهمـا. . أو يشتبـك أحـدهمـا بـالآخر. وبعض الغـزلان لها قـرون شديـدة الالتفـاف فـإذا تشـابكت القـرون ظـل المتصـارعـان حتى تجيء الـوحـوش

المفترسة وتأكل الاثنين معاً. . لأنهما لم يفلحا في فك القرون بعضها من بعض! هناك بعض أنواع الغزلان تنقض على الذكر المتصارع وتقتله. وتظل إلى جوار الأنثى التي مات الذكر وهو مشبوك بقرنيه مع قرنيها. . ويجيء بعض الوحوش وتأكل الذكر الميت. . دون مساس بالأنثى!

والذئب عندما يستسلم لذئب آخر فإنه يدير له عنقه. . أي يدير له جانباً ضعيفاً منه. . وفي هذه الحالة يهجم عليه الذئب الآخر. . أو يتركه مكتفياً بهذا النصر. .

وسوف أمضي بعض الوقت في الحديث عن معارك الحيوانات تمهيداً للكلام عن الأطفال الصغار، وهم حيوانات ضالة في العصر الحديث، لأن الأمهات يعملن شيئاً آخر غير الأمومة، ويقدمن شيئاً آخر غير الحنان. صحيح أنه حنان بلا مقابل مباشر ولكن لا تستطيع الأم إلا أن تكون حنوناً حتى لو أرادت غير ذلك. . ولا تستطيع إلا أن ترضع طفلها والا احتبس اللبن في صدرها وأشعل النار فيها.

وبسرعة أضرب مثلاً بالفئران أن فأراً غريباً لو دخل حجراً به فئران أخرى لانقضت عليه وقتلته فوراً. إنه غريب. . إنه دخيل. .

وكما أن «الحياة معاً» بين الناس ليست دليلاً على

الحب ولا دليلاً على نجاح العلاقات التي تربط الرجل بالمرأة، وإنما على استمرارها وعلى الحرص على ذلك والصبر عليها فكذلك بين الطيور شيء من هذا. بل إننا نجد ذكراً وأنثى في غاية النشاط في جمع أوراق الشجر والأزهار الجافة وبعض نسيج القطن لتكوين العش.. ثم تبيض الأنثى. وينام الذكر فوق البيض. وتظهر الصغار. ويحميانها. وليس بين الأب والأم أية عاطفة ولا حب.. ولو غاب أحدهما ما افتقده الآخر.. ولو جاءت أنثى أخرى لرعاية الصغار ما اعترض الذكر. ولو جاء ذكر آخر لمشاركة الأم في رعاية الصغار ما اعترضت الأم.. إنهما متجاوران متعايشان. وكما كان الأب والأم يكون الصغار أيضاً. تكبر ولا تعرف الأب والأم، هذه غريزة بعض الطيور التي يفعلها الكثير من أبناء العصر الحديث ـ مما يحزن كل أب وكل أم. وعلى الآباء أن يتعلموا من الطيور!

وفي عالم الأوز نجد شيئاً مختلفاً. فذكر الأوز أقرب إلى الإنسان. فهو بطبعه مخلص لأنثاه. ولكن هذا الإخلاص أو هذا الحب لا يتولد إلا من كراهية.. فالذكر كراهية منه لذكر آخر يعانق أنثاه ويلف عنقه حول عنقها. وبعد ذلك ينطلق نحو ذكر آخر وينقض عليه بشراسة. ثم يعود بسرعة إلى أنثاه.. ففي عالم الأوز: لا عداوة إلا بعد حب!

وعند الإنسان نجد أن العدوان له أشكال كثيرة تبدأ من إلقاء طوبة إلى إلقاء قنبلة. ومن كسر زجاج إلى كسر عنق.. ومن مجرد الشتم إلى التآمر.. ومن إطلاق الشائعات إلى القتل.. ومن الممكن أن يكره الإنسان من لا يعرف.. ولكن الإنسان أيضاً يستطيع أن يتجاور وأن يشد بعضه إلى بعض، سداً مانعاً ضد الأجنبي وضد الغريب وضد الدخيل.. سدا من الأخوة ضد ابن العم ومن أبناء العم ضد الغريب. وكذلك تفعل بعض الأسماك أنها من الممكن أن تسير معاً في اتجاه واحد، دون أن تعرف بعضها البعض أو تكون من فصيلة واحدة. ولكن الوجود معاً هو صيانة وأمان لها. ووسط هذا الزحام الذي يجهل أفراده بعضها البعض نجد الأسماك من فصيلة واحدة تتجاور.. ومن أحجام واحدة تتجاور.. ومن أعمار واحدة تتجاور.. وتتباعد عن الأكبر سناً وحجماً والأبعد فصيلة.. والجميع تمشى معاً خوفاً من أن تكون وحدها فتنفرد بها أسماك متوحشة!

والإنسان هو الحيوان الذي له أطول طفولة. فالطفل يحتاج من أبويه عشرين عاماً ليكون قادراً على أن يعتمد على نفسه. ومن مظاهر الاعتماد على النفس أن ينفصل بحياته وعواطفه عن والديه وأن ينشغل بأن يكون أباً له أولاد يرعاهم لينفصلوا عنه وهكذا.

وكل هموم الدنيا تبدأ في الشهور الأولى لحياة الطفل. بعض علماء النفس يقولون في النصف الأول من السنة الأولى. وبعضهم يقول في النصف الثاني. وأنا من المؤمنين بأن هذه المشاكل تبدأ قبل ذلك بسنوات.. تبدأ بطفولة الأب وطفولة الأم. وبعد ذلك تبدأ بزواج الأب والأم: إنسانان غريبان التقيا في ظروف غير عادية وفي درجات حرارة عالية وقررا أن يعيشا بعد ذلك معاً ويكون لهما أولاد.. ثم لا يتسع وقت الأب للأم ولا يتسع وقت الأم للأطفال.. الذين يطلقون الطوب على النوافذ وعلى الأزهار والطيور ويمزقون المقاعد والأوراق ويهربون من الأب والأم في أسرع وقت ممكن وينسون كلمة الشكر لكل من الأب والأم على ما قدماه لهم من تعب وحب وسهر ورعاية وعناية ومال وصحة!

يقول د. أسبوك أحسن من كتب عن أطفال العصر الحديث: إن مشكلة فيتنام نفسها تبدأ من الطفل الصغير الذي ألقى السم لكلب ووقف يتفرج عليه ما الذي يمكن أن يحدث له.

ويقول د. أسبوك: إن جونسون نفسه قال لي في التليفون أنه لن يكون هناك تصعيد لحرب فيتنام. وصدقته.. ولكن كأي طفل أمريكي فعل بالضبط ما توقعته وكرهته!.

.. إلى آخر ما جاء في كتابه الممتع وعنوانه «يليق ولا يليق» . .

فما هي حكاية الأطفال في هذا العصر . . إنها حكاية الآباء الذين كانوا أطفالاً . . إنها حكاية هتلر الذي لم تمكنه أمه من أن يمسك أصابع قدميه . . إنها مشكلة العلامات البيضاء على الأرض . . والتي انتقلت مثل كريات الدم البيضاء لتفصل بين القلوب أيضاً. إنها الشهور الأولى من حياة الطفل عندما يعض الثدي الذي يرضعه فلا تعترض الأم . . فيضغط الطفل بفكيه ثم بأسنانه . . ثم يعض الأم . . ويعض اليد التي تطعمه . . وينتقد الأب والأم . . فإذا حذراه قال: ولكن لم أطلب إلى أحد أن يلدني . . وما دمت قد ولدت فلي نفس حقوق المواطن الحر . . فنحن نعيش في عصر الديمقراطية . . وليست للأب إلا حقوق الاحترام المسموح به قانوناً . . والأم أيضاً!

وعندما يتعلم الطفل أن يذهب إلى دورة المياه ـ يقول د. اسبوك ـ فإنه يتلاعب بأعصاب أمه . . ويهددها بأن يلوث كل شيء، إذا لم تجبه إلى مطالبه. وتقف الأم تجبه إلى مطالبه وإلا . . لوث نفسه وملابسه والبيت ولا يزال الصغار والكبار يستخدمون الكلمات التي تصف ما يفعله الطفل في دورة المياه في شتائمهم . . ويستخدمون نفس الأعضاء للدلالة على إهانة الآخرين! .

وعندما عاد الخطيب الإغريقي ديموستين إلى بيت أحد أقاربه وجد طفلاً ينهال ضرباً على أبيه.. وكان الأب مريضاً.. فقال عبارته المشهورة: ويل للبيت إذا علت فيه أصوات الدجاج على صياح الديوك ـ ولم يكن صاحب الصوت العالي ديكاً ولا دجاجة وإنما هو كتكوت ترك البيضة من وقت قصير!

ويقال أن ديموستين ذهب بعيداً بعيداً.. وأمسك أناء من السم. وراح يغمس فيه قلمه. ثم يضع القلم في فمه ويقول: ذهب كل ما قلته للكبار والصغار.. إن الفم الذي ينصح الناس، ولم تنفع النصيحة يجب أن يتجرع السم!

حتى مات ديموستين!

وليس في استطاعة أحد الآن أن يقوم بدور «الزمار» المشهور الذي ظهر في مدينة هاملن بألمانيا في العصور الوسطى.. فيمسك مزماره ويمشي وراءه ألوف الأطفال.. ثم ينزل بهم إلى البحر فيغرقون جميعاً.. وليس في استطاعة الأطفال الأشرار أنفسهم أن يفعلوا ما تقوم به الفئران في السويد عندما تنتحر معاً بالملايين وتلقي بنفسها في البحر كل سنة.. وتحطم المزارع وكأنها تقول: لا حياة بعدنا.. أو يا نفس ما بعدك نفس!

وإذا قررنا أن نهلك الأطفال، فمن هم هؤلاء الأطفال:

هـل هم الآباء الـذين كانـوا أطفالاً، أو الأبنـاء الـذين سـوف يصبحون آباء؟!

إن العصـر كله يأكـل نفسه، ويهـدم قيمه، ويقتـل الآباء بيـد الأبناء، وبيـد الأبنـاء يقضي على الجميـع ـ إلا إذا ظهـر مـن يفسـر لنـا: ولـمـاذا يعض الأطـفـال الأثـداء التـي يرضعونها. . ولا تقول الأمهات شيئاً؟!

النواة التي تسند الزير
تكسره أيضاً!

طفل صغير استطاع أن يضع أصبعه في قاع سفينة فمنعها من الغرق ـ هكذا تقول الأسطورة، للدلالة على بطولة طفل. وفي نفس الوقت على أن أصبعاً صغيرة تستطيع أن تنقذ سفينة كبيرة. فلا شيء يستهان به؟..

ويقال أن طفلاً آخر استطاع أن ينقذ بأصبعه أيضاً إحدى المدن الهولندية عندما وضع أصبعه في فتحة لأحد السدود التي تحمي هذه المدينة الهولندية من أمواج البحر. ومات الطفل فوق أصابعه وعاشت هولندا.. ولسبب ما ـ غير معروف ـ جاء طفل آخر وسحب جثة هذا الطفل واندفعت من ورائه المياه، وغرقت المدينة وهذا الطفل!

فالأصابع التي تنقذ مدينة، هي نفسها التي تغرقها. والمثل الذي يقول: إن النواة تسند الزير معناه أن سحب النواة من تحت الزير يوقع الزير أيضاً!

وكم من عمارات سقطت بسبب نقص في خلطة الاسمنت.. أو بسبب أن الخوازيق عندما دقوها في الأرض لم تبلغ الطبقة الصلبة.. ولكي تبلغ الطبقة الصلبة من

الأرض كانت الخوازيق في حاجة إلى أن ندقها بضعة سنتيمترات. . ولكن «واحداً» من الناس اكتفى بهذا القدر ـ إهمالاً أو جهلاً أو عمداً!

كم من مصانع انهدت عليها السقوف. . كم من أفران للحرارة العالية قد تشققت وتكلف إنشاؤها من جديد ملايين الجنيهات. . كم من قطار اصطدم بقطار آخر من أجل قروش يدفعها راكب للكمسارى. . كم من قروش دفعها سائق تحت التمرين «لواحد» آخر لكي يشهد أنه أصبح قادراً على قيادة أي أوتوبيس، ثم نزل بالاوتوبيس وركابه في النيل. .

وفي السنوات الأخيرة سحبت شركات للسيارات العالمية ألوف السيارات التي عرضتها في الأسواق لأنها اكتشفت بعد ذلك خللاً فيها. وكان هذا الخلل في الفرامل. . أو في المعادن التي صنعت منها الفرامل. وسبب ذلك أن «واحداً» تهاون في نسبة خلط الحديد والصلب والنحاس والمعادن الأخرى!

وهناك صواريخ حاملة سفن الفضاء قد احترقت على الأرض بروادها. . وكم مرة تسرب الغاز في سفن الفضاء وكاد يهلك رواد الفضاء وتفشل الرحلات التي تكلفت ملايين الدولارات لأن «واحداً» في قاعدة إطلاق السفن

الفضائية قد نسي ربط مسمار، أو نسي أن يراجع المسامير والمصابيح. . وعلى الرغم من استخدام العقول الالكترونية فلا بد من العقل الإنساني لكي يصوب أخطاء العقول الالكترونية. وربما كان السبب هو التعب أو هو الملل أو الإهمال. . فهناك مئات الألوف من التوصيلات الكهربية في سفينة الفضاء ولا بد من مراجعتها واحدة واحدة. . ولكن «واحداً» من الخبراء قد أهمل أو نسي أو تعمد ذلك. .

وفي كل مكان في الدنيا يوجد واحد على الأقل من هذا الطراز. . إذن هناك مئات الألوف أو ملايين يعملون بإهمال أو باستخفاف على خراب الهيئات والمنظمات والمصانع وتبديد الطاقة الإنسانية. .

والمثل الشعبي يقول: من أجل مليم ملح يفسدون الطبخة. أي أن أشياء صغيرة جداً وتافهة جداً من الممكن أن تؤدي إلى فساد أعمال هامة وجليلة. ولكن بعض الناس يستهينون بالأشياء الصغيرة وأثرها على الأشياء الكبيرة.

وفي حياتنا اليومية الخاصة نجد عشرات الأمثلة على ذلك. إن موظفاً واحداً قادر على أن يربك جهازاً كاملاً. . إن الرجل الذي يجيء إليك في البيت ليصلح النور يفسده. . ويجيء غيره ويفسده أيضاً. . والذي يصلح لك التليفزيون والتليفون والسيفون. . كل هؤلاء يجيئون واحداً

وراء واحد. وفي كل مرة تندهش إن كـان أحد منهم قـد رأى هـذه الأشياء من قبـل. وإذا كان قـد رآهـا فمـا الـذي صنعـه فيها..

وأصحاب السيارات عندهم مغامرات مع الاسطوات في كل شارع وعلى كل رصيف.. والذين يسـافرون في الـطريق الـزراعي والصحراوي كم من مـرة يتـوقف فجـأة لأن دخـانـاً يتصـاعد من المـوتور.. مـاذا حدث؟ إن السيـارة ليست بهـا قطرة ماء! كيف؟ إن العـامل في محـطة البنزين قـد قال أنهـا لا تحتـاج إلى مـاء.. أي أنـه كشف عليهـا فـوجـدهـا قـد امتـلأت بالمـاء. والحقيقة أنـه لم يفعـل ذلـك.. وإنمـا هـو الكسـل أو الإهمال أو الحقـد أو الضيق بأصحـاب السيـارات وأصحـاب محـطات البنـزين وبكـل من يملك شيئـاً آخـر لا يملكـه هو.. وكم من مـرة انفجـرت عجـلات السيـارة، لأن صاحب السيارة قد ظل جالساً في مقعـده عندمـا تولى نفخهـا أحـد مـوظفي محـطة البنـزين.. فنفـخ العجـل أكثـر ممـا يجب.. أو طلمبات الهواء غير مضبوطـة وأن عامـلًا آخر قـد تهـاون في ضبطهـا وهي بذلـك تمـلأ العجـل بـأضعـاف مـا يحتاج إليه.. والنتيجة يعرفهـا الكثيرون.. إلى مـا لا نهايـة. فهنـاك «واحـد مـا» في كـل مكـان يؤدي إلى هـذه الحـوادث والمصائب والكوارث!

أمـا الـذي يحـدث في الحـروب وفي أزمنـة المحن

الكبرى فشيء مروع . .

ففي سنــة ١٦٤٨ كتب المفكـر السيــاسي الانجليــزي مــاكولي يصف البحـرية البـريطانيـة فقال: إن إدارتهـا نموذج للفســاد والجهل والضيــاع والتبديـد . . فـلا ضـوابط لشيء أو على شيء . . لا متـابعة . . والبحـارة يتقـاضـون أجـورهم في أوقات غير منتظمة . . ومعـظم السفن العائمـة، كان يجب أن تغـرق من زمن طـويـل . . فكلمـا تلفت حـولي وجـدت على الأقــل شخصـاً واحــداً من بين كـل ثــلاثــة يجب إطــلاق الـرصاص عليـه لأنه مصـدر هـذا الفسـاد كله! . ثم من هـذا الـذي اختار هـذه الحيـوانـات البـريـة لتعيش في البحـر، إن «واحداً» مجرماً قد اختارهم واستراح وأقلق الجميع!

والقائد الكبير ولنجتون عنـدما استعـرض في آخر لحـظة ضبـاط أركان حـربه قبـل حملتـه على البـرتغـال سنـة ١٨١٠ انـدهش. وانـزعـج ولكن الـوقت قـد فـات. وقـال عبـارتــه المشهــورة: أملي الـوحيــد أن يـرتجف الأعــداء من هؤلاء الضبـاط كمـا ارتجفت أنـا عنـدمـا قـرأت أسمـاءهم وعـرفت تاريخهم العسكري . . أريـد أن التقي بهذا المجـرم الحقيقي الذي جمع هؤلاء في سفينة واحدة!

وبعـد معـركـة البـرتغـال اكتشف ولنجتـون أن الصـدفـة وحـدهـا هي التي جمعت هؤلاء الضبـاط في قيـادتـه . . وإن

خطأ وقع في عملية نقل بعضهم من سلاح إلى سلاح.. وأن هذه الغلطة التي ارتبكها أحد الإداريين قد كلفته الكثير من العتاد في معارك البرتغال!

وفي الحرب الأهلية الأمريكية كتب الجنرال ريتشارد تايلور في مذكراته عن حرب «السبعة أيام»: كانت مفاجأة عجيبة، إن جنودي لا يعرفون الطريق إلى أقرب مدينة إلا كمعرفتهم لغابات وسط إفريقيا.. منتهى التوفيق في اختيار ما يؤدي إلى الهزيمة!

ولكنه أحد ضباط القيادة العامة هو الذي اختار هؤلاء الجنود الغرباء عن المنطقة ليقوموا بغزوها!

وفي الحرب العالمية الثانية اكتشف الإنجليز أن قنابل الألمان أشد إحراقاً وتوهجاً. ولم يعرفوا السبب الحقيقي ولكن في سنة ١٩٤٠ اهتدى العلماء الإنجليز إلى أن استخدام مزيد من مسحوق الالومنيوم يؤدي إلى أن تصبح القنابل البريطانية في قوة قنابل ألمانيا.. وفي سنة ١٩٤٣ اكتشف البريطانيون أن أحد مديري المصانع الحربية هو الذي أمر بإنقاص كمية الالومنيوم المسحوق.. فجاءت القنابل أقل وهجاً وأقل تدميراً!

وفي محاكمات نورمبرج سئل الجنرال اشتومبناجل عن حقيقة القنابل التي استخدمها الألمان. فقال أن تغييراً طرأ

عليها أثناء الحرب. فقد استولى الألمان على بعض القنابل البريطانية.. وبتحليل هذه القنابل عرف الألمان أنهم لو ضاعفوا نسبة مسحوق الالومنيوم، فسوف تكون ذات فعالية أكبر!!

وفي الحرب العالمية الثانية اكتشف القائد الاسترالي دزموند باترسون قائد إحدى السفن التي استخدمت لعلاج الجرحى أن خزان الماء بها قد طلى بالرصاص الأحمر. وأن الجنود لو شربوا من هذا الخزان يوماً آخر لماتوا جميعاً. ولما سئل القائد الاسترالي عن ذلك عرف أن أحد عمال السفينة لم يجد أمامه غير هذا الطلاء. وإنه لم يشأ أن يسأل أحداً من كبار الضباط أو المهندسين أو الأطباء!

وفي محاكمات نورمبرج اتهامات لا عدد لها لكبار الضباط الذين ماتوا وانتحروا.. مثلاً من ضمن التهم أن القائد العسكري فون باولوس فوجىء في أحد الأيام أثناء زحفه على روسيا أن أمراً مباشراً من هتلر يقول ما نصه: إذا وصلت إلى الموقع كذا.. فعليك أن تزحف من ناحيتين.. وأن يكون جناحك الأيمن بالمدرعات.. وأن يكون جناحك الأيسر بالطائرات.. المدفعية اجعلها متأخرة عند الموقع رقم كذا.. والإمضاء هتلر».

وعندما قرأ فون باولوس هذا الأمر وجد أن تنفيذه

مستحيـل. وأن هـذا بـالضبط مـا لا يجب القيـام بـه. وأن الخطة معكوسة تماماً. وأنه من الأفضـل أن تكون المـدرعات في الجنـاح الأيسـر نـظراً لمـواقـع المـدن. . ولـم يكن عنـده متسع من الوقت ليراجع هتلر ـ إن كـان في استطاعـة أحد أن يفعـل ذلـك. . وبـدأت المعـركـة وعـرف متـأخـراً جـداً أن السكرتير الخاص الذي تلقى أمر هتلر قد أخطأ في كتابتـه. . ولـم يتمكن فون باولوس من تغيير هـذا الأمر. . أو تعـديله. . وقـد هلك بسبب ذلـك عشـرات الألـوف من الجنـود. . والسبب هـو أن «واحداً فـوق جداً» هـو الـذي أصـدر الأمـر، وواحداً آخر قد أخطأ!

ومن المؤكـد أن الأخطاء العسكـرية فـادحـة التكـاليف. ولكن الأخطاء الصناعية والمعمارية والصحية غالية الثمن. .

ومنـذ سنوات حـدث في إحدى البـلاد العربيـة أن مـات ألـوف المـواطنين والسبب أن جـوالات القمـح قـد وزعت عليهم فـطحنوهـا وعجنوهـا وأكلوها. مـع أن هذه الجـوالات كـانت للبـذور فقط ـ أي لبـذرهـا في الحقـول. وكـان هـذا القمح قد أرسـل إلى البلد العربي تنفيـذاً لاتفاقيـة المساعـدة في رفع مستوى محصول القمح.

وهذا النوع من القمـح يغطى عـادة بمادة سـامة لصيـانته من التسـوس ومن الآفـات الـزراعيـة. والـذي يبعث على

الدهشة حقيقة أن كل هـذه الجوالات مكتوب عليها تحـذير باللغة الإسبانية ـ لأنهـا واردة من المكسيك ـ والتحـذير يقـول بوضوح تام: هذه العبوات مسمومة!

راح ضحيتها مئات المشوهين وألوف الموتى. ولكن صحيفة «التايمس» البريطانية قد نشرت هذه المأساة بالتفصيل في الأسبوع الماضي. أما السبب فهو أن «واحداً» تطوع بترجمة التحذير عند ميناء الوصول. وجاءت ترجمته مختلفة تماماً عن المعنى المقصود. ولم يراجعه أحد في ذلك.. ومات من مات في صمت أليم!

وفي حياتنا اليومية ومعاركنا القومية كثير من الأخطاء القاتلة.. ولكن الأخطاء لا تظهر عادة إلا بعد وقت طويل.. أي بعد أن يكون الفاعل الحقيقي قد مات وشبع موتاً..

ولكن عندما تكون الأخطاء حادة دموية فإننا بسرعة نعرف الفاعل الحقيقي.. تماماً كما ينسى الطبيب، تعباً أو إهمالاً، أدوات الجراحة في بطن المريض.. وبعد أن يتم إقفال بطن المريض فإنه يصرخ.. وهنا فقط يجب أن يعاود فتح بطن المريض لإنقاذه من أخطاء السهو والنسيان.. وليس من السهل أن نجد مثل هذا المريض الذي يصرخ.. فليست كل العمارات ولا المصانع ولا السيارات ولا

الـطيارات ولا الصـواريخ ولا الجيـوش لها هـذه القـدرة على الصراخ لإنقاذها قبل أن تنهار على الجميع.

إنهـا حكمة الحيـاة المريـرة: حيث يوجـد إنسـان يضـع إصبعه لإنقاذ الآخرين، يتقدم إنسان آخر ليـرفع هـذه الأصبع ليموت هو والآخرون!

واحدة تريد أن تسعد الناس!

ما الذي عطل مسيرة المـرأة لتكون إلى جـوار الرجـل أو أمامه؟ الجـواب مظاهـرات الرجـال واللافتـات التي يحملونها في طـول التـاريـخ الإنسـاني وعـرضـه وعمقــه. مثـل هــذه الـلافتـات انـطبعت عليهـا عبـارات تجعلك تحس أنهـا إرادة الله.. مثلاً يقول الفيلسوف اليوناني فيثاغـورس: هناك قـانون أدى إلى خلق النظام والنور والرجل، ولا يـوجد قـانون لخلق الفـوضى والظلام والمـرأة.. فالـرجل قـانون والمـرأة خـروج على القانون. الرجل يضع القانـون ويطيعـه والمرأة لا قـانون ولا هي تطيعه أو تطيقه إن وجد!

يقـول القديس بـولس: المسيح سيـد الرجـال، والرجـل سيـد المرأة. الـرجل لـم يخـرج من ضلع المـرأة ولكنهـا هي التي خرجت من ضلع الرجل. الرجل لـم يخلقه الله للمـرأة. المرأة خلقها الله للرجل..

يقول القديس أوغسطين: الرجل سيد والمرأة عبد. إنهـا إرادة الله التي جعلت سارة تطيـع إبراهيم وجعلتـه سيدهـا.. فزوجاتكم عبيد لكم، وأنتم سادة لهن!

يقول الكاتب الفرنسي العظيم بلزاك: تحرير المرأة إفساد لها. ويقول أيضاً: الدعارة والسرقة احتجاج من المرأة والرجل على المجتمع! ويقول: إذا أردت أن تعرف مدى قسوة المرأة، هذا الكائن الجميل الذي نحبه، فانظر إليها وقد جلست مع بنات جنسها - وحشية!

ويقول: المرأة كالصحف لا تتألق إلا إذا كذبت ولا تهدأ إلا إذا جعلتك تصدق أكاذيبها. والمجتمع كالرجل لأنه سوف يستسلم في النهاية!

يقول بلزاك: من السهل على المرأة أن تكون زوجة صالحة على أن تكون أما صالحة.. ويقول: الأرملة لها واجبان متعارضان: أن تكون أماً وأباً.. قليلات جداً من استطعن أن يحققن النجاح في هذا الدور الصعب!

وأخيراً يقول بلزاك: لا أتمنى أن أكون امرأة.. ولا أتمنى أن أكون رجلاً.. أجدني مضطراً لأن أتعامل مع امرأة ولا أعرف طريقاً للخلاص منها!

أما وزيرة فرنسا فرانسواز جيرد فتقول: مثل هذه الأفكار هي التي عوقت تقدم المرأة.. فبلزاك مثلاً، وهو عبقرية أدبية وفلسفية لا يفكر في طريقة للتعايش مع المرأة.. ولا أن يكون زوجاً أو أباً، إنما هو مشغول بإزالة هذه المصيبة التي اسمها المرأة. ثم مطلوب منا نحن النساء أن نحترم

مثل هـذا التفكيـر الـذي يجعلنـا ننـظر إلى أنفسنـا على أننـا مرض أو داء أو بقعة سوداء أو لعنة السماء على الأرض. .

والـوزيرة الفـرنسية صحفيـة سابقـة كانت رئيسـة تحريـر مجلة «ال». . وصـاحبة ورئيسـة تحريـر مجلة «الاكسبـريس» وهي في نفس الـوقت امرأة شجـاعة. وكـانت في انتخـابـات الرياسـة الفرنسيـة ضد الـرئيس جيسكار دستـان. ولما سئلت كيف استدعاها لتكون عضواً في الوزارة كان ردها المعقـول: مأساة المـرأة ليست يميناً ولا يسـاراً. إنها مـأساة في القلب، في الصميم. . إنها مأساة الرجل أيضاً!

ولما عرض الرئيس الفرنسي على السيـدة فرنسـواز جيرو أن تكـون «في» الوزارة، اعتـذرت. لأنهـا لا تـريـد أن تكـون «ضمن» التشكيـل الـوزاري. وإنمـا أن تكـون واحـدة ككـل الرجال. وقالت: رفضت لأنني لا أريد أن أكـون مسؤولـة عن الـديكور في مجلس الـوزراء أو تقديم وجبـات دافئـة للسـادة الوزراء. .

ثم طلب إليها أن تكون وزير مثل كل الوزراء. وقبلت.

ووزيـرة فرنسـا شخصية بـاهـرة. وهي حلقـة في سلسلة من النسـاء الممتـازات في فـرنسـا وفي العـالم. ولهـا قضيـة واحـدة كيف يمكن إنصـاف المـرأة من الـرجـل، فـالمـرأة مظلومة. هذه حقيقة. . . والـرجل ظـالم. هذه أيضـاً حقيقة.

وفي فرنسا تمييز بين الجنسين. فالمرأة لا تلقى نفس حقوق الرجل. تقول فرنسواز جيرو: يجب أن تضاف كلمة واحدة في قانون توظيف الرجال والنساء في فرنسا. القانون يقول: من حق كل إنسان أن يعمل دون تفرقة في الدين واللون والعنصر. أما الكلمة التي يجب أن تضاف فيه كلمة: والجنس!

فإذا أضيفت هذه الكلمة اعتدل كل شيء في المجتمع الفرنسي..

وقد قرأت لوزيرة فرنسا مجموعة آراء أعجبتني. مثلاً هي ترى أن هناك قهراً عاماً من الرجال للنساء فالرجال بقوانينهم وحياتهم وتاريخهم المقرر على المرأة، قد قهروها. ووضعوا في رؤوس النساء الإعجاب الشديد بالرجل. وأنه قضاء وقدر. وأن المرأة مهما حاولت فهو سيدها ومولاها. وهو الحاكم الأبدي لأحلامها.. هذا صحيح. ولكن المرأة ترد على هذا القهر العام بقهر خاص. فكل امرأة تنفرد بزوجها وتتحكم فيه على انفراد.. فماذا كانت النتيجة؟ إن المرأة تحكم الرجل وإن كان الرجل لا يدري بذلك.. وفي كل مرة أرى رجلاً يصول ويجول وعنده هذه الحساسية الشديدة لحريته واستقلاله وكرامته، أدرك تماماً أن هذا الرجل محكوم مقهور في بيته.. وليست صرخاته العلنية إلا رد

فعل للتحكم الناعم الحريري والحديدي الضروري لزوجته في بيته!

وتقول فرانسواز جيرو: إنني أعرف عشرات الأمثلة على ذلك في المجتمع الفرنسي. أما في التأريخ العالمي فهناك مئات الألوف!

أما لماذا يقبل الرجال هذا التسلط من المرأة، فلأنهم يرون فيه نوعاً من التعويض لها... ولا مانع في أن يتسامح الرجل بعض الشيء!

وإذا كان الرجل قد شغلته الحياة العامة فيجب أن ندرك أن الرجل له حياتان على الأقل. حياته العملية وحياته الخاصة.. أو المكتب والبيت.. ومن النادر أن ينجح رجل في التوفيق بين هاتين الحياتين. والطبيعي أن تطغى إحداهما على الأخرى.. أما المرأة التي لا تعمل فلها حياة واحدة: حياتها في البيت. وإذا نجحت حياتها في البيت فهذه هي السعادة عند المرأة. أما السعادة عند الرجل فلها معنى آخر..

أو بعبارة أخرى لو سألنا رجلاً: كيف حالك؟ فإنه يتحدث عن حاله في العمل. وإذا وجهنا نفس السؤال إلى المرأة لكان جوابها عن حالها مع زوجها وأولادها.. أي عن حالها في البيت.

وتقول فرانسواز جيرو: إن المرأة تفضل أن تكون تعيسة مع رجل على أن تكون مهملة منه.. صحيح أن الإهمال يؤدي إلى التعاسة.. ولكن التعاسة التي تجيء من سوء التفاهم مع رجل، أهون من التعاسة التي تجيء من التفاهم بين رجل وامرأة على أن يهمل كل منهما الآخر..

وهناك رأي يقول: إن المرأة تبحث عن العمل لأنها تريد أن «تنشغل» عن أشياء كثيرة..

ولكن فرانسواز جيرو تستأنف هذه القضية فتقول: إنها يجب ألا تبحث عن العمل لأنها تريد أن تشغل نفسها عن هموم أخرى. ولكن لأنها يجب أن تعمل. تماماً كما أن الرجل يعمل لا لأي شيء آخر.. فالعمل ضرورة وليس تسلية.. ولا مسحاً لدموع على خد المرأة.. وليس علاجاً لمرض.. وإنما هو ضرورة حياة. أو هو الحياة نفسها!

والذين ينظرون إلى كل امرأة عاملة على أنها هاربة من البيت، يظلمون المرأة ويظلمون البيت.. فالبيت ليس شيئاً هيناً ولا تافهاً عند المرأة. والمرأة يسعدها أن تضحي بالكثير من أجل أن يكون لها بيت. أو يبقى كما تحلم به.. والرجل يرى أن بقاء المرأة في البيت هو صيانة للأبناء من الانحراف. هذا صحيح. ولكن الأم وحدها ليست هي البيت. وإنما الأم والأب معاً. وليس من العقل أن يقال أن

المـرأة هي التي تحمل وتلد وتـرضع وتقـوم بـالتـربيـة. . أي تقوم بدور الأب ودور الأم في وقت واحد!

حتى هـذا ليس كافيـاً: فـالمرأة عندمـا تكون «في» البيت تختلف عن المـرأة التي تكـون الأم والـزوجـة. لأن البيـوت فيهـا أمهات غـائبـات. . أو زوجـات غـائبـات. ولكن المهم للطفل هو «الحضور الأبدي» للزوجة الأم. . وللزوج الأب!

وتقول فرنسواز جيرو: وإذا كان بعض فلاسفـة السياسـة قـد وصفوا هـذا العصر بـأنـه عصـر الـطفـل اليتيم. . فلمـاذا يكـون اليتم معنـاه اختفـاء الأب فـقـط بـل يجب أن يكـون معناه اختفاء الأم أو اختفاء الأبوين معاً!

ولما سئلت الكاتبـة الفرنسيـة فرنسـواز جيرو: كيف أنهـا هكـذا تشعر بـأن المرأة مـظلومة ولا يـرتسم على وجههـا أي حـزن لهذه المـأساة الحقيقيـة! كان ردهـا: أكره هـذا الحزن العميق على وجه المرأة. وأكـره أن تحصل المـرأة على حقها بـالبكاء. وأكـره أن تكون الـدمـوع هي مفـردات الحـوار بين الـرجـل والمـرأة. نحن مـطالبـات بـأن نجعـل للحيـاة لـونـاً ورديـاً. . نفس الألوان التي نستخـدمهـا في وجـوهنـا. . إننـا يجب أن ننقـل هذه الألـوان إلى ما تحت الجلد. . وإلا كـان هـذا الوجـه المصبوغ المـرسوم إعـلاناً عن بضـاعة لا وجـود لهـا. . أو كانت هـذه البضاعـة مجرد إعـلان فقط. . إنـه من الممكن أن يكـافح الإنسـان وهو يضحـك. وأن يقـاتـل وهـو

سعيـد. . وأن يطلب العـدل دون أن يشكو من السـلاسل في يـديـه وفي عنقـه. إنني أكـره هـذا النـوع من الاحتجـاج الأخرس. . !

وتتساءل نساء كثيـرات عن معنى اختيار كـاتبة لأن تكـون وزيـر لشؤون المرأة في الوزارة الفـرنسية؟ هـل لأنها كـاتبـة؟ هـل لأنهـا قـالت كثيـراً؟ هـل لأنهـا اعتـرضت؟ هـل لأنهـا احتجت؟

تقـول فرنسـواز جيرو نفسهـا: إن اختيـاري إقـرار رسمي بـأن هناك تفـرقة في معـاملة الرجـال والنساء. وإلا مـا كـانت هنـاك وزارة خاصـة اسمهـا وزارة «شؤون المـرأة». . ومهمـة هـذه الـوزارة هي إلغـاء التفـرقـة في المعـاملة بين الـرجـل والمرأة. . فإذا ألغيت هذه التفرقـة ألغيت هذه الـوزارة أيضاً ـ منتهى أملي!

. . ثم أن هناك قصة معروفة. . يقـال أن يوليـوس قيصر كـان يتحدث إلى طفله الصغيـر ويحسده على ما هو فيـه من نعمـة فيقـول لـه: أنـا أحكم العـالم. وأمـك تحكمني وأنت تحكم أمك. فأنت إذن. . تحكم العالم كله. . يا بختك!

تقـول فرنسـواز جيرو: إن هـذه القصـة يمكن أن تـروى على نحـو آخـر وهـو أن المـرأة هي التي تحكم الـرجـل في النهـاية. . فهي التي تحكم ابنهـا. . ثم إنها وقـد جلس ابنها

على حجرها تحكم أي رجل. . غير أن القضية ليست من الذي يحكم الآخر. . ولكن من الذي يسعد الآخر. . فلا تزال السعادة هي أمل الجميع. . فلماذا لا نعمل أي شيء من أجل أن نجعلها أملًا ممكناً ـ وهو بالرجل والمرأة شيء ممكن!

أبناؤنا في البلاد الغريبة

لا أنسى طفلة صغيرة ركبت إلى جواري من محطة روما إلى فيينا وفي رقبتها ورقة تناشد كل ذي قلب رحيم أن يعاون الطفلة على النوم والطعام. أما إذا أرادت أن تذهب إلى دورة المياه فألف شكر لكل سيدة تقوم بهذه المهمة. ونامت الطفلة على أكتافنا وصدورنا وقامت وعند محطة فيينا استقبلتها جدتها ببعض الحلوى وانتهت رحلة طولها عشرون ساعة لطفلة عمرها سبع سنوات!

ولا أنسى طائرة مليئة بأطفال قادمين من لندن وهابطين في مطار سنغافورة أكبرهم عمره عشر سنوات وأصغرهم ينام بين ذراعي المضيفات والبزازة في فمه، إنهم جميعاً تلامذة جاءوا يقضون الإجازة المدرسية مع آبائهم وأمهاتهم في آسيا!

وليس عندنا شيء من هذا.. لماذا.. لأنهم في «الجغرافيا» قالوا لنا.. إن مصر يقع البحر الأبيض في شمالها والبحر الأحمر في شرقها والصحراء في غربها

والشلالات في جنوبها. وإن مصر «محصورة» و «مزنوقة» بين هذه الموانع الطبيعية.

ولذلك فالمصريون لا يحبون الخروج من أرضهم.. وقالوا لنا.. إن مصر هبة النيل.. فالنيل هو الذي صنع وادي مصر، ونحن لا نكف عن شكر النيل على هذه الهدية، وإننا حريصون على الأرض والزرع.. ولذلك عشنا وعاش أجدادنا الفلاحون نائمين قائمين على الأرض. ولا نترك سطح الأرض إلا لبطون الأرض، نعيش عليها ونموت فيها.. فإذا تحركنا فمن المصطبة إلى المندرة إلى المقبرة.. والموت هو شاغلنا الأكبر وليست الحياة، والأهرام أعظم آثارنا وهي في نفس الوقت أعظم مقابرنا!

ولأنهم في التاريخ قالوا لنا: أن مصر مقبرة الغزاة. ما دخلها أجنبي إلا مات فيها. فكأنها بذلك مقبرة لمن فيها. ومقبرة لمن يعتدي عليها.. وإن مصر مفتوحة لكل الغزاة، وإن مصر يمشي إليها الناس في اتجاه واحد: إليها فقط.. ولا أحد يخرج منها.. ولذلك ليس عندنا الناس يرحلون ويغامرون ويكتشفون.. ليس عندنا ابن بطوطة وليس عندنا ماركوبولو.. وليست عندنا قصص مثل رحلات «جيلفر» ولا مغامرات «روبنسون كروزو» وعندنا المثل الذي يقول: .. ما في حد من الغرب يسر القلب. أي أن كل ما يجيء من غرب البلاد أو من شرقها من الأجانب يوجع القلب. فكل

ما حولنا عدو لنا. الطبيعة والناس. ولذلك فالبقاء في مصر هو أحسن من الخروج منها لأن مصر هي «أم الدنيا».. ومهما حدث لنا فيها فيجب أن نبقى فيها.. وفرق كبير بين أن نبقى فيها وأن نبقى عليها..

ولكننا نرى أن البقاء «في مصر» هو نفس البقاء «عليها» لأننا نرى وجودنا في مصر.. مهما كانت الظروف هي منحة وشرف نعطيه لبلادنا.. حتى لو كان عبئاً ثقيلاً على أرضها واقتصادها!

وإذا قررنا البقاء في بلادنا فنحن نختار العواصم فقط.. أو نختار العاصمة ـ القاهرة ـ ونحن نسمي القاهرة «مصر» مع أن مصر هي اسم الدولة كلها، وهذه التسمية صادقة.. ففي العاصمة كل خيرات بلدنا: فيها الحكومة وفيها المال وفيها المدارس، أما بقية البلاد فليس فيها شيء، ولذلك يهرب المواطنون إلى الحياة في مصر. قريبين من الحكومة ومن دواوين الحكومة، وقريبين من الحضارة أيضاً!

ولقد ترسب في ضمير المصريين الفلاحين أن الله إذا ستر إنساناً.. ستره عندما يموت.. فالستر ليس في الحياة، ولكن في الموت. ولذلك كانت حياة المصريين استعداداً مستمراً لموت مستور.. ومن المألوف أن يبني القادرون من أهل الريف قبورهم وهم أحياء ـ أي أن هذا

القادر يحرص على أن يستمتع برأي الناس فيه وهـو ما يـزال حياً. . فيقولون مثلاً ربنا سترهـا معه. . لقـد جعله قادراً على أن يبني مقبرة أنيقة!!

ولـذلـك هـان على المصـريين كـل شيء إلا أن يتـركـوا بـلادهم في الـريف. . أو مصـر إلى أي بلد آخـر. . وأصبح من شعاراتنا التي ننسى مناقشتها ما قاله الشاعر. .

بـلادي وإن جـارت عـلى عـزيـزة
وأهـلي وإن ضـنـوا عـلي كـرام

والمعنى. . أن الشـاعر يقـول أنه مهمـا فعلت بـه بـلاده من إذلال وتعـذيب فهي بلاده. وهـو يقبل منهـا الهوان ولكنـه لا يقبله من أي بلد آخر. . ومهما فعـل أهله به. . فـإنه يقبـل مـا يفعله الأهل لأن هنـاك مثلاً آخـر يقول: إن سكينـة الأهل ما تدبحش.

في حين أن الهـوان هو الهـوان. . والإذلال هو الاذلال، بـل أن الهوان الـذي يجيء من الأهل أقسى من الهوان الـذي يجيء من غيـر الأهـل. وإن الهــوان في الـوطن أعنف من الهوان في أي وطن آخر. .

وإن هناك فارقـاً كبيراً بين أن تكـون بلادنـا عـزيـزة علينا رغم ما نلقاه فيها من هوان وأن بلادنا هينة علينا بسبب ما نلقاه فيهـا من هوان ولم يكن من المـألوف عنـدنا أن نتـرك بـلادنـا

لأننا لا نعرف كيف نعيش.. وإنه ليس من الضروري أن يلقى الإنسان في بلده كل ما يريده.. وهناك عائلات أخرى.. فالإنسانية كلها أسرة كبيرة. وهناك شعوب عربية كثيرة هاجر أبناؤها من بلادها. وعاشوا ونجحوا في بلاد أخرى.

ولكن لم يحدث شيء من هذا في بلادنا..

فقد ظل المواطن المصري يتغنى في الماضي: يا من يرجع لي حبيبي... هاتوا لي حبيبي.. ويقول. أهلك لتهلك.. وبلدي يا بلدي وأنا بدي أروح بلدي، والبر أمان، وفي البحر لم فتكم في البر فتوني.. إلى آخر الأغاني والأمثال التي تؤكد أن البلد ـ أي بلد ـ هو المكان الذي يعيش فيه المواطن ويموت فيه.. ويموت إذا ابتعد عنه أيضاً!

وهناك قصص لا تنتهي عن طلبة البعثات في أيام محمد علي. وعن الشعور بالغربة والعذاب والنقص الذي عاناه النابهون من أبناء مصر عندما سافروا إلى فرنسا وكيف خافوا من البحر..

ولكن هذه الروح المتقلصة المقفلة بدأت تنفرج وتنبسط وتنضج وتتسع لكل ما هو جديد.. ولكل ما يرد إلينا من العالم الخارجي.

وبانتشار التعليم. وانتشار المدارس والمعاهد والكليات في أماكن مختلفة من مصر.. اتجه المواطنون إلى بلاد أخرى غير بلادهم وغير عواصمهم، وأقاموا وحدهم، وحدثت عملية زراعية معروفة اسمها «عملية الشتل» أي نقل النبات من مكان إلى مكان.. ولكنه ظل نباتاً أيضاً.

ولكن انتشار المراكز الصناعية هو الذي قام بالعامل الأكبر في تغيير عملية الشتل الزراعية وتحويلها إلى عملية هجرة داخلية.. فحيث توجد المصانع توجد إلى جوارها المساكن والمدارس والمستشفيات والملاعب ودور اللهو.. وتوجد الإضاءة والمياه النقية والمواصلات وهي المزايا التي كانت تنفرد بها العاصمة الكبرى.. وأصبح من الممكن أن يعيش الناس في أسوان وكفر الدوار والمحلة الكبرى وأسيوط والوادي الجديد والمنصورة كما يعيشون تماماً في القاهرة والإسكندرية ومديرية التحرير. ولم تعد القاهرة هي عاصمة كل مصر.. وإنما هي إحدى عواصم مصر.

ولم يعد السكن مشكلة مستحيلة.. وإنما هي مشكلة لها حل، ولم يعد التليفون والتليفزيون احتكار لأهل القاهرة.. وإنما نصيب مشترك بين كل المواطنين.

وذهب الطلبة إلى الخارج.. وذهب العمال يتدربون في المصانع، وأقاموا وتعلموا، وجاءوا يتحدثون ويقارنون ويحلمون بالتغيير. ويغيرون من أنفسهم ومن بيئتهم..

ويضعـون الخـطوط الأولى لتغيير شـامـل للعقليـة الـزراعيـة التـواكلية في بـلادنـا، ويخـططون لمجتمـع قـائم على العلم وحسن الإدراك وإنهـاء الخـزعبلات والخـرافـات الجغـرافيـة والتـاريخية والعقليـة التي ورثنـاهـا وتـرسبت في نفـوسنـا ولم يتسع وقتنا ولا عقلنا لمناقشتها والقضاء عليها.

وزاد عـدد السكان من عشـرين إلى خمسة وعشـرين إلى ستـة وثـلاثين. . والأرض لم تـزد. . وثـروات الأرض لم تـزد. . وصخورهـا لم تتحول إلى ذهب وأمـطارها لم تتحـول إلى فضـة. . وأخـرجت الجـامعـات مئـات الألـوف من المتعلمين. . القليل منهم سافـر إلى البلاد العـربية. . سلعـة ثقافية نتقاضى ثمنها بـالاسترليني والـدولار. ومضت الأمهات يلدن: مئـات الألوف من المقـاعد في المـدارس والأسرة في المستشفيـات والشقق والاتـوبيسـات وشـرب الـزيت والقمـح والقطن والسكر. . فما الذي نفعله؟

يجب أن نفتـح الأبـواب إلى الخـارج. . وليست هـذه بـدعة. . وليس هـذا إفـلاسـاً. وليس هـذا طـرداً للمـواطنين وإنمـا هي قـواعـد التجـارة والسيـاسـة. . يجب أن نصـدر الفـائض من الإنتـاج إلى الخـارج، ويجب أن نصـدر أحسن المنتجات من المدرسين والأطبـاء والمهندسين والعمـال. لأن هـذه السلع البشريـة هي دعـايـة أيضـاً للبلد. . وهي دعـايـة للمصانع الثقافية التي انتجتهـا وللإدارة التي نـظمتها، ولأنهـا

يجب أن تعود علينا بأغلى الأسعار. . ولأن هـذا التصدير هو «تفريج» عن أزمة تكدس السلع في مصالح الحكومة وعلى سلالم الترام. . ولأن هـذا التصدير يقضي بأن تتحول الدواوين إلى مساطب. . وأن تتحول المصانع إلى منادر. . وأن يتحول أبناء المجتمع الصناعي الاشتراكي إلى مزارعين متواكلين يائسين. وإذا عاودهم اليأس استولت عليهم الأفكار القديمة البالية وهي. . إن مصر أم الدنيا. . وإن الذي لا يعمل في مصر يموت في أي مكان آخر. . وإن البر أمان والبحر لا أمان له. . وإن الإنسان يجب أن يكون «عجلاً في بطن أمه»، وحتى يعبر البحر دون أن يبتل ـ كما تقول الفزورة الشعبية ـ في حين أنه من الممكن أن يعبر البحر دون أن يبتل في طائرة أو سفينة أو غواصة أو برقية أو مكالمة تليفونية أو برنامج إذاعي. . بل أنه في استطاعتك الآن أن تدور حول الأرض دون أن تلمس البحر أو البر. . فالدنيا تغيرت. . . وسوف تتغير، ويجب أن نلحق التغيير وإلا لحقنا التعفن. . وإلا تحولنا من بشر إلى حيوانات خائفة وإلى نباتات تولد وتموت في مكانها!

وقد حاول كثير من المواطنين. . وخرجوا وعملوا في بلاد أخرى. . ونجحوا، وهذا يسعدنا. ويشجعنا على أن نفتح الأبواب لمواطنين آخرين. وألا تكون أبوابنا عصبية متشنجة، تفتح على الآخر يوماً. . وتنقفل بالضبة والمفتاح

يوماً. يجب أن نفتح الأبواب بوضوح ويكون انفتاح الأبواب هو الجواب على هذه الأسئلة.. هل نحن جادون فعلاً في أن يذهب المصريون إلى الخارج ليعملوا أو ليقيموا هناك، وهل نحن مؤمنون بأن المصريين قادرون على البقاء في بلاد أخرى وهل نصدق الذين أقاموا ونجحوا هل نشجع الذين يريدون أن يقيموا، وهل نحن حريصون على المواطنين وهل نحن في حاجة إلى أموالهم التي يبعثون بها لأهلهم، هل نحن في حاجة إلى الثلاثين مليوناً.. كل الثلاثين.. كل المئات من الألوف الذين تخرجهم الجامعات، هل من الضروري أن تتحمل الدولة والشعب كل هذه الأعباء التي يمكنه التخلص منها!

اعتقد أن هناك أساليب عديدة لمواجهة هذه الزيادة المستمرة. بعض هذه الأساليب محلية وتتعلق بمضاعفة الإنتاج وزيادة المشاريع العملية في الزراعة والصناعة والخدمات.. ولكن من المؤكد أن أسرع ما يمكن عمله علناً وفوراً هو أن نفتح الأبواب لمن يريد أن يعمل في الخارج ونحسن اختيار الذين يهاجرون في المرحلة الأولى.

فإن مهاجراً رديئاً في إمكانه أن يسيء إلى بقية المهاجرين والمواطنين أيضاً. ولا بد من تغيير قوانين العمل في الخارج. وقوانين التعاقد على العمل وقوانين الهجرة، فبعض مواد قوانين الهجرة تدين المهاجر وتجعله أقرب إلى

الهـارب من مصر المتنكـر لخيراتهـا الكافـر بنعمتها. مـع أن هـذا المواطن ليس هـارباً وإنمـا هو يبحث عن فـرص للعمل وعن فرص لخدمـة بلاده، وإنـه ليس كافـراً بنعمتها. . وإنمـا هو يريد أن يعبر لها عن امتنانه بالعملات الصعبة وأنـه بذلـك ييسر على بلاده أن تبني المـزيد من المصـانع والمستشفيـات والمدارس والشوارع، لتتمكن من إنتاج مهاجرين أنفع وأرفـع ـ وأنـا لا أنسى سيـدة سـوريـة في الفلبين ذهبت مـع زوجهـا يبيعـان الأقمشـة بين الجـزر ـ الفلبين سبعـة آلاف جـزيـرة ـ وبعد عشر سنوات أقامت لنفسهـا دكانـاً. . وظل الـزوج يلف ويدور، وبعد ذلـك أقامت مصنعـاً. وظل الـزوج يدور. . ثم أقامت كنيسة على حسابها. . وجاءت الدولة ورصفت شارعـاً وأضـاءت الشارع. وارتفـع سعر الأرض إلى جـوار الكنيسة. وباعت الأرض بأغلى اسعار. وأقامت مصنعاً يحتكر منتجـات الصاج واستوردت السيدة السوريـة عمالاً ومـوظفين من حلب والـلاذقية ودمشق، وبعـد ذلك تـوافد مئـات السـوريين، وفي استراليا توجد أسـرة «اسكيف»، وكان أبـوهم رجلًا لا يعـرف القراءة والكتابة. ولكنه هـو الآخر مغـامر شـريف. ذهب يبيع على ظهـر حصان. . وبعـد سنوات أصبـح الحصـان سيـارة. ثم أسـطولاً من السيارات يـركبـه أبنـاؤه وأحفـاده، وانتشـرت المحـلات التجاريـة في سيدني وملبـورن وأصبح أبنـاء لبنـان ثلاثين ألفاً يعيشـون إلى جوار مـائة ألف يـوناني وربـع مليون

إيـطالي. . ولا نهـايـة لقصص الكفـاح والنجـاح لـلأفـراد والعائلات العربية التي هاجرت وأقامت في أمريكا اللاتينية.

وهناك قصص نجاح متـواضعة لمصـريين أقامـوا في كندا وفي استـراليا. . وهي متـواضعة لأننـا حديثـو العهد بـالهجرة ولأن المهـاجـرين أفـراد معـدودون سـافـروا سـراً مغـامـرين مقـامرين. فـلا أحد يسنـدهم ولا أحد يشـد أزرهم ولا أحـد يؤكد لهم أنهم مهاجرون لا مطرودون ولا مـطاردون. . وإنهم سفراء لا سفهاء. . وإنهم أبنـاء مصر وأحفـادها، مهمـا غيروا السمـاء التي يعملون تحتهـا، والأرض التي يعيشـون عليهـا، واللغة التي يتحدثون بها، والفلوس التي ينفقونها. .

فليست بـلادنـا التي جـارت علينـا، وإنمـا نحن الـذين نجـور على بـلادنـا إذا أقمنـا فيهـا رغم أننـا قـادرون على أن نعمل ونقيم ونسعد وننفع في بلاد أخرى. . فالـذي يترك أمـه لا يتنكر لها، ولا يكفـر ببنوتهـا وإنما هـو يحبها أكثـر ويعزهـا أعمق ويترجم حبه إلى مال ورجال وسمعة طيبة.

طالب واحد يبيع
«فرش أسنان» الملك خوفو؟!

ـ ـ هات يدك اعتذر لك عن كل ما نشرته الصحف المصرية، وعن الذي نشرته مجلة «آخر ساعة» التي أرأس تحريرها. . فقد كان من الواجب علينا ألا نقول: الطلبة المصريون ارتكبوا كذا. . وإنما أن نقول «بعض» الطلبة المصريين في «بعض» البلاد الأوروبية «بعض» الوقت!. .

ولم يكن هذا شخصاً واحداً وإنما «بعض» الطلبة الذين قابلتهم. لأنني ـ وأننا جميعاً ـ أحرص على أن يذهب عشرات الألوف إلى الخارج كل سنة. . وأن يتفسحوا وأن يعملوا وأن يتعلموا وأن يكسبوا وأن يهاجروا ـ إذا أرادوا ـ فالدنيا واسعة، ويجب أن نجعلها واسعة. ومصر لم تعد كما كان يقال لنا أم الدنيا، وإن العالم كله ليس إلا قرى صغيرة. صحيح نحن «أم الدنيا» ـ أم الحضارة. . ولكننا الآن نحاول أن نكون «في» الدنيا. . وهذا لن يتحقق إلا إذا فتحنا عقولنا وفتحنا قلوبنا. . وفتحنا حدودنا وجماركنا. . وخرجنا من جلدنا لنرى ونقارن ونتعلم ونجيء إلى مصر نعلم الأجيال القادمة!

وفي كل نهضة لأي بلد، بدأت بأن خرج أهلها إلى بلاد أخرى.. فعل ذلك محمد علي باشا في مصر الحديثة وأوقع وأمتع الصور التي عرفناها: قصة رفاعة رافع الطهطاوي وزملائه. وكيف أن حياة هؤلاء الطلاب كانت مفيدة جداً. فقد جاءوا من مصر إلى باريس.. جاءوا من القيود والسدود إلى ينبوع الحرية والعلم والنور جاءوا من الترعة إلى المحيط!

ولا يزال هذا الخوف القديم قائماً فكل أب يخاف على ابنه إن ذهب إلى بعيد.. إن سافر أو كان ضمن بعثة يتعلم. ولذلك تولت الدولة الإشراف على طلبة البعثات حماية لهم وحماية لمصر. ولكن الطلبة الذين يسافرون بلا إشراف من أحد، وبعيداً عن عيون وآذان الأم والأب شيء مخيف للجميع!

ومنذ سنوات اكتشف أحد أساتذة جامعة الإسكندرية مخطوطة عمرها عشرون قرناً. المخطوطة تقول أن الأب جاء من مدينة دمنهور ليرى ابنه في الاسكندرية. وقد كانت صدمة الرجل فظيعة عندما علم من السيدة التي يسكن عندها الابن، أنه يبدد أمواله في ركوب الخيل والحمير.. أي أنه لا يذاكر بدرجة كافية!

ولم تضف المخطوطة إلى ذلك شيئاً فنحن نعرف بقية القصة. فلا بد أن الأب قد حزن وأن الأم أشد حزناً. ولا

بد أنه انهـال على ابنه ضـرباً. ولا بـد أنه ركـع أمام صـاحبة البيت أن تقفل عليه الباب بالمفتاح.. إلخ!

أما الآن فالدنيا تغيرت كثيراً وسوف تتغير أكثـر. فالـطلبة يسـافـرون من أول مصـر إلى آخـرهـا. ويسكنـون وحـدهم. ويعملون في أوقـات فـراغهم أو يحـاولـون. ونحن جميعـاً سعـداء بـأنهم يسـافـرون إلى الخـارج يتفـرجـون ويعملون ويكسبـون.. وحـدهم مـع حـريتهم. وحـدهم مـع الـدنيـا الـواسعة التي لا يهمهـا كثيـراً إن أطلق أي إنسـان شـاربـه أو لحيتـه أو نام على الـرصيف أو نام واقفـاً أو مسح البـلاط، أو مسحوا به البلاط.. ما دام لا يضـر أحداً من النـاس.. مادام لا يمس حـرية أحـد.. ولا يهم من يكون هـو ولا من يكـون أبـوه.. إنهم يقـرأون في لنـدن أن رئيس الـوزراء أبـوه نجار وأن معـظم أعضاء مجلس العمـوم البريـطاني كانـوا يمسحون البلاط ويغسلون الأطباق ويدرسون في الجامعات!

وكما يحدث في الشوارع المزدحمـة أن يصطدم المشـاة والسيارات.. لا بد أن يصـطدم طالب بشخص أو بقـانون.. لا بد.. إنها تجارب جديدة عليهم. وهم يتعلمون بـالصواب والخطأ ـ وهذا طبيعي!

وعنـدما كنت في مـدينـة فـرنكفـورت بـألمـانيـا وجـدت البـوليس قد اعتقـل أحـد الـطلبـة بتهمـة النصب والاحتيـال. فالطالب يبيـع «تحفاً» فـرعونيـة قديمـة مزورة. والحكايـة أنه

طـالب أحضر معـه من مصر بعض مصنـوعات خـان الخليلي ومن بين هـذه المصنوعـات «مشط». باعـه لإحـدى الفتيـات على أنـه أثري. وقـال لها: لن أقبض ثمنـه اليوم. . اعـرضيه على بعض الخبراء وتعالى غداً. وعادت الفتاة لتقول لـه: لـم يتحقق من ذلـك أحـد. وقـال: إنـه يخشى أن يعـرضـه على الخبراء. .

واشترته الفتـاة. وألقى البوليس القبض على الشـاب لأنه ادعى أن هذا المشط ـ وعشرين مشـطاً أخرى ـ من مخلفـات الملك خوفو!

إنهـا مجرد نكتـة لجأ إليهـا طـالب للخـروج من مـأزق! وهـذا الـطالب يعمـل الآن مـديـراً مسـاعـداً لأحـد فنـادق فرنكفورت!

وظهر بعد ذلك طلبة يبيعون فرش أسنـان وأدوات حلاقـة الملك خفرع. . إلخ.

وفي لنـدن سمعت من السفـارة المصـريـة أن طـالبـاً في طب القـاهـرة يسكن عنـد سيـدة معجبـة بـه. ومن ضمن الأكـاذيب التي أسعدت صـاحبـة البيت أن الـطالب كان يقول لهـا: يا سـلام أنت تشبهين والدتي التي مـاتت أثناء العبـور! وكان هذا الطالب يداعبهـا كثيراً. ويـأتي لها بـالورود في كـل يـوم أحد. وهي سعيـدة به جـداً. . لولا أنـه كثيـر الصخب.

لأن زواره كثيــرون. وكلهم من المصــريين الــذين يفكــرون بصوت مرتفع!

وفي يــوم استدعـاه البوليس ليقـول لـه أن غـرفتـه ليست نظيفة وأنه يزعج السكان الآخـرين.. وتقدمت صـاحبة البيت تقول: بل أكثر من ذلك إنني وجدت في شنطته صرصاراً!

وصرخ الطالب المصـري: في شنطتي! معنى ذلـك أنك فتحت شنــطتي دون إذن مني؟.. هــذه جــريمــة لا يمكن السكوت عنها.. وأخطر من ذلك أن الصرصار الـذي وجدتـه في شنـطتي قد أحضـرته أنـا من مصر فـأنـا طـالب طب كمـا تعلمين.. جئت به لكي أقوم بتشريحه هنـا.. وهذا صـرصار من سلالة مصرية نادرة!

واعتـذرت السيدة واعتـذر السكان. وظـل الطالب يؤكـد أن الصرصار فرعوني وأن هذه خسارة فادحة!

وسأله بعض موظفي السفارة إن كان «الصرصار» فرعـونياً واعتـرف بأنـه صرصـار صعيدي مصـري ثم قـال: مـا الـذي تتـوقعـون أن تجـدوه في شنـطة مـواطن مصـري من مــدينـة البلينة؟

هذا الطالب يعمل الآن مديـراً لواحـد من مطاعم لنـدن. وفي العـام القادم سـوف يعود إلى نفس المكـان لأنـه نمـوذج للنظام والإخلاص والاحترام!

ونـوادر كثيـرة في كـل عـاصمـة. . ولكن ألـوف الشبـان قادمون ـ ويجب أن يفعلوا ذلك وأن نشجعهم!

في لنـدن تغـذيت في مطعـم «السـربـانتين» أو المطعـم الثعباني على بحيرة في حـديقة هـايد بـارك. . كل من يعمـل من الـطباخ حتى الفتـاة التي تحاسبـك مصـريـون. طلبـة في الـطب والهندسـة والألسن ومعهد الفنـادق. وهم راضـون عن عملهم. وأصحـاب العمـل راضـون عن عمـلهم. ونـحن سعـداء بهم. وعرفت من إحـداهن أن مرتبهـا الشهري مـائتـا جنيـه فيما عـدا البقشيش. أما الـذي سوف تنفق فيـه أموالهـا فليس سراً: ملابس لها ولأخوتها وبعض الأدوات المنزلية!

وقد قال لي السيد ممدوح سـالم نائب رئيس الـوزراء أن أحـد الطلبـة قد أخبـره بـأنـه إذا لم يسـافـر إلى أوروبـا هـذا العام، فإن والديه وأخوته لن يجدوا ملابس الشتاء!

ومثله كثيرون يتحملون أعباء الحياة في رجولة وشرف!

قابلت اثنين من الأطباء سوف يتزوجان عند عـودتهما من لندن. . ولكن ما الـذي يعملانـه. فالـطبيب يقول: أنـا واحد من الذين يدوخون الإنجليز هنـا. وسألتـه: كيف؟ قال: إنني أعمل بارمان!

أما خطيبته فهي تعمل في استعلامات أحد الفنادق!

ولا يـوجد فنـدق كبير في لنـدن ليس بـه طـالـب مصـري

يعمـل في الاستعلامـات أو في المطبـخ أو في المحاسبـة. . كمـا أنني وجدت بيـوتاً كـاملة يديـرهـا مصـريـون من عـاملة التليفـون حتى مديـر الفندق. . مثـلاً فنـدق «بـالاس كـورت» وهـو من أهم المعالم المصـرية في لنـدن. صـاحب الفنـدق باكستاني. مـدير الفنـدق مصري كـان موظفـاً كبيراً في وزارة الشؤون الاجتماعـيـة. . وبقية المـوظفين من عـاملة التليفـون إلى الفتيات اللواتي ينظفن الغرف: مصريات. وقد نـزلت في هـذا الفندق. ووجـدت سفراء ووكـلاء وزارات وأساتـذة في الجامعة. . وهناك بيوت أخرى كثيرة!

مثلاً مطعم «العم سـام» يعمل فيـه عدد من المصـريين. واحد منهم هو الطاهي. وهو طالب في كلية التجـارة سألتـه: أين تعلم الـطبـخ؟ قـال: لم أكن أعـرف ذلـك في حيـاتي. ولكنني تعلمت. وبعض الـزبـائن تجيء إلى حيث أعـمـل ويطلب مني العناية الخاصة به. فأنا طباخ ماهر.

- وسألته: إن كان سيعود إلى لندن.

أجاب: سوف أعود. . ولكن لأعمل شيئاً آخر.

- أريـد أن يكون عـالمي متنـوعـاً، لاكتسب المـزيـد من الخبرات. . وحتى لا أشعر بالملل.

- ولماذا؟

- وفي مصر ما الذي تنوي أن تعمله؟

ـ أن يكون لي مشروع تجاري أو. .

ـ ماذا؟

ـ أو أعــود إلى هنــا بعض الــوقت حتى أتمكــن من أن يكون لي بيت وسيارة وعروسة. . مصرية طبعاً!

وفي مناقشة مـع عشرين طـالبـاً من جـامعـات القـاهـرة والإسكندرية وعين شمس قالوا:

ـ ما هو الخوف من وجودنا هنا؟

ـ ربما الفضيحة!

ـ هل كل ما نفعله فاضح؟

ـ لا

ـ ألا تحدث جرائم في مصر وتنشرها الصحف المصريـة على أوسـع نـطاق. ولا يقـال أن الشعب المصـري من أولــه لآخـره مجـرم. ألا تحـدث في نفس البـلاد التي تعمـل فيهـا جرائم من المواطنين وتنشرها الصحف؟ ومع ذلك لا يخجـل المـواطنون من أن بينهم مجـرمين وسفاحين؟ إذن نحن نبـالغ كثيراً في كل ما يقال عنا. .

ـ ـ أنتم تعرفون ـ إن كنتم قـد نسيتم ـ أننا نبـالغ في كـل شيء. . فإذا صرخ طالب لأن مسماراً دخـل في جزمتـه، قلنا أنها صناعـة الأحذيـة المصريـة. . إنها الجاذبـيـة العجيبة بين المسمـار الأوروبي والجـوارب المصـريـة. . يجب أن نـوقف

صناعة الأحذية.. أو نتوسع في إنتاج الزنوبة.. أو لا داعي لأن يسافر الطلبة.. أو إذا سافروا ألا تكون لهم أقدام.. نحن هكذا عموماً.. لا بالنسبة للطلبة ولكن بالنسبة للطلبة الذين لم يسافروا.. ولصناعة الأحذية.

ـ والحل؟

ـ أنتم الحل الوحيد.. المستقبل لكم.. أنتم تتعلمون وبعد ذلك تعلمون الأجيال القادمة.. فبعد أن سافر رفاعة الطهطاوي إلى باريس وعاد، ظلت الأمهات يبكين إذا سافر أبناؤهن من القاهرة إلى طنطا ومن طنطا إلى طلخا ومن طلخا إلى زفتى.. لماذا؟ لأن الأم تخاف على ابنها من الطريق ومن «الغربة» وتندب حظها وحظه وظلت الأمهات عشرات السنين.. والآن تغيرت الأمهات والأبناء.. وسوف يتغيرن إلى ما هو أفضل.. وهذه رسالتكم.

ـ ساعدونا.

ـ لا أحد يقف بينكم وبين الطائرات والبواخر..

ـ هذا الخوف المبالغ فيه!

ـ إنها قلوب الأمهات والآباء.

ـ غيروها..

ـ أنتم الذين تغيرونها بالسلوك المحترم والعمل

الشريف . .

ـ ما الذي تراه؟

ـ الذي أراه أعجبني . . واسترحت إليه . .

ـ هل تؤدي لنا خدمة؟

ـ يسعدني ذلك .

ـ أن تحمل هذه الرسائل إلى أهلينا .

ـ افعل .

ـ وشيء آخر!

ـ لا أتردد

ـ أن تكتب ذلك عنا . .

ـ . .

أرجو أن أكون قد قلت ما يرضي الأبناء ويريح الآباء ويشجع الألوف على العمل والمتعة والكسب في أي مكان من هذا العالم. فمصر، بأبنائها، أكبر وأوسع من حدودها الصحراوية! ·

كلمة واحدة
غيرت الدنيا؟
ممكن!

لو عرف الذين يكتبون أين تقع كلماتهم من نفوس الناس، لارتجفت الأقلام في أيديهم وترددوا كثيراً قبل أن يقولوا شيئاً. ولكن هذا لا يحدث إلا قليلاً.. عندما تواجهنا الحقيقة فجأة: فنعرف أن كلماتنا كانت أحجاراً سقطت على ماء ساكن فهزته ثم سكن كل شيء.. أو كانت بذوراً استقرت في أرض واسعة مسطحة كأنها أكف متعطشة تنتظر.. أو كانت سموماً جاءت بعدها النهاية.

ومنذ يومين فزعت من نفسي. فقد قابلت شاباً قدم لنفسه قائلاً: إنها كلمات إهداء بقلمك غيرت مجرى حياتي.

ونظرت إلى وجهه.. وإلى بشرته الناعمة. وعينيه اللامعتين. وملابسه المهندمة. وإلى أصابع يديه.. هناك دبلة من ذهب وأخرى من فضة. إنه ناجح سعيد..

وقلت له وأنا أتوقع كلاماً كثيراً يضاعف سعادتي، ويضيف رصيداً لحسابي عنده. قلت له: مبسوط؟

قال: مبسوط..

ـ ولكنك تقولها وكأنك لا تعنيها.

ـ فعلاً. فلم تكن عندي أية اهتمامات أدبية. وإنما كنت أريد أن أكون طبيباً.. وعندما قدمت لك مجموعة من قصصي، شجعتني على الاستمرار، وتمنيت لي مستقبلاً أدبياً..

وعدت أنظر إليه مرة أخرى، فوجدت الحزن عميقاً في عينيه.. بل وجدت أن الحزن ملء عينيه. وندمت على أنني قلت وأسرفت في التمني له. ولم أكن إلا مجاملاً ومشجعاً. ولم أتصور ـ لحظة واحدة ـ أن كلماتي قضاء وقدر!

وتذكرت أنا أيضاً عندما عرضت قصيدة من نظمي على أستاذ اللغة العربية في مدرسة المنصورة الثانوية ووجدت أنه يقلب في أبياتها ويستعيدها ويزنها في أذنيه.. وازداد احمرار وجهي وخجلي وقبل أن يسألني قلت له: إن هذه القصيدة قد نظمها أخي الأصغر..

وكأنني أعتذر عنها. مع أنني لم أسمع رأيه فيها.. وهز الرجل رأسه وقال: فعلاً. كلام موزون ولكنه ليس شعراً.. قل لأخيك يلعب في الحارة أحسن!

ومن يومها وأنا لن أنظم قصيدة واحدة!

ولما عرضت هذه القصيدة على الأستاذ عباس العقاد

قال عبارة لم أنسها: هذا شعر شاب صغير.. يرى ولكنه لا يستطيع أن يلمس ما يراه.. ولكن سوف تصبح ذراعاه قادرتين على اللمس والوصف والغناء!

ولكن جاءت هذه العبارة بعد أن أحيلت أوراقي كلها إلى المفتي وحكم بالإعدام.. أما عبارات العقاد فكانت باقة من الورد على قبر الشاعر الشهيد.. أو جاءت وساماً على مدفع يمشي في مقدمة جنازة أحد المقاتلين في غابة الأدب!

ومرة أخرى نشرت مقالاً عن «معنى الفن عند تولستوي» في جريدة الأساس سنة ١٩٤٨. وفوجئت في ندوة الأستاذ العقاد بأنه اتجه ناحيتي يقول: قرأت مقالك. وأعجبني أسلوبك!

وتحيرت بين السعادة والحزن: هل كل الذي أعجب الأستاذ العقاد هو أسلوبي! ألم تعجبه الفكرة؟ ألم يعجبه تناولي لمعنى الفن عند الأديب الروسي العظيم؟.. وفي نفس الوقت أسعدني العقاد عندما قرأ لي، وأسعدني أكثر عندما قال ذلك أمام زملائي من الأدباء الشبان.. ولكن ضايقني أن يكون إعجاب الأستاذ بأسلوبي فقط!

وعدت إلى البيت أقرأ المقال مرة أخرى. ولاحظت أن عباراتي كانت ضخمة، وأن تراكيبي كانت فخمة. وأن

حفـاوتي بالكلمـات الطنـانة الـرنانـة كانت أكثـر من أي شيء آخر. فهل هذا هو الذي أعجب الأستاذ العقاد؟

إن العقاد نفسه لـه أسلوب صعب وليس من السهل على كثيرين أن يدركوه. وإذا أدركوه أن يعجبوا به. .

وأذكر أنني توقفت عن الكتـابة تمـاماً. وقـررت أن أكتب بطريقة مختلفة. وأن تكون عبـاراتي أسهل. ومفـرداتي أقل. ومـوسيقى مقـالاتي أهـدأ. وأن تكـون أفكـاري على وجـه الألفاظ. . أو قريبـة من أصابـع النـاس. وأن تكـون ألفـاظي فسـاتين قصيـرة شفـافـة. . على قـدر المعنى. وأن تكـون «محزقة» أو ملتصقـة. . فلا يتعب القـارىء في أن يفهم. ولا يحتاج إلى ثقافة كبيرة لكي يدرك ما أقول. .

وظللت أكتب نفس المقـال في البيت مـائـة مـرة. ولا أزال احتفظ بالصورة الماثة لهـذه المقالـة. ثم نشرت المقـالة من جـديد وبـاسم آخر. ولم أشـأ أن أسأل الأستـاذ العقاد. . فقـد قررت أن أكـون مختلفـاً. لأنني مختلف ولأن السهـولـة من طبعي. والبسـاطة في خلقي. والوضـوح طـريقي وأملي. ولم يـدرك الأستـاذ العقـاد أين وقعت كلمـاتـه الـطيبـة من أعماقي! لقد زلزلتها. . وحمـدت الله أنها لم تحـطمني أو لم تصنع مني صورة منه هو أو من أي أحد!

وحـدث أيضاً عنـدما ذهب الأديبـان العـظيمـان مـاكسيم

جـوركي وتشيخوف لمقـابلة الأديب الأكبـر تـولستـوي. اتفق الاثنان على الموضوعات التي سيناقشانه فيها.

ولقيـاه ساعـات. . وخرجـا. وأمام قصـر تولستـوي وقف الرجلان يتساءلان: هل صحيح ما قاله؟

فأجاب جوركي: إنه أكبر مما تصورت.

قال تشيخوف: وأكثر إنسانية. . ولكنه. .

فعـاجله جـوركي: لا تحـاول أن تفسـد هـذه المعـاني الجميلة التي استقـرت في نفسـي. . دعـني سـعيـداً حـتى الغد.

واعتـذر تشيخوف: لن أفسـد عليـك شيئـاً. وإنمـا أريـد فقط أن أعلق على كلمة واحدة.

قال جوركي: أعرفها. دعنا إلى الغد.

والتقيـا في اليوم التـالي. . قال جـوركي: أعـرف الـذي أوجعك منه وأوجعني. عنـدما سـألنا: هـل من الضروري أن يكـون الـطريق إلى الأمـل يمـر بكـل مستنقعـات اليـأس وحشرات الهوان وجفاف الجوع. . ألا تـريان أن ضـوء النهار يهـدي إلى الشمس. . شمس اليـوم وشمس الغـد. . لمـاذا أنتما يائسان هكذا؟؟ أليست هذه هي العبارة الأخيرة!

وكـانت هـذه العبـارة الأخيـرة هي التي أوجعت الأديبين

الشـابين. لقـد نبههمـا تـولستـوي إلى ضـرورة التغلب على اليـأس. وأن يتعاونـا على إخراج الشمس والعمـل في وأكثـر ثورية!

وكانت هذه العبارة مصباحاً هادياً، وسلماً امتـد أمامهمـا لكي يتسلقاه إلى ما هو أرفع وأشمل وأكثر ثورية!

وعنـدمـا ذهب الفيلسـوف الألمـاني شـوبنهـور إلى أميـر الشعراء في عصره: جيته. قدم لـه عملاً فلسفيـاً. وطلب إليه أن يبدي رأيه. وفي اليوم التالي عاد الشاعـر يقول لـه: قرأت كتابك.

ـ فكيف وجدته؟

ـ أعجبني لولا . .

ـ لولا ماذا؟

ـ لولا أن شيئاً هاماً ينقصك؟

ـ كل إنسان ينقصه شيء هام.

ـ أنت بالذات ينقصك أهم شيء في حياتك كلها.

ـ إذا كان هذا رأي أمي أيضاً. فلا أريـد أن أسمعه. إنهـا سيـدة تافهـة تحقد علي. . لن تكـون لها في هـذه الدنيـا أية قيمـة. ولن يعـرفهـا أحـد إلا على أنهـا أمي. . هي أمي، ولكن لن يقول أحد إنني ابنها!

ولم يشأ أن يكمل الشاعر الكبير جملته. فقد تركه الفيلسوف الصغير. . واختفى غاضباً.

فقد كان لأمه صالون أدبي. . وكانت تدعو له كل الشعراء والموسيقيين والفلاسفة. وكانت لا تؤمن بعبقرية ابنها ولذلك خشي الفيلسوف أن يكون أمير الشعراء قد تأثر برأي أمه فيه. .

أما الذي قاله أمير الشعراء جيته لرواد الصالون الأدبي فهو: هذا الشاب فيلسوف ما في ذلك شك. ولكن ينقصه هذا المعنى: إذا أردت أن يكون لأي شيء في هذه الدنيا معنى، فاجعل لنفسك معنى!

فالفيلسوف شوبنهور متشائم، ورأيه في الدنيا أنها لا شيء، ولا تساوي ما يعانيه الإنسان. والحياة تخدع الإنسان لكي تعيش. وتسخره عن طريق الجنس لكي يكون له أولاد وهؤلاء الأولاد هم امتداد له. ولكن هؤلاء الأولاد هم عذاب الدنيا ومرارة الحياة. ولكن الحياة إذا أرادت أن تستمر خدعت الإنسان باسم الحب. والحب ليس إلا الجنس. والجنس ليس إلا حيوانية الإنسان. فكأن الإنسان لا بد أن يكون حيواناً لكي تكون هناك حياة. . فهو لعبة الحياة باسم الحب والزواج. . فالإنسان لا قيمة له. وكذلك هذه الحياة. . وهذه الدنيا!

بعد ذلك بسنوات قال جيته: ارتكبت غلطة شنيعة. فلو قلت لهذا الفيلسوف رأيي في مكان آخر، لتغيرت نظرته إلى الدنيا.. ولكن ليست كلماتي هي التي أوجعته، وإنما المكان الذي قلتها فيه!

إنها الكلمة أو الكلمات..

والتوراة تبدأ بهذه الآية: في البدء كانت الكلمة. وكانت الكلمة هي الله..

والقرآن يقول: .. إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون!

وفي التاريخ الطويل للسحر عند الإنسان.. نجد الساحر يستخدم كلمات معينة.. هذه الكلمات لها قوة الأشياء المادية.. لها قوة الحديد والنار.

وفي عالم الحب، وهو أيضاً عالم السحر.. فكل ما في الحب يبدأ بالكلمات وينتهي بها.. مثلاً وأولاً وآخراً كلمة: الحب.. كيف يقولها المحبون. ومتى. وكيف يقولون أي شيء إلا هذه الكلمة. وكيف يحرصون على أن يقولوها بسرعة، وكيف يترددون في نطقها، خوفاً عليها، وخوفاً منها على أنفسهم.. وخوفاً من أنها إذا قيلت نقص وزنها وطولها وعرضها.. وكيف يجعلونها خاتمة كل شيء.. مع أنها كلمة صغيرة. ولكنها قوة كلمة: كن.. أو

عظمة عبارة: كن فيكون!

وأذكر قصة جميلة للكاتب الإيطالي البرتو مورافيا اسمها «أحر حرف». . القصة عن واحد من الذين يؤمنون بالتفاؤل والتشاؤم. . وهذا الرجل يحب الأسماء ذات الدلالة الجميلة الخيرة. . ولذلك اختار زوجة اسمها: طيبة. . وجعل أسماء أولاده هكذا: نور وكنز ومحبة وسلام. . أما أسمه هو فهو «شرس». وربما كان ذلك هو السر في أن يختار أسماء أحسن من اسمه. أو أن يرى الناس في اختياره للأسماء الأخرى نوعاً من الاعتذار عن اسمه القبيح. . أو لعله يريد أن يقول أنه خير من أبويه اللذين اختارا له هذا الاسم الذي يختلف تماماً عن طبيعته وخلقه في إحدى المرات رأى أن يتخذ قراراً هاماً. . ولكنه لم يجد أحداً يناقشه. فهو في كل مرة يتجه إلى أحد الأصدقاء يجد شيئاً يضايقه، كأن يكون اسم الشارع الذي يسكن فيه يبعث على التشاؤم. . أو اسم الكلب أو أحد الأولاد. . ولم يجد أحداً تنطبق عليه هذه المواصفات المتفائلة التي يريدها. . وأمسك دفتر التليفون وقرر أن يضع يده على عشرة أسماء وأن يختار الحرف الأول من كل اسم. ويكون من هذه الحروف كلمة أو عبارة، ويستوحي من هذه العبارة القرار الذي يريد: هل يترك عمله أو لا يتركه.

ولم يسعفه دفتر التليفون. . فذهب إلى ملاعب سباق

الخيل. واختار الحروف الأولى من أسماء الخيل.. ولم تفلح هذه الحيلة.. وعاد إلى البيت في حالة ضيق شديد.. وقبل أن يدخل البيت، رآه أحد أصدقائه ضاحكاً.. فسأله الرجل عن الذي يضحكه، فقال: لأنك ارتديت البالطو بالمقلوب.. صحيح أن لهذا البالطو وجهين.. ولكن الوجه الآخر هو الذي يناسب هذا الفصل من السنة.. أقلب البالطو!

ونبهته هذه الكلمات إلى شيء يبحث عنه.. وخبطته هذه العبارة في رأسه فبدلاً من أن يقلب البالطو قلب الحروف التي جمعها من أسماء الخيل.. فوجد أمامه كلمة تشجعه على اتخاذ قراره.. واكتشف فجأة أن اسمه هو إذا انقلب كان معناه دليلاً على الخير، ولم يكن قد تنبه إلى ذلك من قبل.. لقد تغير كل شيء.. وانهارت مخاوفه ومتاعبه فجأة وأشرقت دنياه.. وتغير لون الحياة وطعمها:

إن كلمة قد صنعت له ومنه شيئاً جديداً سعيداً!

ومن عجائب عادات الحيوان ما يفعله الثعلب إذا امتلأ جسمه بالبراغيث.. فهو لا يعرف كيف يتخلص منها.. ولكن الغريزة تهديه إلى حيلة بارعة.. فالثعلب ينطلق في الحقول يجمع بقايا القطن أو القش.. ثم يلفها بلسانه حتى يجعل منها كرة صغيرة يضعها في فمه.. ثم يذهب إلى إحدى الترع.. ويهبط إلى الماء بذيله تدريجاً.. وكلما

لا أنت عجينة
ولا حجر
يا أيّ إنسان!

القاهرة مدينة مليئة بالضوضاء.. ولا أعرف إن كانت الضوضاء هي التي جعلت الناس عصبيين يصرخون طوال الوقت.. أو أن الناس عصبيون وهم لذلك لا يرفعون أيديهم عن أجهزة التنبيه والراديو ولعب الطاولة.. ثم أن الناس في حالة دوخة مستمرة ولذلك ينبهون بعضهم البعض بالزعيق والعنف.. أو ينبهون أنفسهم بالقهوة والشاي أو يتقلبون في دخان السجائر.

فما الذي يمكن عمله من أجل أن يكون الناس أقل عصبية والقاهرة أقل ضوضاء!

رأي يقول: قل للناس يتكلموا بصوت منخفض.

ورأي يقول: بل يجب أن تلغي أجهزة التنبيه.

ورأي يقول: أسهل من هذا كله أن تسد أفواه الناس..

ورأي يقول: غرامة مؤكدة لكل من يرفع صوت سيارته أو صوت الراديو..

ولا عقوبة على من يكسر أي راديو أو ميكروفون قد

ارتفع بشهادة الشهود، وأزعج الآخرين!

إنهـا مشكلة أكبر من ذلـك: إنهـا مشكلة كيف يمكن أن يتغير الإنسان. كيف يمكن تغييـر «الطبيعـة الإنسانيـة».. هل يمكن تغييـرها بـالأمـر. بـالتخـويف. بـالعقـاب. بـالـذوق. بالعنف؟ إن هناك عناداً إنسانياً ضد الأوامـر والنواهي.. حتى لو كانت هذه الأوامر نـافعة لـلإنسان.. إنـه يقاوم من يفـرض عليه العلاج، ويلقي فوقه بالسعادة، ويحبسه في الجنة!

مثلاً: ماذا حدث عندما أصدر كـل الأطباء في العـالم أن السجـائـر هي السبب الأول لمـرض السـرطـان! مـاذا حـدث عندما أعلنت شركات السجـائر ذلـك! انخفض عدد السجـائر التي يستهلكهـا الفـرد.. ولكن صنـاعـة السجـائـر ازدادت رواجـاً. وغيـرت كـل الشـركـات في ألـوان وأحجـام وطعم سجـائـرهـا. وازداد إقبـال النـاس على ذلـك.. ثم تـركت شـركات السجـائر تلوين العلب واتجهت إلى تـطوير صنـاعـة الولاعات.. ومعظم شركـات السجائـر هي صاحبـة شركـات الولاعات الأنيقة الذهبية والالكترونيـة. إن شركـات السجائـر قد عدلت تماماً عن إقناع المدخن بـأن يتوقـف عن التـدخين، وإنما اتجهت إلى مغريات أخرى.. ومن بين هـذه المغريـات أن تعـاونت مـع شـركـات السينمـا على ظهـور النجـوم وهم يدخنون في أجمل المواقف أو في أقساها.

فتغييـر الإنسـان صعب، ولكن تغييـر الـظروف حـولـه

أسهـــل. . ويؤدي إلى نفس النتيجة. ولكن وزارات الصحـــة في العالم ليست عندها هذه القدرة الهائلة على الإغراء!

مثلاً: في الحدائق العـامة نجـد لافتات تقـول: ممنـوع قـطف الـزهـر. . أو. . دعنـا نعيش كمـــا تعيش. . الله خلق الدنيا جميلة، فلا تجعلها قبيحة. إلخ

والنـاس يختلفون أمـام الزهـور. . هـل نعلق مثـل هـذه الـلافتات حتى لا يقـطف الناس الـزهور. . هل نبني حـولهـا أسواراً من الأسلاك الشـائكة. . هـل لا داعي للزهور. . هـل لا بد من الزهور ثم نقطع أيدي الناس.

بعض النـاس يرى أن خيـر وسيلة لمنع النـاس من قطف الـزهور أن يقف إنســان عند مـدخـل الحـديقـة ويعـطي كـل إنسان زهرة. . فإذا أخذهـا، فإنـه لا يحتاج لأن يقـطفها بعـد ذلك. . ومعنى هذا الأسلوب هـو: أنك لا تستـطيع أن تمنـع أحداً من قطف الزهور. . فالإنسان بطبعه طـويل اليـد طويـل اللسان، يحلو له أن يدوس القانون. . وهذ الزهرة هي رشـوة له حتى لا يفعل ذلك. . أو هي طريقة مهذبـة لإحراجـه، فما دام قد أعطي زهرة، فلماذا يخطف واحدة أخرى!

وأنت لا تستطيع إن جـاءك زائر أن تقلق وتضـطرب لكي يقوم ويتركـك لعملك. . أو لا داعي لأن تلم أوراقك وتـوهمه بـأنك سـوف تخرج. . وإنمـا هنـاك حيـل أخـرى. . من بين

هذه الحيل أن تجعل المقاعد في غرفتك محدودة جداً . . مقعد واحد يكفي . . أو تجعل هذه المقاعد غير مريحة . . . أو تجعلها في مواجهة الضوء . . أو تنظر في ساعتك من حين إلى حين . . أو تبدأ لقاءه بالاعتذار عن البقاء معه بضع دقائق . . المهم هو أنك لا تقول له : إنك مشغول عنه . وإنما تعمل كل ما يجعل بقاءه غير مريح . . فأنت لا تغيره هو، وإنما تغير كل الظروف حوله . . !

وحوادث السيارات قد حار العلماء في توجيه أصحاب السيارات والسائقين . . وطلبوا إليهم أن يتحركوا برفق . أو لا يقودوا سياراتهم وهم تحت تأثير الخمر أو المخدرات . . ولكن النتيجة لم تكن طيبة . . تماماً كتخويف الناس من السجائر . . ولكن لجأ المهندسون إلى وضع أحزمة الأمان حول رقبة السائق . . أو استخدام الكشف الكيميائي على أنفاس السائق عند الحادث . . أو وضع العوائق في الشوارع حتى لا يسرع السائق . . كل ذلك أدى إلى خفض الحوادث بنسبة كبيرة . .

عندما حدثت أزمة السكر في بريطانيا ونشرت الصحف أن هناك نقصاً هائلاً . وطلبت إلى الشعب ألا يأخذ أكثر من نصف كيلو للفرد . . ذهب الناس وحصل كل إنسان على نصف كيلو لا أكثر . . ولم يحدث أن شكا أحد من نقص السكر . ولكن لو قالت الدولة أن هناك أزمة سكر فلا داعي

لشرب الشاي يومين أو ثلاثة. . لهجم الناس على المحلات واشترى كل واحد أكثر من نصف كيلو.

وفي نفس الوقت كانت المقاهي في لندن تضع للناس مع كل فنجان شاي ثلاث قطع من السكر. فكان الناس يضعون قطعة في الفنجان، وقطعتين في جيوبهم. . ولذلك لجأت المحلات إلى أسلوب آخر. . فكانت تترك للناس أن يأخذوا حاجتهم من السكر دون تحديد. . ولاحظت أن كل واحد يأخذ قطعة واحدة فقط. . وأكثرهم لا يضع السكر في الشاي مراعاة للظروف العامة!

وعندما انقطع التيار الكهربائي عن مدينة نيويورك منذ سنوات. لجأت الحكومة بسرعة إلى تحويل الكهرباء إلى نيويورك من ولاية أخرى. . ثم خفضت قوة الإضاءة في الشوارع. . فلاحظت أن الناس كانوا يتركون المصابيح مضاءة. . وكثيراً ما ينسونها. ولكن عندما أعادت مدينة نيويورك الأضواء كاملة طلبت إلى الناس أن يخفضوا الإضاءة بشكل آخر. فعلقت لافتات في كل مكان: اقتصد كيلو وات كل يوم. . فكان الناس يمدون أيديهم إلى المصابيح حتى يسود الظلام قبل أن ينزلوا من بيوتهم!.

أتذكر ونحن أطفال كانت تمر علينا في ريف المنصورة سيارات لشركة باير للأدوية. وكانت هذه السيارات تعرض علينا أفلاماً. . وكان لهذه السيارات طريقة مبتكرة. . فهي

تذيع الأغاني من ميكروفونات عالية جداً. وكان ذلك شيئاً عجيباً في ذلك الوقت. ونلتف نحن الأطفال والكبار حول السيارة.. وتقف السيارة إلى جوار جدار. وفجأة ترى أفلاماً على الحائط وأشياء تتحرك وأناساً يعطسون ويرشحون ويتوجعون إنهم مصابون بالزكام. والسيارة جاءت تدعو للاسبيرين الذي توزعه مجاناً على الناس.

ولم يكن أحد يقترب من هذه السيارة أو يلمس جسمها الأبيض اللامع.. فلا يكاد الإنسان يقترب منها بأصبعه حتى يصاب برعشة شديدة.. وكان الأطفال يخافون من هذه السيارة «المكهربة». ولذلك كان من المناظر الغريبة أن تجد الأطفال قد تزاحموا حول الشاشة وتضاربوا في كل اتجاه.. إلا السيارة فقد كانوا يبتعدون عنها، دون أن يحذرنا أحد من ذلك!

وعالم المرأة.. ربما كان هذا هو العالم المليان بالمتناقضات.. ولذلك فالذي يعيش في عالم المرأة هو أحد أبطال سباحات المسافات الطويلة والقصيرة والغطس والقفز ـ وأول الغرقى عادة! هذا العالم المتغير من أوله لآخره كيف استطاع ملوك الأزياء أن يظلوا ملوكاً كل هذه السنوات الطويلة.. إن معظم الملوك يموتون في المنفى: إلا ملوك الموضة.. فهم يعرفون أن المرأة تحب تغيير كل ما حولها إلا قلبها.. وتكره التغيير في الرجل الذي تحبه..

وتخـاف من عـلامـات التغيـر في وجههـا . . تخـاف من الـزمن . . ولكن هذه المخـاوف الغريبـة ، استطاع ملوك أنـاقة الفسـاتين والأحـذيـة والشعـر والمـاكيـاج أن يـروضـوهـا وأن «يسكتوها» و «يوصفوها» ـ كما تقول اليوم . مثلاً تقول السيـدة كوكو شانيل إحدى ملكات الموضة : أنا أعرف أنني لن أقـول شيئاً جميلاً . . فالرجال قادرون على ذلـك أكثر مني . . ولكن أستطيع أن أقول كلامـاً عاديـاً بفستان جميـل جداً وبتسـريحة بـديعـة . ومن المؤكـد أن الـرجـل يستـطيـع أن يبتلع أسخف الأفكـار من أجمـل النسـاء . . ولا يستـطيـع أن يحتمـل أروع الأفكار من أسخف الرجـال . . . فلندع الـرجال يعلمـونا كيف نردد أفكارهم في إطار أفخم .

إن المـرأة تستطيـع أن تغير حـالاتهـا النفسيـة إذا غيـرت جلدها . . إذا غيرت فستانها ولـونه وإذا غيـرت تسريحتهـا . . وإذا غيرت ملامح وجهها . . إنها تستمد الـرضا والسعـادة من كل هذه الأشيـاء من كلمة واحـدة يقولهـا رجل ، حتى لـو لم يكن يقصدها بالذات . . . إن كلمة واحدة جميلة تقـال للمرأة في أي مكـان فإنهـا لا تنساهـا . . هل هنـاك أكثـر كـذبـاً من الحلاق ومن الخياطة . ومع ذلك فالمرأة تصدق كـل ما يقـوله الحلاق والخياطة .

وهذا هو الفهم الصحيـح للطبيعة الإنسـانية . . فـالإنسان ليس خـاتماً تضعـه في إصبعك الصغيـرة ثم تنقله إلى الكبيرة

ثم تضعـه في جيبـك . . ثم إن الإنسـان ليس قـطعـة من العجين، تجعلها قطاً وكلباً وأسداً إذا أردت.

ولكنـه قطعـة من الحجر الجيـري أو الحجـر الأسـود. . والكتـابة على هـذا الحجر صعبـة. . ولكن تستطيـع أن تضع الحجر في ميدان فـإذا هو تمثـال. . وتستطيـع أن تضعه على قبر فإذا هو شاهد. . . وتضعه أمام الباب فإذا هو عتبة. .

أنت لا تغيـره. . ولكن أنت تغير مـا حولـه. . أنت تغيـر موقعه. . وبذلك تتغير المعاني التي لهذا الحجر.

وأنت في حيـاتك العـاديـة تقـول: إنني في حـاجـة إلى تغيير. .

فما الذي تستطيع أن تغيره؟

إنـك لا تغيـر نفسـك. . وإنمـا أنت تغيـر الـظروف حـولك. . الـوجوه. . الكـلام. المكان. الهـواء. الـطعـام. الشـراب. أنت أنت. . ولكنـك تـذهب إلى مكـان يعكس عليك أضواء مختلفة. وأصواتـاً مغايـرة. . ويهب عليك هـواء من البحـر بدلاً من الصحـراء. . أو من الصحراء جـافـاً بـدلاً من البحـر رطباً. . وتمشي بقميص بـدلاً من بدلـة. . وتدوس على شبشب بـدلاً من حذاء. . ثم أنـك قـد قـررت أن تتغيـر فتذهب إلى مكان آخر مختلف.

ونعـود إلى السجائـر وإلى القهوة وإلى الخمـور. . مـاذا

حـدث الآن؟ إن كل محـاولة لمنـع الناس قـد فشلت... لا بـالتحذيـر ولا بالتخـويف.. ولذلـك لجأ الأطبـاء إلى اختراع حبوب إذا مصصتها زهـدت في السجائـر.. وقد نجحت إلى حـد كبيـر. أمــا الخمـور فقــد اهتـدى العلمــاء إلى رفـع الكحـول من المشروبـات فـأصبـح لهـا اللون والـطعم ولكن ليست فيهـا هذه اللسعـة التي تفتت الكبد.. وكذلك بـالنسبـة للقهوة والشاي، رفعوا منها مـادة الكافيين فـأصبح لهـا الطعم واللون والرائحة ولكن هـذه المادة التي تـوجع القلب وتجفف الرأس وتطرد النوم قد اختفت!

تقـول العالمـة الأمريكيـة مرجـريت ميد أنهـا لاحظت أن أبناء جزر المحيط الهـادي تظهـر على وجوههم بثـور ودمامـل كثيرة.. ولما عرفت السبب انزعجت تماماً. فقـد قيل لهـا أن مـظاهر الـرجولـة عند الشبـان أن يسيلوا دماءهم أمـا العروس دليلاً على الصبر والقدرة على التحمل. وكثيـراً ما تتقيـح هذه الجـروح. ويجيء السـاحـر لكـل قبيلة ليعـالـج الجـرحى بـالأعشاب. وبعض هـذه الجروح تلتئم.. وكـان يحدث في أوروبا في العصور الوسطى شيء من ذلك. فقد كان الفرسـان يتنكـرون في الليل وينـامون واقفين تحت شبـاك المحبـوبـة. وكانت تتفضل وتلقي عليهم في الماء البارد والقـذر ما يـوجع الصـدر والجلد والقلب.. وكـان الفـارس الشهم يصبـر على الأذى، دليـلاً على التضحية والحب لهـا والـرجـولـة.. لكن

السيدة مرجريت ميد وجدت حلاً ذكياً.. فبدلاً من أن تقنع الشبان بالعدول عن ذلك.. فإنها أقنعت الفتيات بأن الذي يفعله الرجال سوف يضعفهم جنسياً. وأن العلاج الوحيد لهذا الضعف هو أن ترش الفتاة على الجروح مادة ناعمة بيضاء.. وكانت الفتيات يفعلن ذلك والرجال يصرخون.. فإذا صرخوا امتنعت الفتيات عن زواجهم.. وأخيراً عدل الرجال عن أن يجرحوا أنفسهم.. أما المادة التي كانت الفتيات يستخدمنها فهي ملح الطعام المركز.. ووضع ملح على جرح شيء فظيع، وأفظع منه ألا يتزوج الشبان والشابات!

وكلها حيل من أجل اللف والدوران حول طبيعة الإنسان التي يصعب تغييرها.. وإنما أسهل أن يغير الظروف حوله ليكون ألطف وأهدأ وأكثر إقبالاً على الحياة والناس!.

هذه الطبيعة
التي نعالجها بالكيمياء!

أنت مثقف.. إذن أنت متشائم والجهلة هم المتفائلون لماذا؟ لأن الذين يعرفون يرون أنه لا أمل في علاج آلام الإنسانية. فهم يعرفون أنه لا علاج.. ولذلك اسودت الدنيا في وجوههم. أما الذين لا يعرفون فيرون الدنيا جميلة، ويسمعونها ساحرة، ويلمسونها ناعمة، وينامون على صدرها حتى الموت وهم سعداء..

والعلم الحديث يريد أن يجعل الدنيا وردية في عيون المثقفين، دون أن يكون لهم دخل أو تدخل في هذه العملية. أي تحويلهم إلى سعداء واحتفاظهم بالعلم والمعرفة. كيف؟ العلاج هو الكيمياء. فكل شيء في الدنيا وفي نفسك: كيمياء.

تماماً كما نضيف ذرتين من الهيدروجين إلى ذرة واحدة من الأوكسجين فيتكون الماء.. تماماً كما تضع قطعة السكر في فنجان البن المر ومع سيجارة بين أصابعك وفي لحظة يخرج الدخان من فمك وأنفك ويتغير لون الدنيا وطعمها ووزنها. وفي هذه اللحظة يمكنك أن تغني ولن يلومك أحد

على ذلك ـ إنها الكيمياء يا سيدي، ساحرة العصر الحديث!

وفي إحدى قصص الأديب الانجليزي آرثر كيشلر التي عنوانها «الشبح في الآلة» يقول: إن هناك صراعاً في داخل كل واحد منا. بين «العقل القديم» وبين «العقل الجديد». الأول يحرك عواطفك. والثاني ينظم أفكارك. وأنت حائر مشدود مسحوق مطحون بين الاثنين.. أو بعبارة أخرى: في داخل كل إنسان حيوان وإنسان. الحيوان هو غرائزك.. والإنسان هو تدبير وتبرير هذه الغرائز وضبطها وإطلاقها وربطها بحساب..

ولكن الكيمياء وجدت لها حلاً.. إنها أعطت الإنسان فرامل على عواطفه.. إنها أعطت لانفعالاته الشديدة مصابيح ترى بها وطريقاً تمشي فيه، وعلقت لها غاية نبيلة في النهاية! كيف؟ هذا هو السؤال. لقد اخترع العلماء أقراصاً وحبوباً. هي التي تقوم بكل العمل بالنيابة عن الإنسان إنها تذيبه بعضه في بعض، كالسكر في مرارة البن في دخان السيجارة. وبعد ذلك تجيء البهجة النفسية كل صباح..

انظر إلى مريض حملوه إلى مستشفى الأمراض العقلية. في حالة هياج عنيف. ثور اسباني لا ينقصه إلا قرنان لا يكاد يرى الناس حتى يصرخ ويهجم فإذا لم يجد أحداً انقض على نفسه ومزقها: ملابسه وشعره ووجهه!

وبسرعة يتكاثر عليه المرضى والأطباء ويضعون في فمه بعض الأقراص والقليل من الماء. . وبعد لحظات تنطفىء النار ويتحول الثور الهائج إلى أرنب. . ويتحول الأرنب إلى فأر في ركن ويجيء مريض آخر. وألف مريض وتختفي الحبوب وتقوم الكيمياء بتحويل الوحش المجنون إلى كائن حي هادىء.

وكانت مستشفيات الأمراض العقلية طريقاً مفتوحاً على الهاوية أو على جهنم يدخله المريض ولا يخرج إلى الأبد. . يدخله ليخرج من هذه الدنيا. وكانت المستشفيات العقلية قريبة الشبه من جهنم التي وصفها الشاعر الإيطالي دانتي. وكتب على بابها يقول: أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل في النجاة!

وأصبح هناك أمل في العلاج والشفاء والهناء. والسبب: كيمياء!

ولو وقف إنسان عند باب مستشفى الأمراض العقلية ونظر إلى الداخل وإلى الخارج لتحير طويلاً، أين العقلاء وأين المجانين؟ إنهم في المستتشفيات أهدأ. وخارجها أكثر صخباً. إنهم في المستشفيات يتقاتلون ويقتلون دون وعي، وخارجها يقتلون ويقاتلون ويموتون بوعي وعلم عظيم!

في الخمسينات ابتكر العلماء نوعين من العقاقير

المسكنة هما: كلورميرمازين وروزرين ودخلت الإنسانية بهما عالماً هادئاً ساكناً هانئاً وقال العلماء والأطباء: نحن على أبواب الجنة!

ولكن الجنة في هذه الدنيا من أوهامنا الكبرى. نحن نظن النار جنة ونظن الحرب سلاماً.. ونتوهم أن أول الطريق هو آخره. فذهب مفعول هذين العقارين واستعصت المشاكل على العلاج، واحتاج الإنسان إلى مزيد من علم الكيمياء..

وكان شيخ الجبل الشهير في التاريخ الإسلامي يأتي برجاله ويطعمهم الحشيش ويعرض عليهم البنات الجميلات وأنهار اللبن وأنهار الخمر.. ثم يدير رؤوسهم بالدخان الأزرق. وقبل أن يفيقوا يلقي بهم في العراء. ويعيدهم إليه قائلاً: لقد رأيتم الجنة وأنا مستعد أن أجعل الدنيا جنات تجري من تحتها الأنهار إذا قتلتم فلاناً وأحرقتم بستان فلان.. واعتديتم على فلانة!

وكانوا يفعلون.. فالإنسان يريد أن يشتري أوهامه بدمه وأن يشتري السعادة بحياته.

وتطورت أشكال وألوان وأحجام الحشيش وبقية المخدرات.

وقام العالم الكبير الدوس هكسلي بتجربته المشهورة

عندما تناول عقار المسكالين المستخرج من الصبار. وطلب إلى زوجته أن تراقب حركات وجهه وأمسك هو الميكروفون وراح يسجل ما يشعر به. وفي أحد الأشرطة يقول تحت تأثير عقار المسكالين: نار. . يخرج منها نبات أخضر. ومن هذا النبات تخرج فتيات عاريات لهن صدور من التفاح. . ومن هذه الصدور تخرج ألسنة النار. . وهذه الألسنة كأنها موجات في بحر يتقلب. . وهذه الموجات فتيات عاريات يتقلبن في كأس من الشمبانيا. . الكل يحترق. . وأنا لوح من الثلج التفت من حوله موجات دامية ملتهبة تعتصرني وتمتصني وأتلاشى. . إلخ.

وظهرت عقاقير الهلوسة المشهورة باسم: ل. س. د. واستسلم لها الشباب في بلاد كثيرة. يهربون إليها من متاعب هذه الدنيا. ويدخلون بها إلى جنات وهمية. وهم سعداء بأوهامهم. وفي عزلة تامة عن هذا العالم. . وعاش هؤلاء الشبان في عالمين في وقت واحد. أحدهما يهدم الآخر ويحطم الشباب في النهاية!

إنها الكيمياء أيضاً. .

وأخيراً اكتشف العلماء أن المصابين بأمراض الانفصام أو الفصام أو ازدواج الشخصية، عندهم شيء ما في بلازما الدم. أي أن المرض يجيء من خلل في تركيب دمه. فهناك شيء في بلازما «الفا ٢» وهذا الشيء موجود بكثرة

في دم مرضى ازدواج الشخصية، وهذا يؤدي إلى نوع من انقطاع التيار أو نوع من «الماس الكهربي» أو «المس الكهربي» - إن صح هذا التعبير. ولاحظ العلماء أنه يوجد في بول هؤلاء المرضى مادة تشبه الادرنالين الذي تفرزه الغدة - فوق - الكلية عند القلق والاضطرابات النفسية العنيفة. وهذه المادة تشبه تماماً مادة المسكالين الذي كان يتعاطاه الهنود الحمر من نبات الصبار ويصابون بأنواع عجيبة من الهلوسة. وأثبت العلماء أن هذا السائل الموجود في البول، هو الذي يؤدي إلى نوع من «السموم العقلية».. أو إلى هذا «الصرع» أو «الازدواج النفسي».

وهناك نظرية معروفة للاستاذ باولينج الحائز على جائزة نوبل. هذه النظرية اسمها «عضوية الاضطرابات العقلية» إن هناك علاقة مؤكدة بين نقص فيتامينات ب وج وبعض الحوامض ومواد أخرى موجودة في المخ وبين كل الاضطرابات العقلية عند الإنسان. والذي يحصل على هذه المواد ويستهلكها بسرعة يرتبك ويضطرب وكذلك الذي يعجز عن الحصول عليها والصحة العقلية هي التصحيح المستمر لنقص هذه المواد وتوريدها للمخ بالنسبة المطلوبة.

ومرض «الصرع» هو اضطراب في المخ. بسبب نشاط زائد، أو انفجار كبير في المخ - إن صح هذا التعبير - يؤدي

إلى اشتعـال واحتراق وإظـلام تام بعـد ذلك. وهنـاك كثيرون في العالم يصابون بهذا المـرض. ويوليـوس قيصر نفسـه كان مصـاباً بـالصرع. . ولـولا مـادة اسمهـا ديـلانتين، لـزاد عـدد المصـابين في العالم إلى ملايين. ولكن تعـاطي هـذه المـادة بانتظام أدى إلى تصحيح التوازن النفسي والعقلي والمـادي ـ أي التوازن الكيميائي في الجسم كله!

والكيميــاء هي التي جعلت الإنســان لا يخــاف من أن تؤدي العـلاقات الجنسيـة إلى الحمل والـولادة. فـلأول مـرة في تاريخ الإنسان يكون هناك انفصال بين الجنس والحمـل. فـالإنسـان يستـطيـع أن يستمتـع دون خـوف. والسبب هــو: الحبـوب. . حبـوب منـع الحمـل تتعـاطـاهـا المـرأة واحــداً وعشـرين يومـاً في كل شهـر وتتوقف ثمـانية أيـام. . أو تضع حبة تحت جلدها فـلا تحمل عشـرين عامـاً. . وإذا أردت أن تحمـل أخذت حقنـة فتعود دورتهـا الشهريـة وإفراز البـويضـة الناضجة وتحمـل. . وكذلـك من الممكن أن يتعاطى الـرجل بعض الحبـوب. لولا أن حبـوب منع الإخصـاب عند الـرجل تصبـح باطلة المفعـول إذا شرب الـرجل خمـراً. . على كـل حال إنها الكيمياء!

فـإذا أراد الإنســان أن ينــام، فهي الكيميـاء تعمــل في داخله. ومن المعروف أن في داخل المخ مركـزين. أحدهمـا إذا أزيـل نام الإنسـان حتى الموت. وإذا أزيـل الآخـر صحـا

الإنسـان حتى المـوت، وإذا أزيـل الاثنـان معـاً أغمي عليـه حتى النهاية . .

وكما أن الإنسان يبتلع أقراصاً لينـام، فإن هنـاك أقراصـاً أخرى من أجل أن يسهر بلا نوم . . فنومـه ويقظتـه في يديـه، وهـو يختار كـل يـوم مـا يعجبـه ومـا يـريحـه . . ولا شـك أن حـرص الأطباء في العـالم على أن يكتبوا للمـريض الحبـوب التي تنيمـه والتي تـوقـظه، سببـه أن النـاس قـد أسـرفـوا في تعاطي النوعين. وكان لا بد أن يشـرف الأطباء على ذلـك . . وقد أدمن الناس كل أنواع الحبـوب حتى لم يعد لهمـا أثر . . أو حتى احتـاج الناس إلى كميـات انتحـاريـة لكي تـأتي لهم بـالنتيجة المـطلوبة. ولـو تـوقفت مصـانـع الأدويـة عن إنتـاج هذين النوعين، لأصيب مئات الملايين بالجنون!

وهناك حبوب السعادة، وحبوب الأحلام الورديـة ـ وكلها أنواع من المواد تدخل الدم وتلعب بالأعصـاب وتحول المـخ إلى سيـرك . . ويسمع الإنسـان إلى موسيقى سحـرية تـرقص لها أحشاؤه وأطرافه ويكون في دنيا أخرى . . إنها كيمياء .

وكـان ملوك المغـول ينـامـون ثـلاث سـاعـات في اليـوم الـواحد. ولا أحـد يعرف بـالضبط هل هي عـادة ملكية . . أو أن لـديهم عقاقيـر للسهـر. ولكن أحـداً منهم لم يكن يشكـو من تعب أو مرض .

ولا أحد يعرف بالضبط هل النوم شيء حديث على الإنسان. وهل كان الإنسان القديم ينام كثيراً هكذا.

هناك نظرية تقول بأن الإنسان البدائي كان يهيم على وجهه في الغابات، وكانت الحياة في الغابة قاسية حتى كان النوم معناه الموت. يكفي أن يغمض الإنسان عينيه ليستقر في بطن أحد الوحوش، وكذلك كانت اليقظة حياة وعمراً متجدداً كل يوم. ولا بد أن الإنسان قد عرف النوم عندما اكتشف الكهف. وتعلم أن يسد الكهف في وجه الوحوش. . ولا بد أن الإنسان قد تعلم مع النوم الراحة واللعب والمرح. فهو لم يعد يخاف وهو في الكهف من الوحوش والأفاعي. . ولذلك حرص الإنسان على أن يغمض عينه، وأن يقفل الباب. . وكأن الباب جفن كبير يطبقه على نفسه كل ليلة لينام. وورثنا النوم عن أجدادنا. .

ولكن الإنسان لا بد أن ينام ثلث عمره على الأقل. وفي أثناء النوم يخلص الجسم من كثير من متاعبه وتوتراته. . وإذا لم يستطع الجسم أن يفعل ذلك وحده، فإننا نساعد الجسم على أن يقوم بهذه المهمة، كيف؟ إنها الحبوب. . إنها الكيمياء أيضاً!

ولا بد أن تمضي الكيمياء الحديثة في البحث عن «الينبوع الدائم للشباب» وهذا الينبوع الدائم هو إضافة مادة جديدة إلى الدم إلى وظائف المخ. هذه المادة سوف تجدد

خـلاياه أو تـوقف شيخوخـة الخلايـا التي تبـدأ تتـلاشى بعـد السابعة والثلاثين من عمره . .

ويؤكـد العلماء أنهم على وشـك أن يهتدوا إلى «الـذي» يـطيل عمـر الإنسـان . . لقـد نجحت التجـارب التي أطـالت عمـر الفئـران والأرانب بنسبـة ٢٠٪. وغـداً بنسبـة ٥٠٪ أو ١٠٠٪ . . وسـوف يقبـل النـاس على تعـاطي هـذه الحبـوب بجنون، وسوف يتعاطاها المريض على أمـل الشفاء. ويـطول عمره ولا يجيء الشفاء وسوف يسرقهـا المجرمـون واللصوص ويعجز عنها الـطيبون والعقـلاء . . وسوف تتـدخل الـدول في تـوزيـع هـذه الحبـوب. إلى من تعـطيهـا؟ إلى الأصـدقـاء والمحـاسيب؟ إنهـا مشكلة، أو سـوف تكـون مشكلة خلقتهـا الكيمياء وسوف تجد لها حلًا كيماوياً أيضاً.

وأنت وأنـا وكـل النـاس: هـدف يـومي لغـارات جـويـة مكثفـة. وكلهـا «تغيـر» الـدم «وتحـرق» الـدم. . . . وتجعله «يغلي» . . هـذه كلمـات دقيقـة تنـطبق على مـا يجـري في داخل أي إنسان . . على التفاعلات الكيمـاوية في داخلك . . وليس من الضـروري أن يـرغمـك أحـد على أن تبلع حبـة أو قرصاً لا تريده . . وإنمـا «كلمة» واحـدة . . «نظرة» . . «وقفـة» على سلم الأتوبيس . . كل هذه لها سحـر الحبوب الكيمـاوية التي تقلب كيـانـك ألف مـرة كـل يـوم . . وعـلاجهـا: شيء تضعـه في الماء أو في الشـاي أو في البن . . أو الـدم. وأنت

معذور فنحن في حرب مـع الطبيعـة الإنسانيـة. ونحن نعالـج هذه الطبيعة بالكيمياء. فالحيـاة اليوميـة أقسى وأصعب من أن يـواجهها الإنســان منـزوع السـلاح. وليس عنـدنـا إلا سـلاح الكيمياء!

ما الذي يجب
أن يتغير
في مصر؟

ما أكثر العبارات التي قالها مؤرخ الإغريق هيرودوت عن مصر. غير أن عبارة واحدة هي التي التصقت بنا، حتى أصبحت «طبعاً» وطبيعة مصرية. قال: إن مصر هبة النيل . .

أي أن النيل هو الذي خلق الدلتا، والوادي الخصيب. وإنه بعد ذلك وسيلة المواصلات بين المدن المصرية. وأن الوادي الأخضر هو «المهد» الذي ولدت وتعيش فيه الحضارة المصرية.

ولم يقل هيرودوت أصدق من ذلك. فالنيل هو أبو مصر. ارتضينا ذلك، وسعداء به. ولكن هذه العبارة جعلتنا نحن المصريين ننتظر النيل أن يهبنا أرضاً وحياة كل سنة. ولذلك فحياتنا هي الانتظار الأبدي. وليس غريباً أن يعبد أجدادنا الأرض والنيل والشمس، وهي جميعاً عناصر حياتنا . .

وعندما جاء عمرو بن العاص إلى مصر أدرك بفراسته البدوية هذا المعنى. ووصفه بشكل آخر فقال: إننا نبذر الحب، وننتظر الثمار من الرب . .

أي كل واحد منا يلقي الحبة، وينتظر.

حتى الكاتب الذي يجمع الضرائب قد وصفناه بأنه «الجالس القرفصاء». فهو يجلس والناس يجيئون إليه.. وتحت الكاتب كانت المصطبة. فأصبح من علامات الحياة المصرية: الانتظار على شاطىء النيل فوق المصطبة..

ولذلك كان من أهم معالم الشخصية المصرية: الانتظار في مواعيد محددة. والاستمرار.. فكل شيء يمشي دون تدخل من الإنسان: الماء يجري والبذور تنمو والشمس تطلع ـ سواء كان هناك فلاح أو لم يكن. فكل شيء لا يعتمد على الفلاح المصري.. إنما الفلاح هو الذي يعتمد على كل شيء!..

لقد وهبنا النيل هذه الحياة.. وهو يهب الحياة، ونحن نتلقاها.

وعندما أراد المصريون أن يهبوا النيل شيئاً، امتناناً له على خيره العظيم، كانوا يلقون إليه بعروس جميلة في موسم الفيضان.. فالنيل رغم أنه ابن عشرات الألوف من السنين، فإن فيضانه الطائش يؤكد أنه شاب وأنه سوف يبقى كذلك..

وعندما جاء المستعمرون إلى مصر راحوا يحرصون على هذا المعنى الذي نستريح إليه: إننا زراعيون وإننا نكره

المغامرة.

وعندما نحاول أن نغامر فإننا نترك القـرية لنكـون موظفين في الدولة. فـإذا أصبحنا مـوظفين جلسنا القـرفصاء.. فنحن مرة أخرى فلاحون ولكن بملابس مختلفة.

ولقـد ظللنـا فـلاحين. ووجـد لنـا المستعمـرون اعـذاراً معقـولة لـذلك. فقـالوا لنـا في كتبنا المـدرسيـة: إن بـلادنـا محـاطة بـالبحر شـرقاً وشمـالاً، ومحاطـة بالصحـراء غـربـاً، وبالشلالات جنوباً.

فنحن رهائن الوادي الأخضر: هبة النيل!..

وزاد عـــدد سكـان مصـــر. وقـــامت مـــدن على الأرض الخضراء.

وضـــاقت بنـا الأرض وضـــاقت عنـا أيضـاً. ولم نسـأل أنفسنـا: ألا نستـطيـع أن نسـاعـــد النيـل أو نستغله على أن يجعـل الهبـة السنـويـة أكبـر؟.. ألا نتعلم من النيـل الـــذي أعطانا الكثير، فنضيف نحن أيضاً إلى هـذا الوادي مسـاحات أخرى خضراء؟..

واجهتنا مشكلتان:

المشكلة الأولى: ظـاهرة «التصحيـر» أي أن الصحـاري تـزحف على الوادي الأخضـر. وهذه ظـاهـرة عـالميـة. وإلى جـانب ذلك فـإننـا في مصـر لا نـزحف على الصحـراء، ولا

نجعل الصحراء تزحف علينا. إنما نحن نبني بيوتنا على الأرض الزراعية.. وبذلك نحقق ظاهرة التصحير ولكن بصورة مختلفة.

وأضفنا إلى ذلك ما تقتضيه المباني، فقمنا بتجريف الأرض الخصبة لنجعل منها طوباً نبني به البيوت على الأرض التي جعلناها بوراً - أي خصمناها من الأرض المزروعة وأضفناها إلى الأرض الصحراوية..

المشكلة الثانية: الهجرة إلى المدينة. فكل أبناء الريف يتعلمون. وأول قرار يتخذونه هو أن يديروا ظهورهم للأرض التي نموا على ضفافها.. فكأنهم يتعلمون كل شيء إلا أن يستثمروا علمهم في القرية أو في الريف المصري..

فما الذي يمكن عمله؟..

كان من بين ما عملناه: السد العالي. كان بناء السد العالي محاولة لادخار الماء لوقت الشدة.. فأبونا النيل رجل سفيه. لا يكاد تفيض جيوبه بالخيرات حتى يروح يبددها في البحر. ولذلك كان لا بد أن نعلمه التدبير.. فركبنا التوربينات تعترض طريق الماء فيحاول أن يقتلعها فتدور بين أصابعه، ومن بين أصابعه تتولد الكهرباء لإدارة المصانع وإنارة القرى.

وجاء السد العالي بعد أن أصبح خزان أسوان شيخاً

عاجزاً عن الوفاء باحتياجات المجتمعات الشابة والصناعات النامية في مصر. .

وكان من الممكن أن نبني سداً عالياً آخر. .

ونحن نفكر الآن في أن نأتي بالماء نستدرجه إلى منخفض القطارة، ومن انحدار الماء تتولد طاقات جديدة للإدارة والإنارة. ويكون منخفض القطارة تكراراً للسد العالي.

ولكن هناك شيئاً هاماً لم يتغير. ولا بد أن يتغير: النظرة المصرية. فما يزال المصري الفلاح ينتظر النيل حتى يأتي له بالماء والحياة عند قدميه. ولا يذهب المصري إلى أبعد من ذلك. .

إن البدوي الرحالة هو الذي قال: إذا لم يأت الجبل إلى محمد، فإن محمداً يجب أن يذهب إلى الجبل! . .

وهي عبارة لا يقولها فلاح. .

إنما الفلاح يقول ما قاله اللورد كرومر عن المصريين: إن أغانيهم أكبر دليل على أعماق أعماقهم. . فهم يقولون: يا مين يرجع لي حبيبي. .

إنه لا يذهب إلى الحبيب، إنه ينتظر أحداً لعله يأتي به. .

وبعد نكسة سنة ١٩٦٧ كان خطباء المساجد عندنا يقولون: اللهم ابعث إليهم بجنود من عندك!..

أي أن الله هو الذي يحارب نيابة عنا؟!

ومن البديهيات أن نقول: عندنا الماء والماء والماء والتربة والشمس والعلم. نعم والعلم. إذن فجميع مشاكلنا محلولة. وكل ما نطلبه هو أن نمسك ورقة وقلماً ونحسبها: ما الذي نحتاج إليه لكي تكون عندنا حياة؟.. نحتاج إلى الماء. والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين: «وجعلنا من الماء كل شيء حي».. ونحتاج إلى الأرض وما أوسعها. وعندنا نظريات علمية جديدة تقول: أعطني الماء وأنا أزرع لك الصحراء.. فليس من الضروري أن تكون الأرض سوداء لتصبح صالحة للزراعة، وعندنا الشمس - أي الطاقة التي توفر كل التفاعلات الكيماوية للحياة، وعندنا الهواء. لم يبق أمامنا إلا أن نستفيد من تجارب الشعوب الأخرى، وقد سبقتنا إلى زراعة الصحراء أمريكا وغيرها..

إذن.. فإذا كان النيل قد وهبنا الأرض ألوف السنين، ففي استطاعتنا أن نهب النيل ودياناً ومدناً وحياة جديدة، معتمدين على النيل دائماً، وعلى أنفسنا، وعلى الله..

وليس أنجح من النموذج الناجح. ولذلك فلكي يقتنع الفلاحون - وكلنا فلاحون - فلا بد أن نقدم لهم نماذج

ناجحة لزراعة الأرض وتربية الطيور والأسماك والحيوانات.
ولا بد من تغيير في الشخصية المصرية: فليس من الضروري أن نكون جميعاً فلاحين على المصاطب، أو كتبة يجلسون القرفصاء.. إنما من الممكن أن نكون متعلمين يركبون السيارات والجرارات.. وأن نبدأ حياة جديدة بعيدة عن النيل ـ هناك في قلب الصحراء.. وهناك نجد النيل يلاحق أبناءه، وإن لم يدركهم النيل فإنه ينتظرهم بالخير في جوف الأرض، وليس عليهم إلا أن يدقوا له المواسير ليتدفق الماء بالحياة..

وإن أكبر رمز علمي حققته مصر في عصرها الحديث، هو أن تبعث الماء إلى سيناء.. ليس فقط ربطاً لسيناء بمصر، إنما بعث للحياة في أرض خلقها الله لامتحان الأنبياء ـ أقسى وأقصى امتحان..

إنني لا أنسى أن أحد مهندسي زراعة إسرائيل قد وقف ينظر إلى النيل من مكتبي فقال: أين تذهب كل هذه المياه؟..

فقلت: طبعاً إلى البحر..

ـ كلها؟!..

ـ نعم. كلها..

ـ وأنتم لا توقفونها لأي سبب؟!..

ـ لا يوجد أي سبب. .

ـ آه. . أكبر غلطة ارتبكها النبي موسى أنه ترك مصر، وإنه عندما تركها لم يذهب إلى السعودية! . .

وأي إسرائيلي يرى مصر يتلمس وجعاً في نفسه أو في قلبه: لماذا؟ لأن قلة الماء في إسرائيل جعلتهم يستخدمونه كالقطرة يضعونه في عيون الأشجار والنباتات قطرة قطرة. . أما نحن فنجعل الحقول حمامات للسباحة تغوص فيها البذور والأشجار. . فالفدان الذي يحتاج إلى خمسة آلاف دلو ماء نعطيه مائة ألف، بينما في إسرائيل وغيرها يستخدمون مائة دلو لري الفدان الواحد. .

كما يجب أن تتغير علاقة المصري ببلده.

ويكفي أن نعود إلى حروب مصر مع إسرائيل؛ فالذين يدافعون عن الأرض هم الفقراء الذين لا يملكون شيئاً من مصر، فكان الذين لا يملكون يموتون من أجل الذين يملكون. . أما الآن فمصر لأبنائها، يملكونها ويدافعون عنها. فإذا فعلوا ذلك فهم يدافعون عن الأرض وعن العرض. وقبل ذلك لم يكونوا يدافعون إلا عن العرض. .

وتجربة «الصالحية» ليست إلا خطوة في مسيرة طويلة، يجب أن تكون متصلة وأن تكون نشطة، وكذلك تجربة بناء ميت أبو الكوم الجديدة في سيناء، ليست إلا نواة لبناء مصر

جديدة.. مصر الآسيوية.. فقد عشنا ألوف السنين في مصر الإفريقية.. أما مصر الآسيوية فسوف تكون لها حسابات أخرى ونوعيات أخرى من المواطنين..

إن أشياء كثيرة جديدة تتولد في مصر في ظل السلام. فنحن نبني لكي نعيش، ولا نبني لكي نموت تحت الأنقاض.

ونحن نعطي الأرض للذين تعلموا لغتها، ونعطيها للذين يحاورونها ويصارعونها ثم يطوعونها بعد ذلك.. فقد طالت تجربة الذين ينتظرون دائماً، وإذا تحركوا جلسوا القرفصاء.. ثم إنهم راضون بعد ذلك!..

إننا نغير أشياء كثيرة في وقت واحد.. وأهم ما يتغير عندنا وفينا: من هو المصري..

إنه الآن لا يريد أن يكون الذي يضع ساقاً على ساق، لتمر النعمة من تحت قدميه، فلا يراها إلا الخواجات والمستثمرون الأجانب! إنه لم يعد ذلك الذي لا يريد أن «نفطمه» عن العلاقة الدائمة بمدينتي القاهرة والإسكندرية.. فإذا لم يعش فيهما أحس بأنه غريب منبوذ..

إن مصر اتسعت، ويجب أن تتسع.. ولذلك يجب ألا نسخط على أنفسنا، ونكف عن احتقار العلاقات الزوجية

التي تؤدي إلى كثير من الأولاد. . فليس صحيحاً أن مصر كثيرة السكان. إنما الصحيح أن السكان موزعون توزيعاً سيئاً. ولذلك فلا بد أن نعيد توزيع السكان، في سيناء والوادي الجديد وفي الصالحية وفي المدن التي يقام بناؤها. . فليس من المعقول أن نطلب إلى الشباب أن يكون على خلق عظيم، ثم نمنعه من الزواج فإذا سمحنا له بالزواج رحنا نتهم هذا «التسيب» في علاقته الزوجية! . .

إن أهم ثروات مصر وخيراتها: هنا. . فوق الكتفين! . .

أي أن أعظم مناجمنا هو الطاقة البشرية والإبداعية. . ولن نستطيع أن نغير أنفسنا إلا بأنفسنا. .

والذي يحدث الآن ليس إلا إعادة النظر في «المعطيات» الزراعية والصحراوية والمائية. ونحن إذ نعيد النظر. . نغير الزوايا، وإذ تغيرت الزوايا الاقتصادية والاجتماعية، فإن مصر كلها سوف تتغير. .

ومن الخطأ أن نتعجل النتائج، فليس في يوم يمكن بناء مجتمع جديد. ولا في سنة يمكن إقناع الآخرين بنجاح التجربة. ولذلك يجب أن نمضي، فالطريق مأمون والنجاح مضمون. .

ونحن الذين اخترنا السلام سوف نهب النيل شعباً جديداً ومصراً جديدة.

لا سمع ولا طاعة
لأمير الجماعة:
حوار مع الغاضبين النبلاء!

لا أقول إني ما أزال شاباً، ولكن عندي هموم الشباب.. فأنا ما أزال طالباً للعلم. أصحو مبكراً. وأقرأ وأكتب. وأدخل الامتحان. وربما كان الفرق بيني وبين الطلبة الذين كنت زميلاً لهم، أو تلامذتي، أنني ما أزال في امتحان يومي أو أسبوعي. مع فارق واحد: إن الذي يمتحنهم شخص، أما الذين يمتحونني فهم بالملايين. ولذلك كانت محنتهم امتحاناً سنوياً، أما محنتي فهي محاكمة يومية.

ولذلك فلا أشعر بالغربة أو الغرابة عندما أجلس مع الشبان ونختلف من أول لحظة. ويكون الفارق بيني وبين بعضهم هكذا: أنت صاحب رؤيا، وأنا صاحب رؤية.. أنت ترى وأنت مغمض العينين، وأنا أرى مفتوح العينين. وأنا أستطيع أن أجعلك ترى ما أراه، ولكنك لا تستطيع أن تجعلني أرى ما يتراءى لك.. لماذا؟

كانوا سبعة من الطلبة والطالبات. وكنت الثامن. اشتركنا في عيد ميلاد. وتناقشنا في معنى هذه العادة. ولم

يطل النقاش، لأننا نقبلها، ولا داعي لأن نرفضها أو نقلل من شأنها. فلا ضرر منها. فهي من أكثر العادات براءة ونبلاً. وكان لا بد أن ينتقل الحديث إلى العادات الأخرى التي ليست في براءتها ونبلها. ثم إلى معنى البراءة ومعنى الاتهام. ثم أين هو النبل بين الناس.. وأين بقية الفضائل الأخرى..

وحدث ما توقعته. فقد شعرنا بأن حركة المرور وأصوات السيارات والتخبط بين المشاة كلها تفسد تسلسل الكلام، وتسد الشهية التي انفتحت للحوار أو الجدل العنيف.. وجلسنا عند أقرب دكة على النيل. وأدرنا ظهورنا للناس. ولو استطعنا أن نحول آذاننا أو عيوننا عنهم لفعلنا. ولكن الاهتمام الشديد، والتركيز المستمر، قد عزلنا عن كل شيء!

قلت: هل نبدأ بالخلاف أو بالاتفاق؟.. لقد كتبت من ثلاثين عاماً أصف جيلي من الشبان. فقلت: إننا أبناء الغضب النبيل. فليس شاباً من لا يعرف الغضب. وتحدثت عن أربعة من الناس: الشاب الغاضب، والشاب الساخط، والشاب المتمرد، والشاب الثائر.. ونحن نتصور دائماً أن الغضب هو الثورة. فالشبان لذلك ثوار بطبيعتهم. ولكني أبادر فأعترض على هذا التبسيط الذي يخل بالمعنى. فالشاب الغاضب هو الذي لا يعجبه كل شيء.. ولكنه

يعطي لنفسه بعض الوقت، لكي يغضب من بعض الأشياء، ويرضى عن بعضها الآخر. فإذا فعل فهو الإنسان الساخط. لأن السخط هو الغضب وقد انحصر في شيء. ولكن الغاضب والساخط.. كلاهما لا يقدم لنا حلًّا أو تصحيحاً لهذا الخطأ الذي يراه.. إنه فقط يخص الأشياء أو العلاقات الإنسانية بغضبه الجميل وسخطه النبيل. فإذا انتقل الساخط إلى اقتراح بتصحيح هذه الأشياء التي تغضبه، فقد أصبح إنساناً متمرداً. لأن المتمرد هو الساخط الذي لديه اقتراح بالعلاج. بل لديه علاج. أما إذا انتقل المتمرد إلى السخط على كل شيء، وكان لديه برنامج لتشخيص كل شيء تمهيداً لعلاجه، فهو الثائر.. ولا تزال الثورات هي أنظف ما ابتدع الناس من وسائل شاملة لكنس العيوب وعلاج الأمراض وخلق علاقات جديدة، والتمهيد لمستقبل أفضل. وفي شبابنا توهمنا أننا ثوار. وتخيلنا أننا إذا رفضنا الأشياء، شفينا أنفسنا منها!.. وليست هذه هي شروط اللعب.. كرة القدم مثلًا.. ليس أحسن اللاعبين كل من جاءته الكرة ولم تعجبه فقفز من فوقها. أو انطلقت الكرة ذليلة عند قدميه، ثم أطاح بها إلى خارج الملعب.. فليس ذلك لعباً.. إنما هو رفض للعب.. أو هو قبول للعب، ودخول للملعب، ثم خيانة للأمانة.. فقد أتوا به ليلعب. فكان رفضه إخلالاً بالتعاقد، ورفضاً لقواعد

اللعب. . فمثل هذا اللاعب أسوأ بكثير من الخصوم. لأنه قد حذف لاعباً من فريقه، وأضافه إلى الفريق الآخر. . وليست هذه سلبية فقط، إنما هي تخريب متعمد. . وتختلط علينا في شبابنا هذه الفوارق بين الذي يقول للحياة الاجتماعية: لا، ويتوهم أنه يكفي أن يرفض الدنيا ليكون ذلك حكماً بإعدامها، وبين الذي يقول للحياة: نعم. . فالموقف الإيجابي هو أن نقبل الدنيا، كما نقبل المشاركة في اللعب. . ثم نلعب. . ونتحرك بصدق وأمانة، ونختار ونحاول ونجري ونحاور ونصيب الهدف. . ويحدث في كرة القدم، ما يحدث في الحياة أيضاً. .

قال أحدنا تعليقاً على ذلك: . . أو أن يذهب الإنسان إلى المسجد ويصلي دون أن يكون متوضئاً. . أو يتوضأ ويقف للصلاة، ثم لا يقول شيئاً. .

قال أحدنا: ما المعنى؟. .

قلت: المعنى هو أننا كنا كذلك. . فكيف أنتم الآن؟. . إننا لم نختلف كشبان عنكم. وكانت لنا حيرتنا. وكانت لنا متاعبنا. ولكننا أفلتنا من بعضها. وحملنا الباقي على أكتافنا. وعندما خجلت أكتافنا من أثقالنا، أخفيناها في أعماقنا. تماماً كما يحمل الكانجرو وليده الصغير في جيبه الملاصق لبطنه. . والشباب هو الشباب. . والغضب هو

الغضب. . والمجتمع في كل وقت هو الأقوى والأسبق في وجوده قبلنا، والمستمر في وجوده بعدنا. . ووسائل رفع الأيدي على المجتمع واحدة، ووسائل التمرد عليه والانقلاب ضده واحدة. . فأنا لا ألومك أنك أطلقت لحيتك. أنت حر. ولا أنك أخفيت كل وجهك أو بعضه. . أنت حرة في تصورك لحدود الحلال والحرام. .

وساعات تمضي على هذا النحو. وننتقل من السياسة إلى الاقتصاد إلى الدين إلى الكتب الجامعية إلى أزمة المساكن والمواصلات. . وإلى ما تنشره الصحف والتليفزيون عن الحياة الرائعة في مصر للبعض. وفي الخارج لكل الناس. وإلى ارتفاع الأسعار. . وإلى حقيقة هامة ـ أنا الذي أقول إنها هامة ـ وهي أن أصوات الناس قد ارتفعت لأنهم أحرار، ولأنهم آمنون على أنفسهم.

قلت لطالب طب: نفرض أن هناك طبيبين. . وكل واحد يدير مستشفى. ومررنا إلى جوار أحد المستشفيين، فوجدنا صمتاً تاماً يشمل أحد المستشفيين. وسألنا إن كان هناك مرضى أو ممرضون. فقيل: كل الأسرة مشغولة. فسألنا إن كانت هناك عمليات جراحية للمرضى. فقيل نعم. وتساءلنا إن كان أهل المرضى يزورونهم. فقيل نعم. وإن كان المريض يتفرج على التليفزيون ويستمع إلى الإذاعة. قالوا: طبعاً. إذن فإن هذا المستشفى عالمي

الهدوء مثالي الصمت. عظمة! ثم إلى جوار هذا المستشفى واحد مثله تماماً. ولكن هناك ضحكاً وزعيقاً. . واختلاط أصوات المرضى والممرضين والأطباء والزوار. فسألنا إن كان هذا مستشفى. . فأكدوا لنا أنه كذلك. ثم تلقينا كل الردود بالإيجاب عن الأسئلة السابقة. وقيل: بل إن الطبيب هنا أحسن وأعظم وأرحم. أما السبب فهو أن صاحب المستشفى الأول قد أصدر أمراً قاطعاً بألا يفتح أحد فمه، سواء كان طبيباً أو مريضاً أو زائراً. ولا كلمة! ولذلك فالذين يمشون إلى جوار المستشفى، أو يتنقلون بين غرفه، لا يجدون زعيقاً ولا نقاشاً. أما المستشفى الآخر فصاحبه طلب إلى كل إنسان أن يكون طبيعياً. أن يصرخ أثناء العملية وأن يتوجع وأن يقول: آه، وأن يحتج على الطعام وعلى الشراب وعلى الإدارة. وأهم من ذلك أن صاحب المستشفى قال: مهما قال المريض وأهله، فليس معنى ذلك إلقاء المريض من النافذة وطرد أهله من الباب. . إنما هم جميعاً أحرار، وحريتهم مكفولة، وعلاجهم مضمون!

قال أحدنا: ما المعنى؟ ماذا تقصد؟

قلت هذا بالضبط ما يحدث الآن. . ارتفعت الأصوات، لا لأنها لم تكن موجودة قبل ذلك. ولكن لأن لديها الحرية في أن تعلو وتتعالى. . وأكثر من حريتها أن أصحابها لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فالأصوات

والاعتراضات والمؤامرات كانت موجودة قبل ذلك، ولكن كان سخطها همساً وثورتها صمتاً. فالخوف قد جمدها في حناجرها. وأطاح بالأعناق فلم تعد لها حناجر.. أما الآن.. ففي استطاعة أي إنسان أن يقول ويصول ويجول، فإذا عاد إلى بيته لم يجد أحداً تحت السرير في انتظاره، أو جهاز تصنت تحت المخدة، أو يجد رجال الأمن الذين ضبطوا حركاتهم على صوت المؤذن.. فإذا قال المؤذن: الله أكبر.. قالوا: بل السجن أكبر.. حدث ذلك.. ولكننا نسينا.. أو لأنكم كنتم صغاراً لا تعرفون.

وننتقل من كل شيء إلى الدين. آمنت بالله. وآمن كل إنسان بمن يراه إلهاً، فديننا يقول: «لكم دينكم ولي ديني».. وإذا كانت الأرض للناس، فالسماء للجميع. وإذا ضاق الناس بالناس، فرحمة الله قد وسعت كل شيء وكل أحد.

وكما يحدث بعد نقاش طويل أن نسكت طلباً للهدوء، أو تأملاً لخطوة جديدة على طريق آخر.. فأشار واحد منا إلى العمارات.. إلى شاطىء النيل: ما رأيك؟

قلت: أعرف رأيك. وأجد لك عذراً.

فهو قد جاء من السيدة زينب سيراً على قدميه.. والآخر جاء من القلعة ومعه خطيبته المحجبة.. وفتاتان

جاءتنا من إمبابة. . إنهم جميعاً من أبناء الطبقة الوسطى . . أو التي هي دون الوسطى. بيوتهم صغيرة. وقلوبهم أضيق من بيوتهم، وخيالهم أوسع من كل شيء. ثم إنهم شديدو الحساسية لمتاعب الأب والأم، ويعانون من زحمة الإخوة على الطعام القليل. فماذا فعل بهم هذا الضيق؟!

إنهم شبان. . أي شديدو الحساسية. وهم أكثر إحساساً بظروفهم العائلية وأوضاعهم الاجتماعية ومستقبل أيامهم في الجامعة. . وبعدها في أي مكان من مصر أو من العالم العربي. ويرون أن الضيق عام. وإن السبب ليس دائماً في مصر، إنما يفد إليها من الخارج. وهو أحد «النواتج الثانوية» لصراع السياسة والدين. ونحن أمام نوعيات من السلوك. فشاب يضيق بهذه الأوضاع، ولا يقبلها. ويقف عند رفضها. وشاب يحاول أن يبحث عن كيفية للقضاء عليها. وهو وحده لا يستطيع، وأفكاره الصغيرة لا تسعفه. ولذلك يتجه إلى الآخرين وأفكار الآخرين. وينضم إلى مذهب في السياسة أو في الدين. والمذهب هو مجموعة النظريات التي تفسر الحياة الاجتماعية. وتقدم لها حلاً.

ولأنهم جميعاً من الشبان، ولأنهم يدرسون، ولأن الدراسة مرهقة، والامتحانات مفزعة، والوقت ضيق، والمشاكل أكبر من أن يتفرغ إنسان واحد لحلها، فالشاب عادة يستسلم للآخرين وأفكارهم. ومعنى ذلك أن الشاب

عندما يقرر أن يكون لـه رأي، ورأي مستقل، فـإنه يفقـد رأيه عندما أعـطى رأسه لمن يـركبه، وعقله لمن يشحنـه، وعندمـا يكتشف الشاب أنه قد أضاع ذاته وهو يبحث عن تـأكيد لهـا، فإنه «يتعصب» لرأيه.. أي للرأي الذي اتخذه دون تفكير..

وكما أن هناك شباناً يـرهقهم البحث عن حل، ويـرهقهم البحث عن تـأكيد للذات، فينـزلون عنهـا لـلآخـرين، فهنـاك شبـان آخـرون لـديهم القـدرة على تسلق أعنـاق الآخـرين، والتسلل إلى خفاياها. والتسلط عليهم. ولذلك وجدنـا شبابـاً مثقفـاً متميـزاً قـد استسلم لعـدد من المتسلطين المتهـوسين ـ أي للأقوياء المجانين..

من بين هؤلاء الشبـان الطيبين.. هؤلاء الـذين يهـربـون من الشـارع إلى المسجـد أو إلى الكنيسـة. ومن يـطلقـون لحاهم، ومن يشجعون الفتيـات على أن يكن محجبات حتى العينين واليـدين.. ولا أحـد يعيب مؤمنـاً إذا صلى، ولا إذا توضأ قبـل الصلاة، ولا إذا أطلق لحيتـه.. ولا نحن نلوم فتاة تحجبت.. ولا لـوم عليها إذا دعت غيـرها إلى ذلـك.. إنما هي الأخـرى آمنت بفكـرة، وتـدعـو إلى نشـرهـا. والفتيـات الأخـريـات لهن القـرار في النهـايـة: أن يقلن نعم، أو يقلن لا.. والأغلبية من الفتيان والفتيات يقولون: لا..

فنحن إذن أمـام بعض الشبـان الـذين يفـرجـون عن أنفسهم بـالصـلاة.. لا لـوم. ويجـدون أنفسهم في طـاعـة

الله . . لا عيب. ولكنهم في الحقيقة ليسوا جميعاً كذلك. إنما بعضهم قد اختار أسلم أشكال السخط أو التمرد أو الثورة . . اختار مظلة الدين. أو حرمات المساجد أو الكنائس. فهو ظاهر الغضب، ولكنه في الحقيقة خفي التمرد ـ بالمعنى الذي شرحته منذ قليل . .

هنا فقط يجب أن نتدخل نحن الأكبر سناً، والأكثر تجربة، وحراس السلام الاجتماعي والأمن القومي ـ حراس المجتمع من بعض أبنائه، حراس الوحدة الوطنية من بعض المضللين من أفضل أبنائها . .

ولكننا نرتكب غلطة كبرى إذا عزلنا هؤلاء الشبان، ووضعناهم في أحد المعامل، ورحنا نقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، كأننا أمام نوعية بشرية غريبة . . أمام أهل الكهف أو أهل المريخ . . ولذلك يجب أن نضعهم في بيئتهم الطبيعية . . أي نضعهم في ظروفهم العائلية، والعلاقات الاجتماعية المصرية، والإطارات الدينية والاقتصادية، وكما نرصد درجات الحرارة على المدن المصرية، ومسار الرياح التي تهب عليها، يجب ألا يفوتنا أيضاً أن نتحدث عن: من أين تجيء الرياح الباردة والساخنة والرملية . . ومن أين يتدفق عليهم الكلام وسوء الظن وسوء التقدير . فإذا فعلنا ذلك، نكون قد حققنا أول شروط البحث العلمي . . ولأن موضوع البحث: شبان

وليسوا أحجاراً أو حيوانات سامة، كان لا بد أن يكون التفاهم وسيلتنا إلى الفهم. ولا تفاهم بغير حوار. ولا حوار دون موافقة معلنة من الطرفين. .

وفي مجتمعنا مشاكل كبيرة، لأنه مجتمع كبير، وفي حياتنا مخلفات لتغيرات لم تتم. فهناك حسابات قديمة لم تتم تصفيتها تماماً مع ثورة يوليو: أهم أحداث مصر الحديثة والشرق الأوسط. فقد انشغلت الثورة بحركتها، عن تعقب فلول خصومها وجذورهم في حياة الناس. . كما انشغلت الثورة بعد ذلك بتحديات الشرق والغرب، فانحنت وانكسرت وانتكست على نفسها. . ثم عادت الثورة فجددت ريشها، وطال جناحاها، وتحدد منقارها ومخالبها، وثارت على نفسها في «مايو». . وانشغلت بقوة اندفاعها عن استئصال جذور الشك والمرارة والخوف عند كثيرين انتهى دورهم في الحياة، ولكنهم لا يرون ذلك. . وينتهزون كل مناسبة لإبراز شهادة ميلاد مزورة. . ويرفعون أصواتهم ولا أحد يمنعهم من ذلك. إنها الحرية الآمنة. والأمان الحر. ثم إن لنا قضية أكبر. هي تحرير مصر كلها من الاحتلال ومن العناء الاقتصادي، إكمالاً للحرية الفردية وسواسية الناس أمام القانون.

ولا شيء يخلق التعصب ويضاعفه إلا تعصب آخر. . فإذا تعصب المسلمون، تعصب الأقباط، فإذا قال

المسلمون: ربنا في السماء، قال الأقباط: وربما أيضاً.

ـ ولكن ربنا أفضل..

ـ بل ربنا أفضل.

ـ وديننا.

ـ وديننا.

ـ وناسنا.

ـ وناسنا أيضاً..

ـ أنتم أقلية ونحن أغلبية..

ـ نحن أقلية في مصر. أغلبية في العالم كله..

ـ بلادنا.

ـ بل بلادنا أصلاً. والمسلمون هم الفقراء الذين لم يدفعوا الجزية لعمرو بن العاص.. أما الأقباط فهم الأقلية الغنية التي دفعت واحتفظت بدينها.

ـ نحن عشرة ملايين.

ـ بل أنتم ثلاثة ملايين إلا قليلاً. وقد أجريت أبحاث كثيرة شارك فيها عدد من أبنائكم وتأكدوا من صحة الأرقام..

ـ بل نحن..

ـ بل أنتم . . إلخ .

فما هو المعنى إذن؟ . .

إن هذا التعصب هو الذي يخلق تعصباً آخر أقوى وأكثر عدوى . . فالتعصب معناه أنني على حق وأنك على خطأ. والتسامح معناه أننا نحن الاثنين على صواب. وأنت حر في رأيك وأنا أيضاً . . وأننا أولاً وأخيراً مصريون. وخلاف الرأي وخلاف الدين لا يجعل مني عنصراً ويجعل منك عنصراً آخر . .

ولا بد أن نرى ماذا فعلت مثل هذه الأفكار الحانقة بلبنان وإيرلندا والفلبين، وبين الزنوج والبيض، وبين الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا في حروبها المتوالية . . وبين اليهود والمسلمين. والحروب الصليبية التي استمرت مئات السنين . . ولكن رغم كل هذه الخلافات الدموية، وجدت الشعوب حلولاً، ووضعت حدوداً. وعقدت زواجاً سعيداً بين الذين يحملون الهلال والذين يحملون الصليب. وقد تحقق ذلك في مصر سنوات طويلة . . فما الذي أنعش هذه الخلافات في مصر؟! . . من الذي يحرص على أن تظل دماؤها ساخنة؟ من الذي يريد لمصر أن تتمزق وأن تتفتت، بعد أن أدى تماسك أبنائها إلى انتصارها في الحرب وفي السلام؟!

إن أبنـاء مصر لا يـريـدون ذلـك. فليس حب مصـر والإخـلاص لها والتضحيـة من أجلها مـوقفاً دينيـاً. إنمـا هـو موقف وطني حيوي. ثم إن مـدافع العـدو لم تفرق بين مسلم وقبطي.. ولا فرقت القبور بين بقايا مسلم ورفات قبطي.

إن كان رجال الدين يريدون ذلك، فهـذا موقف سيـاسي شنيع!

وإن كـان رجال السيـاسيـة يستغلون ذلـك، فهـذا مـوقف ديني فظيع!

إن مصـريين كثيرين خـارج مصر قـد أفزعهم مـا يقـرأون في الصحف الأجنبية، وما يجـدونه على شـاشة التليفـزيون. فجـاءوا إلى مصـر. وسـاروا في شـوارعهـا، وتـرددوا على مسـاجدهـا وكنائسهـا. واطمأنـوا على سلامـة مصر، وعـادوا سعداء بما وجـدوا.. وإن كانت قـد أحزنتهم تلك الحـوادث الصغيـرة العنيفـة ـ وإن لم يكن لهـا حجم حـوادث ١٨ و١٩ فـإن لهـا مـذاقهـا المـر، وسخـونتهـا التي من الممكن أن تنتشر..

ولذلك فمن الضـروري قبل أن تنتشـر أن نوقفهـا بمنتهى الحسم والحزم. أما الحسم فهو القرار القـاطع النهـائي، وأما الحزم فهو الحكمة التي يتجلى بها هذا القرار..

هـل من الممكن أن تكون ثـورة؟.. ممكن.. إذن فـلا

بد من أن تكون القرارات ـ أي المعالجة الحاسمة الحازمة ـ قرارات ثورية. وسوف يكون لهذا القرار أثره العميق في مصر وفي العالم العربي والإسلامي وفي العالم كله أيضاً. فكل دبوس يسقط في مصر يرن في عواصم العالم. فقد ارتفعت مصر بالحكمة والشجاعة. وكل قرار تتخذه هو من هذا الوزن والحجم والمكان المحترم. .

وعلى كثرة ما قرأت وسمعت وأتعسني ذلك. فلا شيء أحزنني على الشباب مثل أن يكون لهم مثل هذا الشعار: السمع والطاعة لأمير الجماعة. .

وكنت أفهم أن يقولوا: السمع وليس الطاعة. أي أنهم يسمعون ثم يفكرون. ولا يطيعون إلا عقولهم. . أو إلا الذين هم أكثر علماً وفضلاً وإخلاصاً للدين وللوطن. .

أو أن يقولوا: لا سمع ولا طاعة لأمير الجماعة. . لأن هذا الأمير ليس صاحب التجربة الشاملة. والفهم النافذ، والوعي العميق. . إنما هو واحد وجد أعناقاً قد انحنت فركبها، ورؤوساً قد فرغت فملأها. . ولا لوم عليه. إنما اللوم على الذين منحوه هذا الشرف الأليم. .

وفي مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم يطالعنا الرئيس السادت بتحليله الشامل لخريطة مصر السياسية والروحية، ويكشف لنا ما خفي من أمرنا، ويفزعنا على أنفسنا، ثم

يـطمئننا بحكمتـه، فليس موقفـاً خـطيـراً ذلـك الـذي سـوف يتخـذه، إنما هـو أخطر المـواقف وأشملها وأبعـدهـا أثـراً . . اليوم وغداً!

فلننظر وراءنا في غضب
ولننظر أمامنا
في أمل!

مهما حدث للشباب ومنهم، فلا بد أن نقترب منهم أكثر، ونستمع أطول، وننظر أبعد، ونفكر أعمق، ونحلل أهدأ، وإلا استحال أن نعرف الداء ونصف الدواء. فالمريض هو حاضر مصر ومستقبلها أيضاً. وإن لم يكن الحاضر مريضاً كله، فالخوف على مستقبل مصر. فلا نزال نحن الجيل الأقدم، نملك مقدرات الأجيال القادمة. وهذه الأجيال صناعتنا. وفي نفس الوقت هي أقوى اعتراض علينا. وهي لا تعترض على أننا مرتبطون بهم، إنما على أنهم مرتبطون بنا. ولذلك كان الاعتراض علينا رفضاً لنا.

ومن مظاهر الرفض ألا يؤمنوا بكثير من الذي نؤمن به في السياسة والدين. لا لأننا على خطأ وهم على صواب. ولكن لأنهم يريدون أن يختلفوا عنا. وفي هذا الاختلاف يؤكدون ذواتهم في مواجهتنا. وليس هذا جديداً. إنما حدث كثيراً في التاريخ: في سورة «لقمان» في القرآن الكريم، وفي الإصحاح الأول والثاني عشر من سفر أيوب في التوراة، وفي دون كيخوتة لسرفانتس، ومسرحية هاملت

لشكسبير، ورواية البؤساء لفيكتور هيجو، و«عودة الروح» للحكيم، وروايات نجيب محفوظ.. وسوف يبقى ذلك ما دام هناك شباب وشيوخ، وجيل قوي يذهب، وجيل جديد يريد أن يتعجل النهاية ويرث الأكبر سناً وهم ما يزالون في روعة قوتهم وريعان عزتهم..

وقد أسعدني أن يعلن الرئيس السادات في المؤتمر القومي سنة ١٩٧٢ أن الشباب: إذا لم يلعب دوراً كاملاً في بناء مصر، ضاع منا الحاضر والمستقبل.. وقال أيضاً: إنه لا ينوي عزل الشباب أو ضربه أو احتواءه، وإلا كانت هذه خسارة للقوى صانعة المستقبل.. كما وعد في خطابه إلى مجلسي الشعب والشورى أن يعطي فرصة للشباب الذي ضل - منتهى الفهم وحسن التقدير لشبان كان مثلهم، وكان غاضباً ساخطاً ثائراً، ولا يزال يحاول أن يجمع شمل أهله ومواطنيه ويضعهم على الصراط المستقيم بين أحلام مصر وأهدافها.. وبذلك يعيد مصر النكسة إلى مصر السلام، مصر البكاء والعويل على الذي راح.. إلى مصر الفرحة بالجلاء التام والسيادة الكاملة على مقدرات بلدنا الأجمل والأعظم والأكرم والأغنى بشبابها الوطني من كل دين وكل لون..

وربما كنت أكثر من غيري فهماً لمشاكل الشباب: الدين والسياسة والعناء الاقتصادي. فأنا أيضاً من أبناء

الطبقة المتوسطة.. طبقة المرارة والطموح.. مرارة الطبقة التي تحتنا ونخاف أن نهوي إليها، وطموحنا إلى الطبقة التي فوقنا ونتمنى أن نكون من أبنائها..

فشباب الجامعات عنده إحساس بأنه هو أيضاً أقلية. أقلية متعلمة في شعب أغلبه من الأميين. إنها أقلية ممتازة. وعلى الرغم من أنها ممتازة، فإنها لا تحصل على ما تحلم به. وسبب ذلك أنها أقلية. وليس لها صوت مسموع. ولذلك يكتبون على الجدران. وما يكتبونه فهو لأنفسهم. مع أنهم يقصدون أن يكون ذلك مسموعاً عند غيرهم.. أي الأغلبية القوية خارج الجامعة. ولأنهم أقلية فهم يشعرون بأنهم غرباء. وإنهم بعيدون أو مبعدون أو منبوذون. ولذلك كان ضيقهم بأنفسهم ثم ضيقهم بغيرهم أكبر وأعمق..

ومن مظاهر غضبهم من الأغلبية أنهم لا يرون رأيها في شيء، ويرفضون ما تؤمن به في الدين والسياسة والعلاقات الاجتماعية. لا لأن الذي يقبلونه أفضل، ولا لأن الذي يرفضونه أسوأ. ولكن لأن الرفض احتجاج. والاحتجاج هو أقصى ما تستطيعه الأقلية وراء أسوار الجامعة. ولذلك فالشباب يعتنق كل ما ترفضه الأغلبية.

وعندهم أسباب أخرى لذلك. من بينها أنهم يعتقدون أن الأغلبية قد تأكد فشلها وعجزها عن توجيه «بوصلة» الحياة العامة في مصر إلى مستقبل مضمون. وأكبر دليل

على ذلك نكسة ٦٧ . فهذه النكسة عار قومي . وهو عار يجلل هامات الجيل القديم الذي كان يجب أن يتنحى عن الحكم ويتركه لمن هو أفضل . والأفضل هم الشباب . فالنكسة العسكرية أصابت مصر بنكسة روحية . فالفشل شرابنا ، والهزيمة طعامنا ، والعار بيتنا ، واليأس نعشنا ، وكل مسيرة : جنازة للجميع . ومن العجيب ـ في رأي الشباب ـ أن الشيوخ يمشون في جنازة مصر مع أنهم قاتلوها ومشيعوها إلى مثواها الأخير؟!

ولذلك أصيبت مصر بأزمة في الثقافة وفي الأخلاق وفي السياسة . وقد شاركت أنا في مناقشة قضية أزمة الثقافة في مصر . وكان من رأيي ، ولا يزال ، أنها ليست أزمة ثقافة . إنما هي ثقافة أزمة ـ فالنكسة أزمة ، والتعبير عنها أو محاولة ذلك هو : ثقافة الأزمة . . فقد كان المثقف المصري والعربي مأزوماً ومتأزماً . فجاءت أفكاره حزينة يائسة . إنه لم يسكت عن البكاء . ولم يكف عن اليأس . فقد قال كثيراً . والذي قاله هو صميم الثقافة ، ولكن جوهر الثقافة هو الأزمة والتأزم . وأنا أعرف هذا المعنى تماماً . فقد كنت واحداً من مثقفي الأزمة الحضارية . فقد اعتنقت الفلسفة الوجودية زمناً طويلاً . .

وقد حدث ذلك لأوروبا في أعقاب الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا . وكان من هذه الحرب ونتائجها التي لا

هي نصر ولا هي هزيمة: أن تأزم الشعراء والأدباء، وأن تغلبت روح الهرب والانسحاب من الواقع، فكانت قمة الرومانسية . .

وبعد الحرب العالمية الأولى، التي هدمت الحضارة الأوروبية على رؤوس صانعيها، ظهرت النزعات اللامعقولة والسريالية في الأدب والفن . .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية بلغت الفلسفة الوجودية أروع ألوانها القاتمة . . فقد نادت الوجودية بمعارضة المجتمع، وفلسفته الاجتماعية والشمولية التي أدت إلى الدمار بسبب الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية والشيوعية السوفيتية والرأسمالية الغربية، إلى أن قامت بدور شمشون الذي هدم المعبد على أعدائه وعلى نفسه . . وإذا كان شمشون في التوراة قد قال وهو يهدم المعبد: عليّ وعلى أعدائي يا رب . . فإن شمشون الحديث قد نسي «يا رب» . . فقد انهدم المعبد دون وعد من أحد بأن يكون هناك رب أو دين جديد . .

وليس غريباً أن تجد بين المقالات المكتوبة على حائط كلية طب القاهرة ١٩٧٢، من يقول: أين هو الله؟ . . نريد رباً جديداً . .

وهذا يؤكد أن الشباب المصري ليس كافراً بكل دين،

إنمـا هو مؤمن إذ يتـوجـه إلى الله أن يهـديـه إليـه، وإلى دين جديد . .

وفي أعقـاب العـدوان الثـلاثي سنـة ١٩٥٦ على مصـر، اجتاحت بريـطانيا مـوجة من الغضب والسخط على الحكـومة التي فضحت نفسهـا، وفضحت معهـا أنهـا تخفي استعمـاراً وحشياً دمويـاً، وراء احترامهـا للحريـات والدسـاتير، ولـذلك بلغ «أدب السـاخطين» في بـريطانيـا أعلى درجاتـه. فظهـرت مسرحيات جـون أوسبورن، ودراسـات كولن ويلسـون. وكان شعـارها: انـظر وراءك في غضب. . وأمـامـك أيضـاً. . وإن الذي يحدث في العـالم لا يعنيني. . فإنني لا أنتمي لأحـد. فـالانتماء يحـد من حريتي. والمجتمـع المتـوحش يـريـد أن أنتمي إليـه، ويتقـاضى ثمن الأمن والأمـان حـريتي وفـرديتي وشخصيتي ومستقبلي أيضـاً. ولـذلــك فـالمثـل الأعلى هـو الإنسان «اللامنتمي» . .

والمعنى واحـد: لقد كـانت الأفكـار صـورة وظـلاً، بـل صوتاً وصورة، لأزمة الضمير الإنساني في أعقـاب الانهيارات الكبرى. .

وقـد جـاء في تقـريـر لجنـة تقصي الحقـائق إلى مجلس الشعب سنـــة ١٩٧٣ . . أن الشبـاب يعــانـــون من «الفـــراغ السيـاسي» أي أنهم يعــانـــون من أن تكـون لـــديهم فـرصـة

ليشتغلوا بالسياسة وليعبروا عن ذلك. وهذه الفرصة قد ضاعت بسبب اختفاء منظمات الشباب واتحاداتهم. وفي نفس الوقت عجزت «الأحزاب» عن مسايرتهم وتشجيعهم واحتضانهم واستقبال حيويتهم والحفاوة بها. .

وكل شباب الجامعات في العالم من أبناء الطبقة الوسطى. . أكثرهم كذلك. والأقلية من الفقراء والأغنياء. ولا تزال الطبقة الوسطى هي القوة المحركة لكل المجتمعات. فهي أكبرها وأكثرها قلقاً وحيوية. فهي تخاف أن تسقط إلى طبقة الفقراء. وتجاهد لأن تصعد إلى طبقة الأغنياء. واليأس هو الذي يهوي بها، والطموح هو الذي يرتفع بها. ولما كان تحقيق الطموح صعباً، كانت مرارة الشبان. وكان يأسهم أيضاً. .

ومشاكل الشباب المعيشية من أسباب ضيقه العام: الطعام والشراب والمسكن والمواصلات. .

ثم إن الشباب يشعر مرة أخرى في داخل الجامعة أنه غريب بعضه عن بعض. فقد أدت حرية التعليم إلى أن جاء من أعماق مصر شمالاً وجنوباً، شباب من كل لون، ولذلك احتاج الشبان إلى بوتقة قوية تذيب الفوارق بينهم. ولكن حتى لو ذابت في صيغة سياسية أو دينية متطرفة، فإن المسافة بينهم وبين أساتذتهم ما تزال كبيرة. فالمدرجات

والمعامل قد ضاقت عن الطلبة. والمسافة كبيرة بين الطالب وأستاذه: فلا صداقة ولا أبوة.. وإذا كان الشباب يشعرون بأنهم أقلية في البلد الواحد، فإن عزلتهم في داخل الجامعة، تجعلهم أقلية مرة أخرى. والقلق يطحن الجميع. والدراسة ترفع درجة حرارتهم. والوقت يسرقهم. ولذلك فهم يتعجلون النتائج. فليس عندهم وقت، ولا عندهم صبر. ثم إن الأغلبية الصامتة خارج الجامعة، يبدو صمتها قوة ورصانة واستخفافاً بهم أيضاً. وهذا يضاعف قلقهم ويغري استفزازهم ويثير سخطهم، ويرفع حناجرهم..

ولذلك جاء في مقال على حائط كلية الهندسة سنة ١٩٧٢ جامعة القاهرة: حتى لو قطعوا لساني، فإنني سوف أكتب على الماء!..

ولم ولن يفعل أحد ذلك، ولكنه الشعور بأن أحداً لا يسمعه، أو أن الذين سمعوه لا يريدون أن يسمعوه مرة أخرى.. أو لعله يثير زملاءه الصامتين أو المترددين، فيعيروه ألسنتهم أو يربطوها الواحد بالآخر لتمتد خارج الأسوار..

ومن أهم معالم الشباب: الاندفاع واللامعقول أيضاً. فهم مندفعون بما فيهم من حيوية وقوة. واندفاعاتهم ليست منطقية. لأنهم عاطفيون. ولأنهم غاضبون فهم لا يرون

بـوضوح. ولا يسمعـون إلى الرأي الثـاني أو الثالث. وهم لا يسمعون لأنهم لا يثقون في الآخـرين - والآخرون هم الجيـل القـديم. ولذلـك فعنـد الشبـاب تلتقي التضحيـة والانتحـار. فـالشبـاب بتكـوينـه مثـالي. أي خيـالي يحلم بشيء جـديـد يصعب تحقيقه. وفي اندفـاع الشباب نحـو تحقيق المثاليـات السياسية والدينية يرتطم بالمجتمع الـذي هو أقـوى.. ويكون ارتـطامه عنيفـاً. فـالمجتمـع يحمي نفسـه. ويـرد بعنف على عنف الشبـاب. وقـد يؤدي العنف الاجتمـاعي القـانـوني إلى الإضرار بالشبـاب. وبذلـك يكون مـوقف الشباب انتحـارياً. فـالشباب عنـدما أراد أن يضحي بنفسـه من أجل مبـادئه ومثله العليا، قد انتحر وعطل مسيرته!..

وقــد تحيـر الشبــاب، واضـطرب بين نمــوذج البــطل «هاملت» ذلك المثقف العنيف الانتحـاري في النهايـة، وبين البطل «دون كيخوتـة» ذلك المثـالي المستعد دائمـاً لمساعـدة أي مظلوم، حتى لو كـان المظلوم خـرافة. ولـذلك كـان دون كيخـوتة يـرمي بنفسه على النـاس وتحت أقـدامهم، دون أن ينظر إلى النتائج الهزلية أو المأساوية..

والـذي يـدفــع الشبـاب إلى هــذا الأسلوب العنيف أن لـديهم إيمانـاً قويـاً بأنهم أصحـاب رسالـة إصلاحيـة ثوريـة. وهم أصحـاب رسالـة لأن الجيل القـديم قد فشـل في تحقيق رسـالته، أو أنـه خان الأمـانة. ولـذلك فـالجيل الجـديـد من

الشباب يكسب رسالته طعماً سياسياً أو مذاقاً دينياً، أو الاثنين معاً. وما دام الجيل القديم قد فشل في سياسته، فسبب ذلك أن مذهبه السياسي هو الخاطىء. ولذلك اعتنق الشباب مذاهب سياسية عنيفة. وهي بالضبط مالا يرتضيه المجتمع.. أو اعتنق الشباب مذاهب في الدين أعنف، وهي تماماً ما يرفضه المجتمع. ولذلك فالجماعات الدينية في مصر هي ضد المسلمين، وليست ضد الأقباط. لأن الأقباط من دين آخر. وليس يهم الجماعات الدينية تبشير الأقباط بدين الإسلام، إنما تخليص الإسلام من المسلمين المعتدلين المتحللين الذين يتفرجون على التليفزيون ويذهبون إلى السينما ويلبسون المايوه على الشاطىء، بل الذين يكشفون وجه المرأة وكفيها، ويكشفون وجه الرجل أيضاً فلا يغطونه بلحية كثيفة..

وهم يرون ضرورة تجريد الجيل القديم من شرف القيادة والريادة..

ولذلك جاء في مقال على حائط كلية الصيدلة في جامعة القاهرة: إن الذين نطالبهم بأن يخفوا وجوههم خجلاً، قد عروا وجوههم وكشفوا عن سيقان بناتهم وزوجاتهم، وذهبوا إلى بيوتهم يشاهدون أجساماً أكثر عرياً على شاشة التليفزيون الذي يبدأ إرساله بالقرآن الكريم وينهيه بالقرآن الكريم أيضاً!..

ولكن الشباب الذي أطال لحيته لكي يبدو أوضح، قد أخفى حقيقته. وذلك لأن المسلم والمسيحي واليهودي والماركسي يطيلون لحاهم أيضاً. تماماً كالشبان الساخطين والغاضبين والهيبيين قد أطالوا شعورهم ليختلفوا عن الرجال الذين يحلقون شعورهم، وليتقاربوا من الجنس الآخر. وعلى ذلك فبدلاً من أن يختلفوا عن الرجال الآخرين، يتشابهون مع النساء الأخريات.. فأضاعوا أحد معالمهم، عندما أرادوا أن تكون لهم معالم أخرى جديدة.. وعادت الفتيات فحلقن شعورهن ليختلفن عن الفتيات وليقتربن من الرجال. ولنفس السبب، فكانت نفس النتيجة!..

فما الذي يمكن عمله منذ اليوم والغد؟..

لقد قرأت بحثاً كتبه الزميل الكبير مريت بطرس غالي عضو مجلس الشورى عن «الأقباط في مصر» ووجه كتابه (٤٥ صفحة) إلى المسؤولين وإلى أحبائه من المسلمين. والكتاب منطقي العبارة، هادىء النبرة. ولكن هذه النبرة تتعالى حتى تكون غضباً وسخطاً يعتذر عنه في النهاية.. والكتاب أشبه ما يكون بالماء الصافي الذي اندفع بقوة تخرم الصخر، أو أقرب إلى مسدس كاتم للصوت، ولكن طلقاته سريعة قاتلة. والرجل معذور، إنه يحب أهله ووطنه، ويتمنى السلام بين الأغلبية والأقلية: أية أغلبية وأية أقلية. ولذلك يبدأ كتابه بالحيرة بين الكلام والصمت. ثم يختار أن

يتكلم. يقول الأستاذ مريت غالي: إنه حائر بين الإفصاح من أجل الإصلاح، وبين السكوت من أجل المحافظة على سمعة مصر في الخارج، وعدم الإثارة في الداخل.

ولكنه اختار أن يقول..

ولا بد أن نقول: ما الذي يعاني منه الشباب؟.. ولماذا؟ وما الذي يجب أن نفعله اليوم؟.. وما الذي يجب أن نقوم به غداً؟.. وقد لا يطول يومنا، ولكن سوف يطول غدنا.. والشباب هو غدنا الذي يجب أن يكون أفضل من يومنا، وأروع من أمسنا. وهذه هي الأمانة التاريخية التي ينازعنا إياها..

إن الفيلسوف العربي ابن خلدون عندما تحدث عن الفتوحات الإسلامية قال: إن الغزو يبدأ بالسيف، والاستقرار يكون بالقلم..

أي الغزو يكون بالاندفاع، والاستقرار يكون بالتفكير.. والآن جاء دورنا لنتروّى. لنقول ويسمعوا. ويقولوا ونسمع. ونختلف ونتفق. وهم لا شك وطنيون مخلصون. ولا شك أنهم الأغلبية الطيبة، وإن بينهم أقلية مفسدة. وكل المفسدين أقلية. وهم مفسدون لأنهم أولاً أشرار مارقون، ولأن أحداً قد شجعهم على ذلك. ويكون التشجيع بالاستسلام لهم، أو بالسكوت عنهم. فالدولة قد سكتت

عنهم، وشبان قد استسلموا لهم. والشبان قد استسلموا. . أولاً لأنهم ليس لديهم متسع من الوقت ليفكروا فأراحوا أدمغتهم بأن فتحوها وتركوها. ولأنهم عندما انفصلوا عن الأب في الأسرة، وانفطموا عن الأب في الدولة، اتجهوا إلى أب جديد. أب من سنهم ومن جيلهم. فهو الأب والأخ الأكبر أيضاً. وهو قائد مسيرتهم في الاحتجاج على كل الأشياء وعلى الآخرين. .

فما العلاج؟ وما الحل؟ إنني أفضل كلمة الحل. لأن هناك مشكلة. ولا أفضل «العلاج» لأنه يوحي بأن هناك مرضاً أو وباء قد استشرى. فليس الشباب مرضاً، وليس غضبه وباء. إنما جوهر الشباب: الغضب. وجوهر الغضب: الاحتجاج. وسلاح الاحتجاج: سياسة ودين، والهدف هو: مصر. . مستقبل مصر. .

الحل هو أن نصبر عليهم. . أي أن نعطيهم فرصة وعشرات الفرص. من الحوار والتفاهم. ولا يكون ذلك عن بعد. إنما يكون من بينهم.

فمن الذي يفعل ذلك؟ كلنا نفعل ذلك. الأب والأم والأخ والمدرس ورجل الدين ورجال السياسة. ولكن ليس رجال الأمن. فالشباب ليسوا لصوصاً ولا مجرمين. ولا نبعث لهم برجال المطافىء؛ فهم لم يشعلوا الحرائق، إنما حرارتهم هي دماؤهم. ودماؤهم مبادىء تجري في عروقهم.

إن التقريرين اللذين أعدهما مجلس الشعب عن «تقصي الحقائق» في فتنة الطلاب والفتنة الطائفية، قد تحدثا عن أشياء كثيرة. ولكن عند تفسير الأحداث كان أسلوبهما هو «الدوران حول الحقيقة» وعلينا أن نذهب إلى الشباب ونمد الأيدي ونصافح ونعانق مستقبل مصر. ولكن ليس بالقبلات وحدها، كما ليس بالصفعات وحدها، نستهوي الشباب أو نصادقه أو نعيده إلينا. وليس بإزالة الأسوار بين الجامعة والشارع نرده إلى المجتمع الذي تمرد عليه. فهذه الأسوار حماية له، وليست حاجزاً ضده، كما يتوهم بعض النافرين الرافضين.. فليست هناك حواجز بين هذا الجيل والأجيال الأخرى. وأكبر دليل على ذلك أن الجيل القديم يحاول أن يزيل آثار نكسة يونيو عندما انتصر في أكتوبر ١٩٧٣ وعندما بادر بالسلام في ١٩٧٧. كل ذلك من أجل أن يزول اليأس ويذهب الفشل، وتضيع المرارة من أفواه الجميع.. فالجيل القديم لم يسكت إنما هو يحاول. ولن تمضي شهور قليلة حتى تزول الآثار العسكرية للهزيمة. وبعد ذلك يبدأ التحدي الأكبر، عندما نتسلم بلادنا خالية من قوات الاحتلال حرة كريمة. نعيد بناءها وترتيبها من داخلها.. ونشحن قواتها من أجل ما هو أفضل لنا وللأجيال الشابة من بعدنا.

إن الجيل القديم قد أدى ما وجب عليه. وسوف تكون

مهمـة الأجيـال الشـابـة، أعنف وأقسى. ولـذلـك يجب أن يستعـدوا لهـا من الآن وأن يكـونـوا جـادين. وأول مـظاهـر الجد: احترام الجهـود المرهقـة التي بذلهـا الآخرون، والتي أدت إلى أن تعيـد إليهم مصر كـريمـة عـزيـزة.. فليس من الجـدية الحقيقيـة أن تـرى نفسـك وحـدك على حق، وتـرى الآخـرين على خـطأ، وليس من الاعتـزاز بنفسـك أن تـأبى على الآخرين ذلك..

فلنكن جميعـاً جـادين في التفكيـر، لنكن صـادقين في العمـل.. ومـا يـزال أمـامنـا وقت. فليس متـأخـراً أن نبـدأ، ولكن متأخر جداً ألا نفكر في ذلك!..

ولنتفق جميعـاً قبل أن نشـرع في حوار طـويل: أن ننـظر وراءنـا في غضب، وأمـامنـا في أمـل. فـالـذي حـدث كـان خطيئة سياسية ارتكبها رجال الدين، وخطأ دينيـاً اقترفـه رجال السياسة!..

عن الشباب فقط:
قراءة صحيحة
لمعلومات خاطئة!

لا يهمني كثيراً ما يقوله الآخرون عن مصر. فنحن أدرى بأنفسنا. ثم إن هؤلاء الآخرين غرباء عن مصر. ولذلك كانت نظراتهم مثل نظرياتهم غريبة. لأن اهتماماتهم بنا عابرة، وأحكامهم علينا خاطئة. فلسنا إلا خبراً في نشرتهم اليومية، وهذه النشرة تتنافس فيها كل وسائل الإعلام الدولية، فهي في حرب صوتية وضوئية على ملايين الآذان والعيون، وقد اعتاد الجميع على أن تكون الأنباء ساخنة، والحوادث دامية، والنار شاملة. فإن لم تكن كذلك، انصرفت عنها الملايين. فلا بد إذن، أن يكون لأخبار مصر مثل هذا اللون والطعم والرائحة. وهكذا تعاون الكذب والفن الإعلامي على ظلم مصر - أي على تشويه اسمها ورسمها..

ونحن وحدنا الذين نعرف ما جرى، ونقدر ما سوف يجري. ولسنا في حاجة إلى أن نستورد عيون الآخرين، وأن نستعير آذانهم، وأن نضع في رؤوسنا عقولهم، لكي نفهم مصر. إن فعلنا ذلك، وقفنا ضد مصر، لأننا عكسنا

الأوضــاع ـ أي أننـا استعنـا بـالصـدى على قيـاس الصـوت، وبالظل على رسم أبعاد الصورة، وبـالغريب البعيـد على فهم أقرب الأقربين!

ويكفي أن تعـود إلى مـا كتبتــه الصحف الأجنبيــة عن اضـطرابـات سنــوات ٥٤ و٦٧ و٧٢ و١٩٨٠. فـإن لم يكن هذا خطأً متجدداً، فإنـه خطيئـة مستمرة. ومعنـاها أننـا رفضنا أن تكون لنا وقفة مع أنفسنا، فاتخذنا مـواقف الآخرين الـذين لا يعلمون. وإذا علموا فـإنهم لا يقدرون، وإذا قـدروا فإنهم لا يـرحمـون. ومن الـطبيعي أن نعـامـل أبنـاءنــا بـالــرحمـة والعــطف. ولكن حسن الفهم يجب أن يـسبـق الــرحمــة. فالعطف على الصغيـر مثلاً، ليس عـلاجاً لأخـطائه، والبكـاء إلى جانب المريض، ليس شفـاء لأوجاعـه.. والمهم أولاً أن نعــرف وأن نفهم وأن نحلل وأن نشخص وأن نعـالــج، فـإن شكا المريض مـرارة الدواء شجعنـاه على احتمال ذلـك حتى يتم شفاؤه، ونستأنف به ومعه ومن أجله رحلة الحياة..

ومن بين الأخـطاء التي وقعنا فيهـا، أننا تصـورنا الغضب والسخط مقصورين على الشباب المتدين.

فليس كل شباب مصـر منضماً في جمعيـات سريـة دينية أو سياسية.

ثم إنــه ليس من الضـروري أن يكــون لي مــذهب في

السياسة أو في الـدين لكي أقول: إن المـواصلات صعبـة. . والإسكان أزمة. . والشوارع مطبات. . وخلو الرجـل أبعد من أن تصل إليه رجلي أو يدي. . وإنني أفضل القنـاة الثانيـة في التليفزيون على الأولى. . وإنـه ليس من أجل أن أضيف يـوماً في حياة فؤاد سراج الـدين تحذف عشـرة آلاف يوم من حيـاة ثورتي يوليـو ومايـو. . إلى آخر مـا يمكن أن يقولـه أي إنسان عن حياته الخاصة والعامة.

ولكن إذا اتخـذ الضيق ستـاراً دينيـاً، فسبب ذلـك أن الدين عميق عندنـا. وإن الشباب مثـالي بتكوينـه. وإن أروع المثـاليات هي التي جـاء بها الـدين الكـريم. ولأنهم شبـاب فهم غاضبون. ولأنهم مثـاليون فهم متشـائمون. لأن المثـالي هـو الشخص الذي لا يـرضيه الـواقع، ويـواجه هـذا الـواقـع بـأحلام رفيعـة يتمنى تحقيقها. ولمـا كـانت ذراعـه مـا تـزال قصيـرة. . أو لما كـانت المسافـة بين مـا يقـولـه بشفتيـه ومـا يعمله بـذراعيـه طـويلة عـريضـة، فهـو عـاجـز عن أن يحقق الحلم الـذي يتمنـاه. ولـذلـك كـان لا بـد من أن ينضم إلى الآخـرين، لتكـون منهم جبهـة أو حـزب أو جمـاعـة تـواجـه المجتمـع الذي سبقهم إلى الـوجود، والـذي سوف يبقى من بعدهم.

والشبـان أكثـر حيـويـة، ولكن ليسـوا أقـدر النـاس على تصـريف طاقتهم بـالعقل، إنمـا أقدر منـا على بـذلهـا بـدون

حساب، أي بدون عقل. أي بالاستسلام لدوافعهم القوية دون قيد عليها. ولذلك كان استسلامهم للنزعات المتطرفة شيئاً طبيعياً. لأنهم متطرفون بتكوينهم العاطفي. ولأنهم ساخطون على الأوضاع الاجتماعية. ولأنهم رافضون لكل أب ومدرس وحاكم ورجل دين. ولذلك فقد أسلموا قيادتهم لمن يجمع كل هذه الصفات ـ في رأيهم..

وإذا نحن قرأنا ما نشرته الصحف الأجنبية وجدنا شيئاً غريباً عن الحقيقة، فالذي يقرأونه صحيح، ولكن الذي يفهمونه خطأ: فهم يقارنون بين الغضب الديني الشاب في مصر، وبين الغضب الديني في سوريا ولبنان وإيران. مع أن الغضب في سوريا مسلح بين الأقلية الشيعية والأغلبية السنية. كما أن الغضب بين إيران والعراق هو غضب أبناء المذهب الشيعي الواحد. هذا الغضب اتخذ شكل الصراع المسلح الذي طال، وإذا انتهى فبغير انتصار ـ لأن قوات الدولتين تهتز ولا تتقدم، والحرب في لبنان هي بين المسلمين وبين المسيحيين واليهود. حرب دينية وسياسية وصليبية وهلالية وصهيونية وأمريكية وسوفيتية وفلسطينية وبترولية. لقد بدأت بوضوح، وليست لها نهاية واضحة..

ولا شيء من ذلك في مصر. فهم في كل هذه البلاد الإسلامية ينزفون الدماء، ويشعلون النيران، ويتلقون السلاح الأمريكي والسوفيتي.. وهم يحاربون في العراق خوفاً على

سقـوط خـوميني، وفي لبنـان خـوفـاً على سقـوط الأسـد، ويحاربون في تشاد ومندناو والكونغو وإيرلنـدا ومالـطة حتى لا يسقط القذافي . .

وإذا كـان اليساريـون هم الذين قـادوا المظاهـرات ضـد الشـاه فجاء خـوميني، فهم الآن ينظمـون المـظاهـرات ضـد الامبراطور خوميني، ليجيء الرفيق خوميني . . فخوميني جـاء على أكتـاف الشيوعيين، وبـاق بـأسلحـة إسـرائيـل، حتى لا تتوقف حربه مع العـراق وحتى لا تكون بين المسلمين وحـدة في الشرق الأوسط . .

وربما كان أقباط مصر يلعبـون نفس الدور ـ وهـذه وجهة نظر إسرائيل. فإذا أحد شجعهم على الشقاق والفـرقة والفتنـة المستمـرة، كـان ذلـك مسـاعـداً على ألا تكـون وحـدة في مصر، وألا تكون وحدة بين مصر والبـلاد العربيـة والإسلاميـة الأخـرى . . وبـدلاً من أن تكـون إسـرائيـل جـزيـرة في بحـر عـربي إسلامي . . تكـون جزيـرة في بحار عـربية لهـا أمـواج متضاربة الأديان والمذاهب والعناصر والمصالح . .

فليس الذي حدث بين شباب مصر شيئـاً من ذلك. إنمـا هـو لعب بـالنـار. ولكن على الـرغم من أن هـذه النـار متـواضعة، فـإننا على ضـوئها رأينـا جراحنـا. ورأينـا أسلحـة نخفيهـا وراء ظهورنـا. والتاريـخ يحدثنـا كثيراً عن أعـواد من الكبريت أشعلت حرائق كبرى . .

ولكي يكون الخلاف في الرأي بين الشباب حاداً، وليكون الخلاف صراعاً، فلا بد من أن يقف أناس ضد أناس. فيقولوا: نحن وهم.. وهذا رأينا وذاك رأيهم..

ولا بد أن تكون هناك «حدود» غير آمنة.. بين هذه الأقلية الشابة الصغيرة، وبين الأغلبية الكبرى من بقية الشعب..

ولا بد أن تكون هناك منطقة عازلة.. أو أن يكون «سد».. أو خط فاصل.. وهذا ما فعلته الجماعات الصغيرة عندما تحدثوا عن دينهم وديننا، ومجتمعهم النظيف ومجتمعنا الفاسد.. ولذلك وضعوا لأنفسهم كل الفواصل الفكرية والمادية، فكان لهم رأي خاص وملامح خاصة ولغة سرية.. وهكذا عزلوا أنفسهم، وتوهموا أنهم عزلوا كل الناس ونبذوهم..

وفي كتب «علم النفس التحليلي» نموذج معروف لجنون العظمة أو للاضطهاد العقلي: إنها قصة رجل أدخلوه مستشفى المجانين. ثم زاره أحد الأصدقاء، فوجده هادئاً منطقياً. فأدهشه ذلك. وسأله: أنت هنا لماذا؟ فأجاب الرجل: لسبب بسيط جداً. أنا أقول إن كل الناس مجانين. والناس يقولون إنني وحدي المجنون. ولما كان الناس أقوى مني، أتوا بي إلى هنا، ولما كنت أضعف من كل الناس، لم أستطع أن أحبسهم هنا!

ولنفس السبب «يتـوهم» هؤلاء الشبـان المثـاليـون أنهم قادرون وحدهم على عـلاج كل الأمـراض. وفي مقدمـة هذه الأمـراض: المجتمع كله. وإذا سخـر منهم أحـد، ردوا إليـه السخـرية بـأسـوأ منهـا. ربمـا استحضـروا قصـة نـوح عليـه السلام. الـذي راح يصنـع سفينـة على الأرض، بعيـداً عن الشـاطىء. وكان أهله يسخـرون منه لأنـه لم يذهب بـالسفينة إلى القرب من الماء. ولكن نـوحاً عليـه السلام نبي الله يعلم مـا سوف يحـدث، فجاء الـطوفان إلى حيث السفينـة ورفعهـا لينجو نوح وأهله، ويهلك قومه جميعاً.

وإذا تـوهم الشبـان ذلـك فـإنهم يبـالغـون كثيـراً في قـدراتهم، ويبـالغـون كثيـراً في عجـز المجتمـع عن صـدهم وردهم . .

أمـا الـمؤرخ الـعـظيم تـوينبـي حيـن يتـحـدث عن «المبـررات» التي تخلقهـا الجمـاعـات الإنسـانيـة لتهـرب أو تتفـرق في الأرض، فإنـه يضرب مثـلاً قصة: سـد مـأرب . . ذلـك السـد الـذي أقيم في اليمن ليتجمـع المـاء أمامـه، فيستعين بـه الناس عنـد الضرورة. هـذا السـد قـد اكتسحتـه المياه، فغرقت الأرض ومن عليهـا. فتفرقت القبـائل اليمنيـة في أنحـاء شبه الجزيرة العـربية . . ويقـول توينبي إن الـذين يقيمـون السدود يحتـاطون لهـا حتى لا تنهـار، فتكـون هنـاك فتحات لتخفيف الضغط على جدران السد. . لأن الماء أمـام

السد يحاول أن يكون في مستوى سطح الماء وراءه. فهناك دائماً مستويان وراء السد وأمامه. وهناك ضغط مستمر في كل الاتجاهات. فالماء يريد أن يهدم السد، والسد يريد أن يوقف الماء حتى لا يغرق الذين صنعوه ـ هذا في السدود الهندسية، أما «السد المعنوي» فهو أن الشعوب إذا لم يكن لديها سد فإنها تخلقه، وإذا لم تخلقه فإنها تتوهمه.. ولذلك لا توجد حضارة قديمة ليس فيها فيضان أو طوفان يغرق الناس ويهلكهم، ليظهر واحد أو جماعة ينجون من الموت. وتكون نجاتهم استئنافاً للحياة الجديدة، على أسس غير القديمة الفاسدة..

ويقول المؤرخ العظيم توينبي: لا توجد ظاهرة أو حركة تمرد أو اضطرابات أو ثورة لا يتخيل القائمون بها: إن هناك سداً مانعاً منيعاً، وإن هناك طوفاناً، وإن هناك سفينة للنجاة.. وإن هناك أكثر من نوح. وكما أن التاريخ الديني قد عرف نوحاً واحداً، فإن الحركات الدينية في طول التاريخ وعرضه قد عرفت ألف نوح ـ إنهم أنبياء كاذبون!

وليس هؤلاء الأنبياء الكاذبون إلا مجموعة من المتعصبين المتهوسين..

والتعصب ليس هو الإيمان الشديد. لأن الإيمان الشديد هو أن تتحمس لرأيك وتدافع عنه، وفي نفس الوقت

تـرى أن هناك آراء أخـرى تختلف معك. أمـا المتعصب فهـو صاحب الإيمان الشديد بـأن رأيه هـو الرأي، ولا رأي غيـره. فـالمتعصب هو الـذي يرتـدي مـلابس رجـال الـدين ويخفي وراءهـا خنجـراً يقتـل بـه من يخـالفـه.. فهـو يقتـل الـرأي بـالسكين.. وهو ليس إلا مجـرماً عـادياً سـرق مسـوح رجـال الدين لتكون جريمته مقدسة!

فـالمشكلة التي أمـامنـا وحـولنـا ليست: الإسـلام أو المسيحيـة والإيمـان بهمـا. إنمـا هي سـوء الفهم وسـوء التقدير..

أذكـر أنني جلست أمـام المسجـد الحـرام على أحـد المقـاهي. وكنا ثـلاثة من المفكـرين: إيراني ومغـربي وأنـا. واختلفنا في أشياء كثيرة. ولم نكن هازلين عندما سألنا زميلنـا الإيراني إن كان مسلماً حقاً. وأدهشنا الرجل عندمـا قال لنـا: بـل هـذا مـا أردت أن أقـولـه أيضـاً!.. وكـان افتـراقنـا دون تحيـة، دليـلاً على ضيق أفقنـا، لأنـه لا يـوجـد أي سبب يدعوني لأن أعـاديك لمجـرد أنني اختلف معك في الـدين أو المـذهب، أو اللون أو الـطبقـة. فهـذه خـطوط أسـاسيـة في اللوحة الإنسانية!.. فأنا لا أعادي إنساناً لاختـلافه في الدين، أو في اللون، أو في السيجارة التي يدخنها..

وعلى مسـارح برودواي بنيـويورك الآن مسـرحيـة اسمهـا «أماديوس» عن الموسيقار النمساوي أماديوس موتسـارت، من

تأليف بيتر شافر. وفيها صراعات حادة بين الموسيقار والنقاد والحاسدين والذين يدورون حول عروسه الحسناء. ولكن في موقف رائع يقول موتسارت: لن نتفق. ولا أظن ذلك ضرورياً. فما دام الله قد خلقنا اثنين وليس شخصاً واحداً، فحكمته أن نكون اثنين مختلفين في كل شيء، فكل منا يريد أن يقضي على الآخر، ويلغي بذلك قراراً أصدرته السماء إلى سكان الأرض أن يكونوا كثيرين مختلفين، وأن يكونوا مختلفين كثيراً. . فلولا اختلاف النغمات ما كان اللحن الواحد. . تعالوا نرقص ونغن ونقدس خلافنا الجميل. . إلى الأبد!

ولا أدعي أنني أعرف بالضبط ما الذي يقوله الشبان عن كل الذي قيل في التعريف بهم، وتحليلهم وتحريمهم وتبرئتهم وتجريمهم. لا أعرف. . فنحن ما نزال في قلب «المعركة» الفكرية، ولم نبتعد عنها مسافة تسمح لنا بالرؤية من بُعد. . أي بالروية الواضحة. ولا أظن ذلك ممكناً، فأينما نكن ومتى نكن اليوم وغداً، فنحن محاطون بالشباب. وربما كان هذا أفضل، لنراه ونسمعه ونعايشه ونحاوره وتنتقل إلينا هذه العدوى الحارة القلقة والنبيلة أيضاً. فنكون نحن وهو شخصاً واحداً: نتحدث بلسانه مرة، ونتحدث إليه بلساننا مرة أخرى. وليست لجان «تقصي الحقائق» إلا بعثات إلى قلب الغابات الشابة، وإلى ما تحت سطح

مياههم المضطربة، لعلنا نعرف. وقد عادت هذه اللجان بمعلومات كثيرة. جمعتها وناقشتها. ثم قامت بتحليل الدم ورسم الأشعة ودراسة لتاريخ المرض ومعرفة ظروفه المادية والاجتماعية والدينية والسياسية، ثم أصدرت تقاريرها عن ذلك.

وهذه التقارير توافرت لها النية الحسنة ـ أي أننا نريد أن نعرف وأن نفهم وأن نحلل وأن نشخص وأن نعالج. وأن يؤدي العلاج إلى الشفاء التام ـ وهذا طموح عظيم. لأن هذه المتاعب المعقدة ليس من السهل علاجها مرة واحدة، ولا من تشخيص واحد، مهما كانت النية طيبة وخالصة لوجه الله والوطن. والرسول عليه السلام هو الذي قال إن الطريق إلى النار محفوف بالنيات الحسنة ـ أي كم من الجرائم قد ارتكبت بحسن نية، تماماً كالذي يعطي مريضاً طعاماً لأنه وجده هزيلاً، فيموت المريض. والقاتل اسمه: القلب الطيب!

وقد قرأت كل التقارير التي تعب أصحابها في جمع المعلومات وتصنيفها واستخراج الدوافع وراءها. واسترحت إلى حقيقة واحدة، هي أن التقارير قد انتهت بأنه لا أحد مجرم ولا أحد بريء. هناك جريمة لا شك، ولكن لا يوجد مجرم، وهناك حكم بالبراءة أيضاً، لأنه لا توجد جريمة.

إذن فإذا كان يهوذا الذي خان المسيح عليه السلام

بريئاً، فمن الذي باعه للرومان بثلاثين قرشاً؟!

فإذا كان المسلمون أبرياء والمسيحيون أيضاً، فمن الذي أشعل الفتنة الطائفية؟

وإذا كان «الفراغ» السياسي والتربوي والديني والاجتماعي، هو السبب في كل هذه المشاكل، فمن الذي نتجه إليه حتى لا تتكرر هذه الاضطرابات بين الشبان؟ . .

ثم كيف نتهم الساسة القدماء والشيوعيين المخربين والذين يدفعون الأموال لإفساد الحياة العامة في مصر؟ . .

فإن قلنا إن الشباب المصري قلق لأنه متدين، فقد أسأنا تقدير كل شيء . .

وإنما هناك من أساء استغلال هذا القلق: ضد الشباب وضد مصر. . وإذا قلنا إن الساسة القدماء والإرهابيين قد تعانقوا لإسقاط مصر، ففي ذلك تعظيم لدورهم، وتحقير لوضعنا الآمن المستقر. . وإذا ألقينا الجميع في وعاء واحد وفي صبغة واحدة، فأصبح لهم لون واحد، فقد أضعنا المعالم المميزة لكل نوع من هذه الأنواع التي يجب أن تعالج على حدة، وأن توضع معاً لنعالجها جميعاً!

إنني أتقدم بالشكر لكل الذين تقصوا الحقائق، ولكل المخلصين في فهم الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية والتاريخية المعقدة.

وبعـد ذلك وفـوراً يجب أن نبدأ منـاقشـة هـذه التقـاريـر وهـذه اللجـان. . التي لم تتخـذ وقتاً كـافياً في الجمـع والاختيار والتنسيق والتحليل والتنظير. لأن المـوقف أخطر من ذلـك كثيـراً. فليس قـراراً نهـائيـاً أن تصـدر البـراءة في هـذه القضية، ولا نهائيـاً أن تصدر الإدانـة أيضاً. ولـذلك يجب أن تستـأنف هـذه الأحكـام، لأن الأمـر يتعلق بـالشبـاب الـذي يتجدد عامـاً بعد عـام. . وجيلاً بعـد جيل. ولأن واجبنـا ليس أن نغسـل أيـدينـا من دم أحـد، ولا أن نبقيهـا داميـة. . إنمـا مصر تدعونا أن نـدفع بقـوى شبابنـا إلى أن يحقق ذاته، وإلى أن يستثمر شبابه من أجل حيـاته هـو، وحياة جيله، ومستقبـل مصر.

والـذي فعله مجلسا الشعب والشـورى، ليس إلا خـطوة أولى. خطوة قصيرة في طريق طويل. .

إن العالم الآن يناقش قضية جديـدة عجيبة: هي صنـاعة الموهبة الشابة. . أي كيف تصنـع الدولـة شابـاً موهـوباً. لأن هناك رأياً يقول بأن المـوهبة يجب ألا ننتـظرها حتى تجيء. . كمـا ننتظر السحب تجيء من بعيـد لتسقط أمطارهـا علينـا. . إنمـا يجب أن نصنـع المـوهبـة. . كمـا نـسقط الأمـطار الصنـاعيـة. . وكمـا أن صحـة الجسم «كيميـاء». . فكـذلـك صحة العقل. . وكذلك العبقرية يمكن «تخليقها». .

وقد حدث عنـدما أطلق السـوفيت أول قمر صنـاعي، أن

أحس الأمريكان بالهوان وعظيم الاحتقار: إذ كيف يسبقهم الروس: هؤلاء الذين لم يصنعوا لأنفسهم سيارة أو ثلاجة أو فرناً كهربياً ولا يعرفون الرفاهية الأمريكية؟!

وعكف الأمريكان على مراجعة جميع برامج التعليم في البلدين، ليعرفوا لماذا تفوق الروس. .

وفي ذلك الوقت اهتزت أمريكا من أولها لآخرها، لأن أحد الشبان قد ظهر في التليفزيون يجيب على أي سؤال من أي نوع، ويتقاضى ملايين الدولارات في كل أسبوع. . وأمام التليفزيون جلست الأمهات الأمريكيات «يتوحمن» على هذه المعجزة الإنسانية. وتمايلت أمريكا طرباً عندما ظهر هذا الشاب يجيب عن مثل هذه الأسئلة: كم شعرة في رجل البرغوث؟. . وما لون حذاء ماري انطوانيت عندما شنقوها؟. . ولماذا كان نابليون يبكي بعينه اليسرى فقط؟. . ومن هذا الطفل الذي كانت له عين زرقاء وعين خضراء؟. . وما رقم القضية التي رفعها زنجي ضد زوجته التي أنجبت له طفلاً أبيضاً؟. . وأين كان ذلك ومتى وكم كان عدد الحاضرين في هذه الجلسة؟. . وما الذي قالته زوجة القاضي التي كانت تجلس في الصف الأول من المحكمة؟. . إلخ.

وفجأة انكشف هذا الإنسان المعجزة. إنه غشاش يقتسم هذه الجوائز المالية مع الشخص الذي يعد له

البرنامج ـ وكانت فضيحة كبرى في أمريكا. وعلى الرغم من أن الأمريكان قد أغرقهم العار القومي، فإن بعض الحكماء قد برزوا برؤوسهم من تحت الوحل، ليتساءلوا: ولكن لماذا لا تكون عندنا عبقريات من هذا النوع وأفضل؟ لماذا يتفوق الروس في إطلاق سفن الفضاء، بينما نحن نزحف على الأرض؟.. أهي الديموقراطية؟ أهي حياة الرفاهية التي يعيشها الشعب؟ أهي التربية العسكرية والحزبية السوفيتية؟ أهي الديانة المسيحية؟

ونحن لسنا غارقين في العار أو الوحل، فقد تداركنا كل شيء قبل أن يكون أخطر. ولا بد أن يطل أحد برأسه ويتساءل في حكمة وحسم: إن القضية لم تدرس دراسة كافية. ولذلك فلا بد من فتح الملفات. فقد انتهى دور رجال مجلسي الشعب والشورى، ويبدأ دور رجال العلم والدين ـ علماء النفس والاجتماع والصناعة والزراعة والنقابات، دون أن يكون لهم وقت محدد للدراسة أو إعلان النتائج..

والذين استراحوا إلى هذه التقارير التي أصدرها مجلسا الشعب والشورى، هم الذين لا يعنيهم الأمر كثيراً. لقد كانت قراءتهم صحيحة لمعلومات ناقصة، أما الذين لم يستريحوا إلى ذلك فلأنهم كانوا ينتظرون شيئاً أخطر وأعمق. فالسرعة ليست مطلوبة، كما يحدث عند استخراج

شهادة الميلاد، أو التصريح بتشريح الجثة أو دفنها!

ويكفي أن أسوق تحفظاً واحداً، وهو أن مشاكل الشباب في مصر يجب ألا ندرسها بعيداً عن مشاكل الشباب في العالم، ومحنة الديموقراطية في نفس الوقت ـ أي في أعقاب الهزائم النفسية الكبرى، أي الهزائم القومية.. والمصاعب اليومية..

ولم أجد لشيء من ذلك صدى أو إشارة واضحة في التقارير الرسمية.

وحيث انتهت هذه التقارير يجب أن تبدأ دراسة علمية متأنية.. والوقت معنا ولصالحنا..

جاليليو:
لا يكون زعيماً!

ماذا يحدث عندما يسقط رئيس؟..

يحدث نفس الشيء عندما تغرق سفينة في البحر، تصنع دويًا وارتباكاً في الماء، وبعد ذلك يسكن البحر، ولا يرى أحد شيئاً بعد ذلك.. ولكن عندما يسقط بطل فإنه يكون مثل واحد من جبال الجليد: أقله على السطح وأكثره في الأعماق.. أو مثل جزيرة أغرقتها أمواج المد، لا بد أن تنحسر هذه الأمواج فتظهر الجزيرة بوديانها وجبالها. وكل الذي أصابها هو أن المياه قد غسلتها والعواصف قد جففتها والشمس قد صبغتها..

حدث ذلك كثيراً في التاريخ. وفي مصر أيضاً.

فعندما مات جمال عبد الناصر، أحس الناس بأنهم يتامى.. وأن أباهم الذي انكسر وانهزم ومرض قد أهين في كبريائه، وأنهم أيضاً أهينوا. ومهما أصابه وجرى له، فهو أبوهم. ومهما انكسرت ذراعه وقطعت ساقه ونقص وزنه وسعره في سوق السياسة، فهو أبوهم الذي عرفوا معه وبه أياماً سعيدة. وعندما قرر عبد الناصر أن يعتزل أفزعهم

ذلك. فقد أحسوا أنه مثل قائد طائرة قرر أن يهبط وحده بالمظلة ويترك الطائرة نعشاً ضالاً في الفضاء.. تماماً كما هدد السادات أو وعد بأن يعتزل.. كان أول الذين أنكروا عليه ذلك نائبه حسني مبارك.. وذهب النائب إلى أبعد من ذلك، فقرر هو أيضاً أن يعتزل مقعده لأنه كان نائباً لرجل واحد، ولا يستطيع أن يكون نائباً لغيره..

وعندما مرض عبد الناصر تساءل العالم: بعد عبد الناصر من؟..

ولم يجد الناس جواباً لذلك. فلم يكن السادات بارزاً إلى جواره. فقد أخفاه جمال عبد الناصر. وضعه في الظل. وقد أساء عبد الناصر فهم السادات. ولأنه أساء فهمه أبقاه إلى جواره غير خائف منه. فعاش أنور السادات أكثر من كل أعضاء مجلس قيادة الثورة، لأنه أقلهم خطراً وأقلهم طموحاً، وأقلهم موهبة - هكذا اعتقد عبد الناصر.. وجاء السادات وأثبت أنه خلافاً لكل الحسابات السوفيتية والأمريكية والمصرية: موهبة فذة ولكن من طراز آخر. وأثبت السادات أن حياته التي طالت في ظل عبد الناصر، لم تكن لهواً وعبثاً وهرباً وسلبية. إنما هو رجل سياسي معروف قبل كل قادة الثورة. وإنه حالم، وإنه خيالي. وإنه يؤمن بعبارة ماوتسي تونج الشهيرة: لا ثورة بغير شعر. أي لا ثورة بغير خيال وإبداع. وكانت ثورة أنور السادات قمة

خيـاله، وكـانت قراراتـه هي الإبداع نفسـه. ولـذلـك كـانت قـرارات جديـدة غير تقليـديـة. وأول المفـردات في قـامـوس السـادات: إن الصـداقـة عمـل مستمـر. وإن العـداوة هي رفض لهذا العمل. ولذلك أعاد صياغـة القامـوس السياسي. فكـانت ثـورة مـايـو، وكـان طـرد السـوفيت، وكـانت حـرب أكتوبر، وكانت مبادرة السلام . .

وأحس النـاس أن السؤال عن خليفـة لعبـد النـاصـر، لـم يكن إلا سؤالاً تقليـدياً يـدل على الخـوف وسـوء الـظن. لأن الإنسان لا يكون له إلا أب واحد مـرة واحدة. ولكن الـزعماء هم آبـاء الشعوب، وهم يتـوارثون الأبـوة ويتوارثـون الأبنـاء. والشعب الـذي أخرج جمـال عبد النـاصر قـادر على إنجـاب السادات . .

ولكننا لـم نتساءل: بعد السادات من؟ . .

لأن السـادات قـد أجـاب عن هـذا السؤال، حين اختـار الرجل الذي يجيء من بعده. وقـد أعد خليفتـه، وأعد نفسـه لهـذا اليوم. فـاختـار حسني مبـارك. ورأى في حسني مبـارك صـورة لنفسه، ولكن أكثـر حيـويـة. أذكـر أن الـرئيس حسني مبارك كان يتحدث من مكتب الرئيس نميـري في الخرطـوم. وكنت جـالساً مـع الزعيم الـراحل. وبعـد أن انتهت مكـالمـة الـرئيس مبارك قـال لي الزعيم الـراحـل: إن حسني يتصـرف مثلي تمـامـاً. فلو كنت في هـذا المـوقـف لفعلت نـفس

الشيء . .

ثم سكت الزعيم الراحل ليقول: أنا لا أستطيع أن أفعل مثله. إنه سافر وكانت له جلسة طويلة. ثم أجاب عن كل الأسئلة، ثم اتخذ قراراً، وسوف يسافر إلى سلطنة عمان. أنا لا أقوى على هذه الجهود الهائلة. حسني يستطيع دائماً! . .

وأذكر أن أحداً من الناس قد تطاول على الرئيس حسني مبارك، وتضايق الزعيم الراحل لذلك. فقال لي: إن حسني يستطيع أن ينسفه في لحظة واحدة، ولكني على يقين من أنه لن يفعل. لأن حسني عاقل وموزون جداً. .

وفي اليوم التالي قابلت الرئيس حسني مبارك، وإذا به يردد نفس كلمات الزعيم الراحل. فقلت له: إنك تقول نفس الكلمات التي سمعتها من الرئيس أمس. .

وكانت دهشته بالغة. وقال: مع أنني لم أتحدث إليه في هذا الموضوع. ولن أتحدث في ذلك! . .

فنحن ـ إذن ـ لم نسأل أنفسنا من الذي يكون بعد السادات. . فقد عرفناه بصفاته البطولية في حرب أكتوبر. وقدمه لنا السادات عندما ألقى عليه أعباء الحكم والسياسة. .

وكان أعنف امتحان للرئيس مبارك هو ما الذي يفعله

بسرعة وبهدوء بعد اغتيال الزعيم الراحل. لقد رأيت الرئيس مبارك في مستشفى المعادي جالساً إلى جوار التليفون يعطي أوامر في كل الاتجاهات. وكان الحزن والهدوء والمرارة هي أهم معالمه. وظل جالساً على الرغم من أنه يعلم تماماً أن الفقيد العظيم في لحظاته الأخيرة..

وقد خرجت السيدة جيهان السادات تطلب أن ترى الرئيس مبارك. وجاء إليها، وسمعتها تقول له: انتهى كل شيء. مصر هي الأبقى. أرجو أن تلتفت إلى مصر. فتجمع وزراءك وتدير شؤون الدولة.. أرجوك..

وكانت كل الخيوط في يده بسرعة. وكان، رغم الحزن والأسى والمفاجأة العنيفة، يواجه التحديات الجديدة. فالإرهابيون يريدون أن يمتحنوه. فكانت حوادث أسيوط وشبرا وغيرهما.. وكانت الاعتداءات المتكررة على رجال الأمن، حتى تسقط هيبة الأمن. وتكون النتيجة السريعة المحتملة التي يصل إليها الناس هي: السادات قتله أحد ضباط الجيش وآخرون، ورجال الأمن قد أهينوا وفضحوا. فلا ثقة في جيش ولا أمن؟! ثم إن هناك فراغاً بعد السادات. فليس أسهل من أن تسقط مصر، وأن يتطاول عليها القذافي والأسد وغيرهما!..

ولكن هذا الامتحان العنيف قد أثبت فيه الرئيس مبارك أنه ليس جديداً على هذه التحديات. وإنه قد جربها وتدرب

عليها. وعندما استعاد الأمن احترامه عند الناس، استرد الشعب شعوره بالأمان. وعندما استمع الناس إلى خطاب الرئيس مبارك وجدوا النبرة الهادئة المليئة القوية. وعندما تهدج صوته ونزلت دمعته، اهتزت قلوب الملايين في مصر، وعندما وعد بالاستمرار والاستقرار استراح المصري والأجنبي والأمريكي والإسرائيلي، وعندما وعد بسيف القانون امتدت الأيدي الشريرة تتلمس أعناقها، وتنفس الملايين راحة واطمئناناً.. وعندما تحدث عن الفساد واستغلال النفوذ، حصل في نفس اللحظة على إجماع شعبي مطلق، فنحن نعرف أن هناك فساداً وانحرافاً وسلبية ورخاوة وطراوة، وتشكيكاً في كل سياسة مصر الاقتصادية، وكل قراراتها التي تتضارب والتي يفزع منها رأس المال. وعندما أعلن أن الانفتاح الاقتصادي خط للدولة، لم يكن ذلك جديداً. ولكن الجديد هو أن الانفتاح يجب أن يخدم الصناعة والإنتاج وليس الاستهلاك الرخيص..

أذكر أنني سألت السفير الياباني في مصر منذ أيام، عن عبقرية الشعب الياباني. وكان جوابه أنه لا توجد عبقرية، إنما توجد مبادىء سهلة آمن بها الناس دون مناقشة. من بين هذه المبادىء أن الدولة تشجع الاستثمار في خدمة الصناعة، وليس في خدمة البناء والمواد الاستهلاكية فقط..

ثم ماذا يحدث إذا اغتيل البطل ولم نعرف الأسباب

الحقيقية لذلك؟ . .

إن قلنا أن هذه إرادة الله، فهذا جواب لا شك فيه . . فالموت كالهواء نشمه فيصيبنا في القلب والرئة والمعدة . . والموت في أجسامنا كالميكروبات تماماً. آمنت بالله . .

فالله قدر أن يموت السادات وأن يكون موته عبرة، أو يجب أن يكون عبرة لنا . .

فما الذي دفع هذا الضابط والجنود المزيفين إلى اغتياله؟ . .

هذه هي القضية. فليس أمراً عابراً اغتيال زعيم بهذه الصورة، وفي ذلك اليوم، وفي ذلك المكان. ولا يمكن أن يكون جواباً صحيحاً أن نقول: إنهم ليسوا إلا أربعة من المواطنين. وهذا عدد قليل. والإجابة صحيحة. ولكن يجب أن نتساءل: ولكن ما الذي استطاعه هذا العدد القليل الفدائي المنظم؟ . . ولا يمكن أن يكون اغتيال الزعيم أمراً تافهاً، لأن الذين اغتالوه أربعة فقط من بين ٤٢ مليوناً من المصريين . . أو من ربع مليون جندي . .

إذن فلا بد من فهم سليم وتحليل دقيق لهذه الجريمة السياسية الاقتصادية الاجتماعية الدينية الوطنية العالمية . .

نحن حين نفكر في هذه القضية نكون عاطفيين. ولأننا كذلك فإن حساباتنا لا تكون دقيقة. فنحن الآن نتأرجح بين

الحزن والخجل ـ الحزن على العظيم الذي فقدناه، والخجل من أن يكون مصرعه برصاصنا في يوم عيدنا وبين أشرف وأكرم رجالنا . .

هل كان الزعيم الراحل يعلم أن حياته في خطر؟ . .

من المؤكد أنه يعلم ذلك؛ لأن تحدياته هائلة. ولأن الأموال المرصودة لاغتياله أضعاف الأموال المرصودة لحمايته. ولأن الاغتيال من ملامح العصر. ولأن مصر أيضاً قد عرفت ذلك. فالرصاص انطلق على زعامات كثيرة: سعد زغلول وأحمد ماهر والنقراشي وحسن البنا وإبراهيم عبد الهادي وجمال عبد الناصر. . وحافظ الأسد وصدام حسين والإمام الصدر والملك فيصل وشاه إيران. . ومن قبل تمزقت قلوب الخلفاء الراشدين: عمر وعثمان وعلي. وبعض الزعماء مثل لينين وتروتسكي وغاندي وبرنادوت وكنيدي والقس مارتن لوثر كينج والمطرب جاك ليمون وريجان والبابا. .

إن الاغتيال أقدم من الموت في التاريخ. فأول إنسان مات على الأرض كان قابيل ابن أبينا آدم عليه السلام. أما القاتل فهو أخوه. وكان الدافع هو الغيرة. ومعنى هذا القتل أن الأخ لا يريد أن يرى أخاه ولا يريد أن يسمعه. ولذلك اختصر وجوده بعنف فقتله. ومنذ ذلك الحين وأحفاد هابيل لا يزالون يمسكون الأحجار والسكاكين والسيوف والرصاص

والقنابل والرسائل المتفجرة . .

أما أسباب ذلك فمختلفة . .

وفي القاهرة تحدث السيد هانس جينشر وزير خارجية ألمانيا إلى السيد كمال علي نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، فروى له أنه كان وزيراً للداخلية. وعلى أيامه ظهرت جماعة بادرمينهوف وغيرها من الجماعات الإرهابية. وقال: إنه مهما اتخذنا من احتياطات فسوف يجد بعض الناس ثغرة ينفذون منها. حدث ذلك كثيراً وسوف يحدث . .

نحن إذن في عصر الجريمة الفلسفية ـ أي أن المجرم يبرر لنفسه هذه الجريمة لأسباب دينية أو سياسية. أو لأسباب نفسية. أو لأنه تقاضى أجراً على ذلك . .

وهم في مصر قد ارتكبوا الجرائم لأسباب سياسية ودينية وإرهابية . . ولا نعرف بالضبط ما هي الأسباب الدينية مثلاً . . وكل ما نعرفه هو أن هذه الجماعات المنحرفة ترى أن دين الله ليس مطبقاً «حرفياً» على حياة الناس. وعلى ذلك فكل حاكم كافر. يجب القضاء عليه. فإذا فعلوا فجزاؤهم الجنة خالدين فيها ونعم أجر العاملين ـ ولذلك اتسمت أعمالهم أحياناً بالجرأة والانتحار . أقول «أحياناً» لأن سلطات الأمن قد وجدت أناساً تستروا تحت اللحى السوداء والتردد على المساجد، وكانوا من اللصوص ومن

أصحاب السوابق! . .

ولا بد من تفسير ذلك بوضوح علمي نشترك جميعاً في فهمه والاقتناع به والبحث عن أسبابه تمهيداً لعلاجه. فبعد الذي حدث لمصر وفي مصر. يجب ألا يكون الأمر سهلاً عابراً! . .

أما الخطأ الذي من الممكن أن نقع فيه، فهو «تهوين» أمر هذه الجريمة. لا من ناحية نتيجتها المروعة، ولكن لأن الذين اشتركوا فيها كانوا قليلي العدد، مع أنه لو كان واحداً فقط لكان شيئاً فظيعاً.

فالذي اغتال كنيدي واحد، والذي اغتال الخلفاء الراشدين واحد. .

أما الخطأ الثاني فهو «تهويل» هذه الجريمة. فيقال أن الجيش كله مسؤول عن هذه الجريمة. لأن القاتل ضابط جيش، وإن الذين شاركوا فيها جنود. وإنهم استطاعوا أن يخدعوا أجهزة كثيرة قبل الوصول إلى مكان الجريمة. وهذا ظلم شديد. لأن فساد ضابط واحد ليس معناه فساد الجيش كله. . كما أن ثمرة فاسدة على شجرة واحدة لا يعني أن الحديقة كلها قد فسدت. . وخطأ مطبعي في هذا المقال لا يعني أن المقال كله بلا معنى، أو أن المجلة كلها لا تمكن قراءتها. .

وخطأ ثالث يمكن أن نقع فيه، هو أن نقول أن الجريمة مستوردة، وإنه لا يوجد مجرم في مصر. وإن الذين دربوا هؤلاء القتلة كانوا من خارج مصر. وعلى ذلك فهؤلاء القتلة قد استأجرتهم دول الرفض أو غيرها على ارتكاب هذه الجريمة.

أما أنه لا توجد جريمة في مصر فليس صحيحاً، فأينما يوجد الإنسان يوجد الشر والخير، ويوجد الاندفاع وضبط النفس، ويوجد الحب والكراهية.. وأما أن هذه الجريمة يمكن تدبيرها في الخارج فهذا صحيح. وأما أنه يمكن تكوينها وترتيبها في مصر فهو ممكن أيضاً..

وقد يقال أيضاً أن القاتل له حساب شخصي مع الزعيم الراحل. وقد تكفل شخصياً بتصفيته. لأن له أخاً متطرفاً معتقلاً. ولكن كيف أقنع الآخرين بأن يموتوا معه من أجل حساب شخصي؟..

ويقال أيضاً أن أمن الرياسة أي حراسة الزعيم الراحل لم تكن على مستوى الموقف الرهيب. وقد نشرت كل وسائل الإعلام العالمية أن أمريكا قد دربت الحراسة الخاصة على مواجهة الجماهير وعلى الاتصالات السريعة وزودتهم بالأسلحة الحديثة. ولا يفهم الأمريكان كيف حدث كل ذلك، أي كيف انطلق الرصاص على الزعيم، وعلى المنصة، ولم يسمع مشاهدو التليفزيون في العالم كله

رصاصاً يرد على المعتدين بسرعة؟ . .

لقد سمعت من سفير أجنبي أنه لم يدر ماذا حدث له، ولكنه وجد فوقه كوماً من اللحم. ولم يعرف كيف يتنفس. وبعد دقيقة فوجىء بأن الذين سقطوا فوقه ولم يطاوعوه في أن يتركوه يتنفس هما الحارسان المكلفان بحمايته! . .

وسمعت من سفير أجنبي أن الأمريكان بعد اغتيال الرئيس كنيدي قد بحثوا في كل شيء وفي كل الظروف وكل الاحتمالات. ولكنهم اكتشفوا بعد ستة شهور أن التحقيق قد فاته أن يتناول التكوين النفسي والعقلي لحراس الرئيس الأمريكي.

وأدخلوهم المصحة العقلية جميعاً. ووجدوا أنهم بلا لياقة جسمية أو نفسية. وإن «رد الفعل» عندهم أبطأ مما يجب. ولذلك فصلوهم جميعاً. فهناك شروط لحراسة الرئيس الأمريكي، من بينها: اللياقة البدنية والنفسية والعقلية . . وألا يدخنوا وألا يشربوا وألا يزيد وزنهم وألا يتعاطوا المنومات ولا المنبهات، وأن يعاد الكشف عليهم كل ثلاثة شهور ـ تماماً كالطيارين! . .

فهل نلوم الزعيم الراحل على أنه كان قدرياً يؤمن بأن الأعمار بيد الله. وأن الحذر لن يحميه من القدر؟ . . من الممكن أن يكون هذا رأيه. ولكن الدولة يجب أن تحميه

لمصلحتها وسلامة مسيرتها. وأن تكون هذه الحماية على الرغم منه. وقد استجاب الزعيم الراحل لذلك في بعض الأحيان. ولكن أحداً لم يستطع أن يفرض عليه الحماية المطلوبة. .

لا بد أن الزعيم الراحل كان يؤمن إيماناً مطلقاً بأنه ليس عدواً لأحد. فقد أدى لبلاده خدمات عظيمة. فأعداؤه وخصومه قليلون وليسوا من المصريين. .

ولا بد أن يكون هذا المعنى قد تأكد عنده بسبب خروجه من سيارة مكشوفة يواجه الملايين. ولم تنطلق عليه رصاصة واحدة. إذن ـ وهذا منطقه طبعاً ـ لا خطر عليه! . .

ولا بد أن يكون الزعيم الراحل قد مضى في هذا المنطق إلى هذه النتيجة: إذا كان الناس لا يطلقون عليه الرصاص في الشوارع، مع أن هذا ممكن جداً، فهل يطلق الجيش الرصاص عليه في العرض العسكري الذي نزع فيه السلاح الحي من كل جندي؟! . .

والجواب: ليس معقولاً . .

وقد يكون هذا المنطق قد انتقل إلى حراسته الخاصة. فآمنوا بما آمن به الزعيم الراحل ـ وهذه هي الغلطة التق وقعت فيها الحراسة الخاصة. لأن الاحتياط واجب. وسوء الظن حكمة! . .

ولجان تقصي الحقائق وتحليلها وصياغتها، لم يتسع وقتها لذلك. فقد تعجلت وأصدرت تشخيصها لما حدث، وافترضت علاجات كثيرة لذلك. وقد قرأت هذه التقارير، وأشرت إليها في هذا المكان، واعترف أنها ليست دقيقة وليست كافية. وعلى ذلك فالقضية ما تزال بلا دراسة ولا تحليل. وهذه الدراسة تسبق كل ما حدث من رصاص وحرائق وضحايا واغتيال للزعيم العظيم أنور السادات . . .

فالرصاص قد انطلق على الزعيم الراحل منذ سنوات، ولكنه لم يصبه إلا يوم ٦ أكتوبر . .

أما الغلطة التي أرجو ألا نقع فيها مطلقاً . . فهي أن نتصور أن الذي حدث هو فقط إخلال بالأمن. أي أننا يجب أن نواجهه بقوات الأمن. صحيح أنه لا بد أن تواجه قوات الأمن كل إخلال وكل إزعاج وكل اعتداء. ولكن هناك فرقاً كبيراً جداً بين وسيلة المواجهة، وبين أسباب ما حدث . . فإذا نشر إنسان مرض الكوليرا، وعرفنا ذلك، فلا يجب أن نواجهه فقط بقوات الأمن لأنه مجرم يريد القضاء على حياة الأبرياء . . وإنما الذي احدث هو مأساة طبية. ولذلك يجب أن يواجهها الأطباء والكيميائيون. وبعد ذلك يجب أن يتدخل علماء النفس والاجتماع ورجال الدين؛ لنعرف ما هي الأسباب التي دفعت هذا المجرم إلى ارتكاب هذه الكارثة القومية؟ . .

إن في خطاب الرئيس حسني مبارك عبارات قوية تدعو إلى أن نطمئن جميعاً فقد صمم على مواجهة هذا العبث بحياة الناس وحرياتهم وصورة مصر.

وهذا ما يجب أن يفعله الرئيس الجديد. وهذا ما يتوقعه الشعب منه. فأمام الرئيس الجديد لدينا شعوران: أحدهما أنه ليس جديداً، فقد كان هناك منذ ست سنوات.. وفي نفس الوقت نشعر أن أسلوبه سوف يكون مختلفاً..

وإذا كانت الأيدي التي تمسك المسدسات والقنابل قد توارت.. فنحن لا نعرف متى تظهر بعد ذلك، ولا أحد ـ الآن ـ يستطيع أن يتخيل ما الذي كان في مصر لو أن جمال عبد الناصر قد اغتيل سنة ١٩٥٤ ـ أي بعد عامين من ثورة يوليو؟!..

ولا أظن أن أحداً يسعدني إذا قال لي: إن ما حدث بشع.. ولكن المرتكبين لا يزيدون عن أصابع اليد الواحدة...

ولا أظن أن أحداً يشقيني إذا قال لي: إن الذي رأيناه كان من فعل يد واحدة ولكن الأيدي وراء الظهور في الظلام كثيرة وكلها تتربص!.

إنها حقيقة مرة ومفزعة. ولكنني أفضل الحقيقة التي

وليس الزعيم الراحل وحيداً بين الزعماء الذين يؤمنون بذلك إيماناً مطلقاً. إنهم جميعاً سواء. فهم قد هيأوا أنفسهم لأخطر النتائج ولكن وسط الحفاوة والسعادة، ينسون ذلك. وهذه هي الثقة المطلقة في النفس وفي الناس، هي بداية المأساة في حياة الزعماء!

وهذا طبيعي في سلوك الزعماء الكبار، فآراؤهم في أنفسهم وفي الناس من الممكن أن تكون قاتلة.. وكما يكون الظل عميقاً.. وقد كان!

ولذلك فإن عالماً فلكياً مثل جاليليو لا يصلح أن يكون زعيماً أو على رأس الفاتيكان: لماذا؟ لأن هذا العالم الكبير عندما رأى البقع السوداء في الشمس قال: إنها في الشمس. وقال الناس: بل في عينيك..

ولكنه لم يخدع نفسه، وأصر على أن يقول إنها في الشمس. وأصرت الكنيسة والدولة على أن هذه البقع في عينيه هو. وأنه لذلك يستحق الموت.

وهذا العالم الفلكي الإيطالي جاليليو لا يكون زعيماً سياسياً أو دينياً؛ لأنه لا يستطيع أن يخفي الحقيقة في عبارة ناعمة جملة. يخفيها عن نفسه قبل أن يخفيها عن الناس.

أما زعماء السياسة والدين فقادرون على ذلك. والثمن: حياتهم!..

وأعتقد أن الزعيم الراحل كان يؤمن تماماً بأن «الفتنة» التي حدثت في مصر لم تكن بهذه الخطورة! . إنما الزعيم هو الذي سبق الأحداث وخشي أن تكون أوسع وأعمق وأن تشوه صورة مصر عندنا وعند غيرنا. وعلى الرغم من أن الزعيم الراحل قد اتخذ إجراءات قوية فإن هذه الإجراءات لم تكن لمواجهة ما حدث، إنما لمواجهة ما قد يحدث. . ولذلك فإنه وضع الفتنة الدينية والسياسية في سلة واحدة. ولو كانت الفتنة وحدها كبيرة في حسابه. لا نفرد بها وعالجها. ولكن الزعيم الراحل يم يرها كذلك.

فهل نحن بعد هذا الذي حدث، قد فهمنا بوضوح ما جرى؟ . .

هل التقارير التي أصدرها مجلسا الشعب والشورى بعد تقصي الحقائق، تحليل دقيق وسليم لما حدث - حتى لا يتكرر وحتى لا تكون نتيجته أعنف وأفدح؟

إن لجان تقصي الحقائق حسنة النية لا شك. ولكن رسولنا عليه السلام قد حذرنا من الاكتفاء بحسن النية في معالجة حياتنا اليومية، فقال: إن الطريق إلى النار محفوف بالنيات الطيبة . .

فالنية لا تكفي لمواجهة مرض، وإذا كانت تكفي لتشخيصه، فإنها ليست كافية لعلاجه وشفائه . .

توجعني على الأكذوبة التي توجع قلب مصر.

لقد فقدنا زعيمين في أحد عشر عاماً. ويجب أن نحرص على ما أعطانا الله ووهبنا من قيادة صالحة. نرجو لها عمراً مديداً ومستقبلاً سعيداً..

لأنهم لا يأكلون
دقيق القمح !

فى العدد الأول من مجلة ـ « أكتوبر » ـ ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٦ ـ كان مقالى بعنوان : تعالو نصنع مستقبل مصر.

ومن السطر الأول قلت: إذا سار اثنان في طريق واحد، واختار أحدهما جانب الظل، والآخر اختار ضياء الشمس. فالذي سار في النور: شاب.. «لأن الشباب يبحث عن النور ليرى أوضح، ونراه نحن أيضاً. والبلد الذي يملك ثروة من الشباب: بلد قد ضمن الحياة والحيوية والمستقبل. فالشباب أوصياء على العرش، أولياء العهد، كنور من ذهب. عيونهم نجوم الغد. قلوبهم توربينات الثورة والثروة..

«وليس صحيحاً أن كل ما صنعناه هو الهزيمة ، وأن الماضي كله أسود، وأن الحاضر كله أبيض، والمستقبل أكثر لمعاناً. فلا نحن آباء الهزيمة، ولا الشباب أبناء النصر، ولكن التاريخ كله شركة. ونحن جميعاً أطراف النزاع. نحن جميعاً القاضي والمتلهم والجريمة. ولا أحد بريء! ولا أحد يتفرج على أحد. إنما نحن جميعاً

أشخاص مسرحية واحدة ومؤلفوها والمتفرجون عليها. ولذلك يجب أن نعمل معاً، على إكمال ما بدأنا، وتقويم ما التوى في أيدينا، وما التوت به أيدينا. ولكن من الذي يقول لمن: اعمل فلا وقت للتثاؤب؟.. ومن الذي يقول: انهض كفانا نوماً؟.. ومن الذي يقول للشباب: انتهى اللعب وبدأ العمل.. أو تحقق الأمل، فليكن أمل جديد؟..

«لا أحد يقولها لأحد. إنما نقولها معاً: كباراً وصغاراً. أبناء الأمس وأحفاد الغد. فالقضية واحدة. عندنا حياة وحيوية. ويجب أن تكون لدينا خطة. وتكون الخطة مثل أشرطة السكك الحديدية. مثبتة متينة متجهة إلى المستقبل. يجب أن نفرز قواعد العمل وأصول النجاح. تماماً كما تفرز دودة القز حريرها وسريرها..

«فما هو المطلوب؟.. المطلوب هو أن نقترب من ١٥ مليوناً من شباب مصر.. تصور أن في مصر أطفالاً، أي شباب الغد، وشباباً أي رجال اليوم، يبلغون هذا العدد العظيم.. تصور هذه الأعواد الخضراء، هذه الزهرات اليانعة.. كلها يجب أن نرويها وننتظر.. يجب أن نهب عليها نسيماً منعشاً وننتظر.. يجب ألا تتحول أيدينا حولهم إلى ديدان قطن.. يجب ألا تكون كلماتنا بينهم مبيدات حشرية، تأكل الدود واللوز والورق..

«ولذلك: يجب أن نقترب منهم في حنان الأم وحب

الأب. ولكن ليس بالحب وحده والحنـان وحده ينمـو الأطفال وتزهر النبـاتات، إنمـا بالحب المضيء ـ أي بـالعلم والتربيـة الوطنية والأخلاقية.

فمن أين نبـدأ؟ إن كل نقـطة مهما اختلفنـا أمـامهـا، من الممكن أن تكون البداية.. إلخ إلخ»..

ولست في حـاجـة إلى أن أذكـر الأسبـاب التي دفعتني إلى الاهتمـام الشـديـد بـالشبـاب أو القلق عليـه. فهـذا خط على جبيني. وأحـد همـومي العـريقـة. وقضيـة لم أنتـه إلى حكم نهـائي فيها. وكثيـراً مـا تـوهمت أنني وجـدت الحـل. وكثيراً ما وجـدت أن من الضروري أن أستـأنف الحكم. وقد جـاءت حيثيـات الحكم لقضيـة القلق والخـوف والعنف في أكثـر من ستين كتـابـاً بقلمي، وفي عشـرات الألـوف من المقالات. إنها ـ إذن ـ مشكلة لم أصل فيها إلى حل.

هـل سبب ذلـك أنني عـرفت قلق الشبـاب ولم أستـرح بعـد؟.. نعم. هـل لأنني اشتغلت بـالتـدريس في الجـامعـة وعرفت من ويلات الشبـاب ما لم أكن أعـرف؟.. نعم. هل لأنني كنت شاباً، وكـانت لي عشرات الرؤوس فـوق كتفي، وعشـرات القلوب بين جـوانحي، فتحيـرت بين المـذاهب الفلسفية والدينيـة، ثم فتحت نوافـذ برأسي، وضـربت أبوابـاً بقـدمي. فارتـدت الأبواب في وجهي جـدرانـاً من الرفـض، وتساقطت الأسقف على رأسي صلباناً من الهوان؟.. نعم.

ولا يمكن إلا أن أكـون قـريبـاً من الشباب لعلي أفهم ولعلنا.

وليس الذي عانيناه بالأمس، منـذ انطلق الـرصاص على النقراشي باشا وجمال عبـد الناصر، إلا «سوء فهم» أدى إلى «أزمة تفاهم».. لأن الذي حاولناه قليل، والذي فهمناه قليـل جـداً. وألقينـا بكـل شيء وراءنـا وعلى أكتـاف الآخـرين. وانشغلنا ونسينا. ولكن آخرين من أبنائنـا لم ينسوا. فقضيتهم لم تنحسم، ومشكلتهم لم تجـد حـلاً. واتسعت المسـافـات بين الصغار والكبار. ورمينا بالوحل كـل وجه. وألقينـا الشوك في كل طريق. وطاشت أيدينـا تشير بـالاتهام في كـل اتجاه. وهكـذا ملأنـا شوارع مصـر وبيوتهـا بالمتهمين والهـاربين من العـدالة.. ولم نعـد نعرف من هـو الجاني على من؟ ووقفنـا عند ذلك، ورفعنا الجلسة لكي تنطق بالحكم بعد المداولـة. ولم ننطق بالحكم حتى الآن.

فما الذي حدث؟ أو ما الذي لم يحدث؟

إننا لم نفهم بدرجـة كافيـة. ولذلـك كان من الصعب أن نصحـح أخطاءنـا. لأننا لم نـر الخطأ. فكيف نصحـح مـا لا نـراه. أو مالا نـريد أن نـراه؟!.. هذه هي قضيـة القضـايـا: الأمس واليوم وغداً وبعد غد..

ونحن الآن أمـام أعمـال عنيفـة قـام بهـا شبـان من أبنـاء

الطبقة المتوسطة، أي الذين يعيشون على الحافة بين الفقر والأمل في التخلص منه. وعلى مرأى من الأغنياء جداً أصحاب الثروات الاستفزازية.. أي الذين فتح عليهم «الانفتاح الاقتصادي» كل أبواب السماء ذهباً وفضة، وأبواب الأرض غضباً وحسداً.

ولأنهم شبان فهم مثاليون. ولأنهم شبان فهم مندفعون. ولأنهم شبان فهم متعصبون.

فهم مثاليون، لأنهم يرون أنفسهم رهائن الوضع الراهن. وهم لذلك ساخطون على قيودهم. يريدون أن يتحرروا منها. فإذا تحرروا تحرر المجتمع أيضاً. وهم لا يصبرون على ذلك، فليس من صفات الشباب أن يصبر كثيراً. إنه يتعجل الحل. ويرى أنه لا حلول أخرى إلا التي يراها. وكل الحلول الأخرى كافرة. وهو يتعصب لرأيه. ويرى أنه على حق وأن غيره على باطل. وإنه وحده الذي يجب أن يغير الدنيا بالرصاص، ولذلك يطلق الرصاص في كل اتجاه. ونحو الهدف الذي يريد. وهو يعلم أن قوات الأمن التي هي أقوى منه، هي أضعف أيضاً. لأنها لا تستطيع أن تحمي أقوى الحكام من مواطن واحد مجهول قرر أن يغتاله!.. ولأن قوات الأمن لا تستطيع أن تطلق الرصاص في كل اتجاه، فتصيب الأبرياء وهي تحاول أن تمسك إرهابياً واحداً. ولا تستطيع أن تنسف بيتاً أو قطاراً

من أجل الإيقاع بمجرم واحد. بينما المجرم يفعل ذلك بسهولة!

وفي سنة ١٩٧٣ وحدها كانت حوادث الإرهاب قد بلغت ٢٢١ حادثاً. أكثرها في أوروبا وأمريكا و٤٧ فقط في بلاد العالم الثالث. كما أن أهم حوادث الإرهاب في المائة العام الماضية كانت فردية. فالرؤساء ماكنللي وكارنو وكنيدي والزعيم غاندي اغتالهم أشخاص لا ينتسبون إلى جماعات أو منظمات أو حركات تحرير وطنية أو عالمية.. وقد أثبت اغتيال هؤلاء العظماء قدرة الأفراد على النيل من أقوى الأقوياء، وعجز أجهزة الأمن كلها عن التنبؤ بذلك أو منعه قبل وقوعه.

وأمام إرهاب الجماعات السياسية والدينية نجد أننا أمام ثلاث نوعيات من الناس. النوع الأول: هو المؤمن بدين أو مذهب. ولكنه في نفس الوقت يرى أن هناك مذاهب أخرى متعددة مختلفة. وأنه استراح إلى واحد منها. وأن من الممكن أن يأخذ من التجارب الإنسانية العريضة تدعيماً وتأصيلاً لمذهبه السياسي. ومعنى ذلك أنه يرى أن دينه ليس هو الدين الوحيد. وأن مذهبه السياسي ليس الثمرة الوحيدة على شجرة التجربة الاجتماعية..

وأرى أن هذا شاب معتدل متوازن. وأنه اختار الموقف الصعب. لأنه اختار بيتاً متعدد الأبواب والنوافذ. وأنه اختار

الكثير من الضوء، والشديد من الهواء، والعديد من الزوار.

والنوع الثاني: هو المتعصب، أي الذي يؤمن بمذهب في الدين أو في السياسة، ويمسكه كما يمسك سمك القرش فريسته لا يتركه إلا بالموت. ويرى أن مذهبه هو المذهب. وأن دينه هو الدين، وأن الطريق إلى الجنة طريقه هو. وأن النار ملتقى كل المخالفين له، وأن في الدنيا حديقة واحدة. وفي هذه الحديقة شجرة واحدة. وعلى هذه الشجرة ثمرة واحدة. وأنه صاحب هذه الثمرة. وإذا كانت للآخرين حدائق فهي أرض خراب. وإذا كانت لهم أشجار فبلا أزهار ولا ثمار. وأنه كالذي اختار بيتاً له مدخل واحد ونافذة واحدة. وهو يقف وراء الباب متربصاً، فكل من يحاول أن يدخل فهو لص. وكل من يحاول أن يقترب فهو جاسوس. وهو قد اتخذ موقفاً معادياً من كل الناس. دون أن يدري أنه هو نفسه يقف في مقدمة أعدائه.

وهذا أسهل الأوضاع وأسوأها أيضاً، فقد ضاق أفقه. واختنق عقله. فأصبح رأسه مثل عين الإبرة لا تتسع إلا لخيط واحد. وهو أيضاً قد أصيب بعمى الألوان. فلا يرى إلا لوناً واحداً، هو لونه السياسي أو الديني، ولذلك يجب أن يرى كل الذين مثله قد اتخذوا علامات تميزهم عن الناس. أي يجب أن يختلفوا بوضوح. فتكون لهم اللحية. أو يكون لهم القميص الأسود أو الرمادي أو الأزرق. أما

الـذين بـلا عـلامـات تميـزهم فـلا وجــود لهم، أو ينبغي ألا يكون لهم وجوداً . .

والنـوع الثالث: هـو الإرهابي أي الـذي آمن بأن مـذهبه في الدين والسياسةواحد لا شريك لـه، وأن من واجبه هـو أن يفــرض هـذا الــرأي بـالــرصـاص. أي أنــه إنســان رفض الأوضاع. ويريد أن يغيرهـا بسرعـة. وألا ينتظر التـاريخ حتى يفعل ذلك. لأنه قادر على أن يغيـر التاريـخ بنفسه، أو بعـدد قليل من المؤمنين بدينه ومذهبـه السياسي، وهؤلاء هم الـذين يسمـونهم «فلاسفـة القنبلة» أي الـذين استقـرت في رؤوسهم أفكـار ثابتـة متماسكـة منسقـة، وامتـلأت أيـديهم بـالقنـابـل والرصاص.

وليس من المـروري أن يكـون الـواحـد من هؤلاء فقيـراً ليكـون ساخـطاً. لأن السخط هو غضب في مـواجهة وضـع. فمن الممكن أن يغضب الغني كمــا يغضب الفقيــر. وليس من الضـروري أن يكون الساخط مريضـاً عقلياً أو نفسيـاً. وإلا كـانت كـل الأوضـاع الخـاطئـة خـاطئـة لعيوب في النـاس، وليست لعيـوب في الأوضـاع. . فنحن لا نقـول أن الشـوارع امتـلأت بـالمـطبـات لأن هنــاك مـطبــات عقليـة في رؤوس النـاس. . وإلا رجعنا مـرة أخرى إلى العصـور الوسـطى التي اتهمت العالم الفلكي جاليليو بوجـود بقع سـوداء على عينيه، لأنــه رأى بقعـاً سـوداء في قـرص الشمس. . فــالسـواد في

عينيه، وليس في الشمس!!

وإنما هناك قدر من الشعور بخيبة الأمل في كل عصر. وخيبة الأمل سببها أن الناس يريدون الكثير، فلا يحصلون إلا على القليل. فيكون سخطهم نتيجة لشعورهم بالفشل. .

وهذا الشعور يلازم الإنسان في كل مراحل حياته ـ والشباب خصوصاً.

فالذي يتمناه كثير. والذي يقدر عليه قليل. وفجأة يشعر الشاب: أن الحيوية لا ثمن لها. وأن التعليم لا معنى له. وأن الذكاء لا سعر له. . فليس الإنسان في حاجة إلى كل هذه المؤهلات ليكون غنياً أو قوياً. فبين الأغنياء مرضى. وبين الأقوياء لصوص!

ويزداد شعور الشبان بالقلق في المجتمعات غير المستقرة. تماماً كما يمشي أحد الركاب على ظهر سفينة في بحر هائج. هو يهتز والسفينة تهتز.

وربما كان عدم الشعور بالاستقرار عند الشبان أكثر في المجتمعات التي تتغير ببطء. فالمجتمع الذي يتغير ببطء يهتز. ولكن المجتمع الذي يتغير بعنف، يثبت بعنف أيضاً.

والناس يقلقون في مجتمعات السلام أكثر من قلقهم في مجتمعات التعبئة الحربية. فأثناء الحروب تقل الجرائم وترتفع نسبة الزواج. فالمجتمع كله قد ذاب في صيغة

واحدة، وهدف واحد. وتقارب الناس أكثر. وأحس الناس بالموت يهدد الجميع، فأقبل الناس على الحياة، كآخر تحدياتهم للضياع والفناء. فارتفعت نسبة الزواج.

ولم يكن من الصدف أننا عندما كنا نرفع أنقاض البيوت بعد الغارات الجوية، نجد الأزواج متعانقين تحت التراب. .

بينما في ظل السلام يتباعد الناس، ويتراخى المجتمع، وتظهر الخلافات وترتفع نسبة الطلاق. . ويزداد الشعور بالقلق، وتقوى الرغبة في الانطلاق بعد الكبت الشديد أثناء الحرب وبعد قيود الطعام والشراب والحركة والإضاءة. . وتقوى النزعات الفردية. . وفجأة يقفز الشعور بالندم على الذي كان. ومن الشعور بالندم يتولد الشعور باتهام الآخرين بأسباب الهزيمة والنكسة والعار القومي. وتنبت للأيدي أصابع، وللأصابع مخالب. ويكون لها شكل المسدسات. والهدف واحد: الأوضاع الراهنة!

وفي كل مرة يكون القمع صغيراً أو متواضعاً، يكون التحدي له أكبر. فالمجتمع الذي يواجه العنف بتوجيه اللوم، مجتمع لا يعرف معنى الحركات «التحتية» للغضب وينابيع الثورة التي تتوارى تحت الأرض، إلى أن تجد نقطة ضعيفة في الأرض فتتفجر كالينابيع أو كالبراكين والزلازل. .

ثم إن القمع الصغير يؤكد جهل الدولة بحجم

الغضب. . وهـذا الجهل يغـري الغاضبين بمـزيد من التحفـز والتربص. . ثم إن هذا القمـع الصغير يكشف الـدولة. . لأن الغاضبين لـم يكونـوا يعرفـون بوضـوح رد فعل قـوات الأمن، فكلما كان القمـع صغيراً، جـاء ذلك دليـلاً على أن هذا هـو الحـد الأقصى. أو الإجـراء الأعنف. . أو آخـر مـا في قـدرة الدولة أن تفعله!

إذن لقـد انكشفت الـدولـة، وهـان أمــرهـا على هؤلاء السـاخطين. ثم إن هؤلاء السـاخطين المتعلمين قـد اختبـروا أجهزة الدولة وامتحنوها، ورصدوا عيوبها وعرفوا مـداخلها. . فـلا تجـانس ولا وحـدة بين كـل أفـراد أجهـزة الأمن. بينمـا «الإرهابيون» لهم خـطة واحدة وهـدف واحد وعقيـدة واحدة. فهم أكثر تماسكاً وأشد تقارباً. ولا تزال نصيحة الحكيم بـوذا أعظم نصائـح العنف، وإن لم يقصد ذلـك. فقد وجـد عدداً من تـلامذتـه يثقبون جبـلاً في عشرين مـوضعاً مختلفـاً. كـل واحــد منهم أمســك مسمــاراً وراح يحفــر في جــانب مـن الجبل، فضحك قـائلاً: بـل اجعلوا المسامير واحداً. ودقـوا على رأسه معاً!

ولم يكـون بوذا رسـول السـلام النفسي يعـرف أنـه قـدم نصيحـة خالـدة لكـل المنـظمـات الإرهـابيـة في العـالم: أن يتحـدوا حـول مسمـار واحد ليـدقـوا رأسـه في وقت واحـد. . فذلك: أوجع وأوقع!

وكذلك فعلوا ويفعلون.

ولكن لماذا؟

هذا هو سؤال الأمس الذي بقي بغير جواب.. وسؤال اليوم الذي ننتظر الإجابة عنه، وليس أسهل من هذا السؤال، ولا من أي سؤال، وكلما كان السؤال سهلاً كان الجواب صعباً. مثل: كم عدد النجوم في السماء؟ كم عدد المرات التي ذكر فيها الإرهابيون اسم الله منذ ولادتهم حتى اعتقالهم؟

لقد أدت حرب فيتنام إلى قلق في شباب الشعب الأمريكي. هذا القلق اتخذ شكل التمرد على الأسرة والمصنع والدين والدولة. ورأى بعض الشبان أن الفرار من الخدمة العسكرية شرف عظيم. لأن الدولة لم تستشرهم في دخولها فيتنام وضربها بالقنابل الميكروبية وإبادتها للإنسان والحيوان والنبات. ورأى شبان آخرون أن المجتمع الذي أخرج قادة هذه الحرب مجتمع متوحش. ولذلك انسحبوا من حياة المدن إلى حياة الخيام والكهوف. وأنكروا حق المجتمع في أن يفرض عليهم مبادىء الدين وقواعد الزواج والطلاق.. وشبان آخرون رأوا أن المجتمع الذي ليس إلا مصنعاً للذخيرة يقتل بها الآخرين وأبناءه أيضاً، مجتمع يجب أن يذهب. ولما كانوا أضعف من هذا المجتمع، فهم غير قادرين على هدمه.. ولكنهم قادرون فقط على أن

«يغيبوا عنه». فتعاطوا المخدرات وأقراص الهلوسة، وعاشوا غائبين: هم غائبون عنه، والمجتمع غائب عنهم. .

واجتمع ٨٦٠ أستاذاً من علماء السياسة وعلم النفس السياسي و «علم نفس الصراع» ـ وهو أحدث المذاهب الفكرية في دراسة الإنسان في العصر الحديث. وكان سؤالهم: ولكن كل هذا لماذا؟

واختلفوا واتفقوا. وما زالوا مختلفين حول الأسباب التي أدت لهذا الاضطراب بين أبناء أغنى وأقوى دولة في العالم. فهل كان هذا الاضطراب كامناً في بطن المجتمع الأمريكي، فجاءت حرب فيتنام فأظهرته على السطح؟ . . هل السخط بين الملونين والسود والمتعطلين في أمريكا قد شجع غيرهم من الشبان على ذلك؟ . . هل العدوى انتقلت إلى أمريكا من القارات الأخرى؟ . . هل لأن أمريكا التي لم تعرف إلا الحرب خارج حدودها، كان لا بد أن تعرفها على أرضها وتحت أرضها، وبين أبنائها، وإن هذه قاعدة نفسية، وظاهرة تاريخية؟

والإجابات كثيرة جداً. وهذا طبيعي. ولكن المهم هو: أن العلماء الأمريكان قد اتخذوا موقفاً جاداً من ظاهرة واردة عليهم، أو صادرة عنهم. . هذا هو الموقف. وهذا هو القرار. وهذا هو العلاج أو هو الطريق إليه.

وقبل ذلك حاول العالم الإيطالي شيزاره لمبروزو أن

يفسر للقرن التاسع، ولنا أيضاً، أسباب هذا الاضطراب الوطني والإرهاب العالمي. فاتجه إلى الصفات الوراثية في الأسرة. واتجه أيضاً إلى الملامح الجسمية، وخاصة قسمات الوجه.

ولكن أطرف ما اهتدى إليه هو أن معظم أعمال العنف كانت في دول أوروبا الشرقية. ولم يجد تشابهاً بين أبناء هذه الدول لا في الوجه ولا في الطبقة ولا في اللغة ولا في المقومات التاريخية، ولكن وجد سبباً وحيداً اقتنع به، هو أن هذه الشعوب تعاني نقصاً في الفيتامين. وأن بعض الثوار والإرهابيين كانوا مصابين بالبلاجرا.. (والقاموس الطبي لعلي محمود عويضة يعرف هذا المرض: بأنه خشونة في الجلد بسبب نقص فيتامين ب).

ولكن لماذا يعانون من هذا النقص؟ كانت إجابة لمبروزو أنهم أبناء شعوب تأكل الذرة ولا تأكل دقيق القمح؟!.

فأدت خشونة بشرتهم إلى خشونة أيديهم وطباعهم، واختلال ميزان الحيوية في أجسامهم وعقولهم أيضاً!

ولم يضحك أحد لهذا التفسير في ذلك الوقت. بل إن أحد القياصرة الروس قد أمر بمضاعفة تناول عجائن القمح في القصر وعند كل الأمراء. وراح يتجسس عليهم، فإذا عرف أن أحداً، بسبب الإمساك، قد امتنع عن تناول القمح

هـدده بالـطرد أو بالسجن. . لأن الامتناع عن أكل دقيق القمح هو استعداد للقيام بعمل إرهابي ضد القيصر!

وكل ما أرجو من أبناء وطني ألا يـذهبوا في تفسير وتحليل وتشخيص هذا الـذي جرى في مصر، على أنه نقص في تناول الأطعمة المستوردة، أو لأن أمواس الحلاقة قد ارتفع ثمنها، فأطلق الشبان لحاهم. . وإذا اقتنع أحد بذلك فليضع إلى جانب الأمواس: ارتفاع تكاليف المعيشة والشقق التمليك والمفروشة والدروس الخصوصية في الجامعات. .

وإلى جانب ذلك أرجو أن يضاف هذا السؤال: وهل أنور السادات مسؤول عن اغتياله بسبب القرارات التي حولت المجتمع سياسياً واجتماعياً إلى مسار آخر؟

ثم هذا السؤال الأخير: وهل هو أيضاً المسؤول عن نكسة سنة ١٩٦٧ والشعور بالهوان القومي والعار الوطني وخيبة أمل الشباب في سقوط بطلهم جمال عبد الناصر؟

ولا يمكن أن تكون أمواس الحلاقة قد انخفضت أسعارها فجأة لأن عشرات الألوف من الشبان قد حلقوا لحاهم. ولا أن الماء في الحنفيات قد تدفق لأن ألوف الفتيات قد أسفرن عن وجوههن. ولكن أمراً ما قد صدر بأن «يكمن» هؤلاء الشبان. . وأن يزيلوا ما يتميزون به عن غيرهم. وفي ذلك إخفاء لهم و «كمون» بينهم. لماذا؟ هذا

ما لا نعرف. وما يجب أن نعرف. وعندنا وقت لذلك، بل من الضروري أن يتسع الوقت للفهم. ثم للتحليل والتفسير والتقارب والتقريب والحوار. فالذين أفزعونا مصريون، والذين أغضبوهم مصريون. ومن أجل مصر نسالم أعداءنا، وننتظر أشقاءنا.. فكيف لا نحتوي أبناءنا؟!

«يا سيدي تكلم حتى أراك!»

نحن في عصر «سبق الإصرار والترصد» - أي في عصر الجريمة الكاملة. يقوم بها فرد أو عدد من الأفراد. أما سبب ذلك فهو أن واحداً، أو أكثر، قد قرر أن يقول: لا. .

لا. . للدولة. . للنظام القائم. أو القيم الأخلاقية أو الاجتماعية السائدة. وعندما قال: لا. . فقد أصبحت هذه الكلمة نوعاً من الحدود بينه وبين غيره من الناس، هو هنا. . وهم هناك، ولكنه لا يقول: لا. . دائماً. إنما يقول: نعم. . إذا كان المقصود هو ما يخصه أو ما ينفعه أو يؤيد وجهة نظره.

والذي يهمنا ليس هو القاتل العادي، أي الذي يقتل للانتقام الشخصي أو للحصول على ثروة. . إنما الذي يعنينا هو القاتل صاحب النظرية. . صاحب الرأي في السياسة أو في الدين. أو الذي أطلق عليه الفلاسفة الوجوديون من ثلاثين عاماً: إنه الفيلسوف صاحب القنبلة. فهو يرفض وضعاً. ويعمل على هدمه بنفسه. وينتظر حكم القضاء عليه. فهو لا يقتل ويهرب. إنما يقتل ويعلم أنه سوف

يموت. وإن جثته سوف تتدحرج على جثة ضحيته، ليكون في وجودهما معاً: الجريمة والعقاب. القاتل والقتيل.. أي أن الفيلسوف صاحب القنبلة يريد أن يحقق لنفسه المساواة في أعلى درجات العدل العنيف!

وجريمة العصر موجهة ضد الدولة. لأن الدولة أقوى من الفرد، وأقوى من المجتمع، فالدولة ذات القوة المطلقة هي التي استفزت الأفراد والجماعات. وأطالت لسانهم وسلاحهم لكي يقولوا لها: لا ـ مهما كان الثمن.

فثورة فرنسا سنة ١٧٨٩ قد أتت بنابليون.. وثورة ١٨٤٨ جاءت بنابليون الثالث.. وثورة ١٩١٧ قد أفرزت لينين. واضطرابات العشرينات قد جاءت بموسوليني.. وجمهورية فيمار قد أظهرت هتلر.

وإذا كانت الثورة الفرنسية قد شنقت الملك، فهي لم تكن تريد أن تقتل ملكاً.. شخصاً رفيع المقام. إنما أرادت أن تقضي على مبدأ أن الملوك يحكمون بتفويض من السماء. ولكن جاء بعد ذلك ملوك وحكام أعادوا نظرية «التفويض الإلهي». فكان لا بد من السخط عليهم مرة أخرى.. ولكن الملوك والحكام قد خلعوا تاج السماء من فوق رؤوسهم، ووضعوه على رأس الدولة. فهي تحكم بالتفويض الإلهي.. ولذلك كانت الثورة على الدولة الحديثة. أو التمرد ضدها، أو الغضب منها، أو إرهابها،

تحقق أهدافاً كثيرة في وقت واحد: فهي ضد الدولة القوية التي ابتلعت كل إنسانية الفرد، وهي أيضاً ضد القوة المقدسة للدولة أو للفرد، ثم إنها مناسبة ليجرب الأفراد قدرتهم على القتل والاستشهاد برصاصة واحدة. .

وجريمة العصر الحديث هي التي اتفقنا على أن نسميها: «الإرهاب» أي استخدام سلاح الخوف ضد الآخرين. أو ضد الدولة. بقصد أن يحقق الإرهاب هدفاً سياسياً أو دينياً.

ولم نقرأ عن هذه الكلمة في الموسوعات الفلسفية إلا في القرن الثامن عشر. . أي عندما «يحاول فرد أو أكثر أن يخيف الآخرين بسلاحه أو بجرأته الدموية». وقد أطلقت كلمة الإرهاب، أو حكم الإرهاب والخوف، على بعض سنوات الثورة الفرنسية. . ثم انتقلت هذه الكلمة من القرن الثامن عشر، واستقرت في القرن التاسع عشر، واستمرت إلى يومنا هذا. وهذا هو «الإرهاب من تحت». أي من الأفراد في اتجاه الملك أو الحاكم أو مؤسسات الدولة. . ولكن الإرهاب من فوق هو الذي كان يرتكبه الملوك ضد الملوك وخصومهم السياسيين. . أو ضد الشعب نفسه.

وقد اختفى الإرهاب من فوق. فلم يعد الاغتيال هو الوسيلة الوحيدة للاتيان بملك بدلاً من ملك، أو رئيس بدلاً

من رئيس آخــر. . ولكن الإرهـاب من تحت هــو أقـدم مـا عـرفنا. فـالمؤرخ اليهودي يـوسيفـوس يحـدثنـا عن جمـاعـة «السيـافين» أو حملة السيـوف». عـاشـوا في فلسـطين (٦٦ - ٧٣ م). وكانوا يهـاجمون خصـومهم نهاراً. ولكنهم يحتمـون في الجمـاهير. ولـذلـك كـانـوا يختـارون أيـام الأعيـاد حيث الناس كثيرون. وحيث الزحام شـديد. والـزحام يتستـر عليهم كما لو كـان ليلاً قـاتماً. فـلا أحد يعـرف من هو القـاتل، ولا أين ذهب إذا عـرفـه. وكـان القتلة يمسكـون سيـوفـاً قصيـرة يخفونها وراء ظهورهم. وقد هدموا قصوراً، وأحرقـوا الوثـائق الـرسمية، وسـدوا مـوارد الميـاه. . وكـانـوا يؤمنـون بنـظريـة اسمهـا: «الفلسفـة الـرابعـة»، وكـان رأيهم أن الله لا يحتـاج إلى واسـطة رجـل الـدين، فكـل رجـال الـدين كفـرة، وكـل أمـاكن العبـادة ينبغي هــدمهـا. فمن الممكن عبــادة الله في الأرض البور.

والمؤرخ يـوسيفـوس يقـول إنهم جمـاعــة من اللصـوص والنصـابين. فلا هم مؤمنـون بـإلـه أو دين. إنمـا هم تستـروا وراء الـدين. ثم إنهم عمـلاء يتقـاضـون أجـورهم من دول أجنبية. فالدين والحرية والإصلاح مسوح كاذبة. . !

وعنـدما طـاردتهم الدولـة اختفوا في الجبـال والكهوف. وبعضهم هرب إلى مصر!

ولم نعـرف مـزيجـاً معقـداً من الـدين والسيـاسـة إلا في

جماعة «الحشاشين» ـ والفرنسيـون أول من أطلق عليهم لقب «الأسـاسان». . أي القتلة ـ وكـان الحشاشـون يقتلون، ابتداء من القـرن الحـادي عشـر حتى أوائـل القـرن الثـالث عشـر. وكـانت لهم بيوت وكهـوف. وكـانت لهم جبـال أيضـاً. وهم من الشيعـة. وأشهر رجـالهم «شيـخ الجبـل» وهـو «سيـدهم» الحسن بن علي بن محمـد بن جعفـر بن الحسين بن الصبـاح الحميـري. وقـد دخـل السيـاسـة مبـاشـرة عنـدمـا ذهب إلى مصر، ونادى بـإمامـة الأمير نـزار ابن الملك المستنصر. وقـد تعصب أتبـاع الحسن بن الصبـاح لنــزار هـذا، حتى أصبـح أتباعه يسمون بالنزاريين. وقد استـولى على قلعة شهيـرة على جبل آلموت بالقرب من أصفهان. ولسبب ليس واضحاً اتجـه إلى اغتيـال خصومـه في السياسـة والـدين، فـاغتـال الـوزراء والحكـام، وحـاول اغتيـال صـلاح الـدين الأيـوبي مـرتين. وكـانت له طـريقة خـاصة، وهي أن يـدعـو رجـالـه إلى حفلة حشيش يتعـاطـونـه، ويتمـرغـون على الفتيـات الجميـلات، ويقنعهم بأن هذه هي جنـة الدنيـا، وإنه يستـطيع أن يعيـدهم إليهـا إذا قتلوا فلانـاً. . وكـانـوا يقتلون من يشـاء ومتى وكيف يشـاء. ثم يـدخلهم هـذه الجنـات مـع البنـات الجميـلات والغلمان.

وظـل شيخ الجبـل يقتل من يشـاء بأيـدي أتبـاعـه. فقـد تسلط عليهم تماماً.

وكـان له أسلوب معـروف. كان ينفـرد بالقـاتـل، ويـظل ينـظر إلى عينيه وقتـاً طويـلاً، حتى يسقط عند قـدميه ويقـول له: سيدي.. اطلب ما تشاء فأنا خادمك وعبدك الذليل.

وكـان سيـده يجـره من شعـره إلى تنـاول الحشيش وإلى الفتيـات. وبعد ذلـك يعطيـه الخنجر، ويتـركه يتـدحـرج من القلعـة ليتسلمـه ثـلاثـة من رجــالـه، ويضعـــوه في المكـان المناسب ليرتكب جـريمته. ويـظل إلى جوار القتيـل.. حتى يقتلوه، وبـذلك يضمن «شيـخ الجيل» أن القـاتل لن يعتـرف بشيء!

وكان الخوف من جماعة الحشاشين هائـلاً، لأنهم كانـوا يـرتكبـون الجـرائم في أمـاكن متفـرقـة ومتبــاعـدة وفي وقت واحــد. فيخيـــل للنـــاس أنهم جيش.. وإن هـــذا الجـيش سري. وإنه في كـل بيت، ووراء كل حجـر، وإن لهم عيونـاً وآذانـاً، وإنهم لا ينتشـرون هكــذا إلا إذا كـان هنــاك مئـات الألوف يؤيدونهم ضد الملك أو الخليفة أو الوزير أو الدولة!

وكان من بين هؤلاء الحشاشين جمـاعة «الخنـاقين» - أي الـذين يخنقـون الضحيـة دون أن يتـركـوا أثـراً لجـــريمتهم. وجمــاعـة الخنـاقين هـذه قـد انتقلت إلى الهنـد وإلى الصين أيضـاً في ذلك الـوقت. فكـانـوا يخنقـون الخصم بحبـل من الحـريـر.. وانتشـرت في اليـابـان أيضـاً جمــاعـة «الـرمـح الأحمر». يغمدونه في بطون الخصوم.

واستطاع القائد المغولي هولاكو أن يقضي على جماعة الحشاشين تماماً. فهدم قلاعهم، وأحرق كتبهم. ويقال إن شيخ الجبل قد ألف كتباً عن المذهب الشيعي، وانتهت جماعة الحشاشين بمقتل آخر شيوخها ركن الدين بن محمد في سنة ١٢٢٤ في أصفهان.. ويقال إن لها أتباعاً في سوريا وإيران!

ولكن أهم ما يميز هذه الجماعات: إنها قليلة العدد متماسكة. ونشاطها سري. وتدين بالولاء المطلق والطاعة الكاملة لرجل واحد. هو شيخها أو أميرها. وإن أفرادها قد جردوا تماماً من الإرادة أو حرية التفكير، لسببن، أولاً: لأنهم يؤمنون إيماناً أعمى بنظرية وبصاحب هذه النظرية. وإيمانهم يجعل حياتهم ملكاً له. ولكن قبل أن يسلموه حياتهم، آمنوا بأن حياتهم من أجل مبدأ. ولذلك فإذا ماتوا فهم شهداء. ولأنهم شهداء فسوف يدخلون الجنة التي عرفوها، مرة أخرى، ولكن إلى الأبد.. وثانياً: لأنه كان يعطيهم المخدرات. فلا يملكون من أمرهم شيئاً!

وهذه الصورة لم تتغير كثيراً في كل العصور. فلا تزال جماعة الإرهاب السياسي أو الديني ترفض الواقع الذي تعيش فيه. وتقول لكل شيء: لا.. وتقول: نعم لكل ما تأمر به الجماعة أو شيخها أو أميرها. ومن أجل ذلك هانت عليهم الحياة وسوف تهون!

ومن أخطاء الدول في مواجهة الإرهاب أنها تنظر إليهم نظرة «كمية» وليست «كيفية». . أي أن الدول نظرت إلى عددهم القليل، وقالت: إنهم ليسوا إلا شرذمة يمكن إحصاؤها على اليد الواحدة. وهذا صحيح. ولكن الدول نسيت أن شرذمة منظمة وتماسكة أقوى من الألوف المبعثرة.

وقد وقع في هذا الخطأ البانديت نهرو في الهند. وكذلك الزعيمان جمال عبد الناصر والسادات. . فنهرو وصف هذه الجماعات الإرهابية بأنها «محاولة طفولية فاشلة من أجل قيام ثورة». . وقال أيضاً: «إن أعمال الإرهاب تستهوي الشبان من الجنسين لما فيها من مغامرة ومفاجأة وسرية. . إنها مثل القصص البوليسية الزائفة» ولكن البانديت نهرو لا يعرف كم عدد الذين يتابعون القصص البوليسية، وكم عدد الذين يقرأون الروايات الأدبية أو الترجمات الشخصية. . إن عشاق الروايات البوليسية بالملايين. أدمنوها قراءة، وأدمنوها على الشاشة. وهي نوع من تحقيق أحلام اليقظة عند كل إنسان يريد أن ينتقم من الأقوياء والظالمين والأغنياء. .

ولكن الذي سخر منه البانديت نهرو وغيره من الزعماء المثاليين، قد مجده فلاسفة إرهابيون من مثل لينين وتروتسكي. فتروتسكي الذي اغتاله خصمه اللدود ستالين. كان يرفض أن يكون الإرهابيون كثيرين. أو يكون لهم

حزب. إنما كان يؤمن «بالعنف التحرري» أو «التحرير العنيف» الذي يقوم به عدد قليل من الناس، فيحققون وحدهم ما تعجز عنه الجيوش. وهذه النظرية أصبحت إحدى بديهيات الإرهاب. وفي نفس الوقت «مساحة من الرمال المتحركة» تتزحلق عليها الدول فلا تحسن تقدير خطورة الإرهاب.. وهذا ما رآه الزعيم الإيطالي موسوليني أيضاً. ومن بعده هتلر.. ولكن عندما أصبح كل منهما حاكماً مطلقاً لبلاده، تولت الدولة هذا الإرهاب المنظم. فكان إرهاباً من فوق إلى تحت. وإرهاب الدولة لا يوصف بأنه إرهاب. إنما يوصف بأنه قهر واستبداد!

وقد واجهت مصر الإرهاب في السنوات الأخيرة. ولكن لم تستطع أن تحملق في وجهه بوضوح. لم تعرف الوجه الحقيقي للإرهاب المصري. لقد عرفت اغتيال بطرس غالي والسردار وأمين عثمان وحسن البنا والنقراشي وأحمد ماهر والدكتور الذهبي.. والاعتداء على جمال عبد الناصر واغتيال السادات.

فهل أخطأنا حقاً في معرفة ما حدث؟. أو أننا لم نعرف ما حدث، ولذلك لم نتمكن من علاجه أو حتى تشخيصه؟ هل نحن وقعنا في نفس الخطأ التاريخي التقليدي، فنظرنا إلى المتطرفين أو المنحرفين أو الإرهابيين أو المتهوسين على أنهم «شرذمة» ضئيلة يسهل القضاء عليها.. ثم قضينا

عليهـا؟ وهل صحيـح أن الإرهابيين بجمـاعـاتهم المختلفـة، مثل جبال الجليـد، قليلها فـوق سطح المـاء، وكثيرهـا تحت الماء؟..

وفي التـاريـخ غـرقت أكبـر بـاخـرة في العـالم اسمهـا تيتانيك؛ لأنها اصطدمت بـأحد جبـال الجليد، فـانكسر جـزء من الجبـل، ولكن بقية الجبـل خرجت بقـوة عنيفـة من تحت الماء، فأغرقت السفينة. فكـان لا بد أن تغـرق أجمل سفينـة صنعهـا الإنسـان لنكتشف إحـدى بـديهيـات تكـوين جبـال الجليـد.. وعلى ذلـك فمن الـذي أطلق الـرصـاص على الأبـرياء من المـواطنين ورجال الـدين والزعيم الـراحل؟ هـل هو الجانب الظاهر من جبل الجليد.. أو هـو الجانب الخفي منه؟

ومن الـذي يقـول لنـا ذلـك؟ ومن الـذي يؤكـده حتى نصدقه؟

وأنـا أعود وأعيـد مـا كتبتـه في هـذا المكـان كثيـراً، من أنني أفتـرض أن شابـاً مؤمناً ذاهب إلى الجـامعة وتـرافقـه في الطريق واحدة مثله، وكـلاهما يسكن في السيـدة زينب. وفي الطريق يتخبطان في الـزحام. ويـريان أن الـزحام أرخص من المـواصلات المـزدحمة. ثم يقـع الشاب في نقـرة ويتسـانـد على الفتـاة.. ويـريـان في هـذا السقـوط في حفـرة رمـزاً لمعنى: إنهما في مواجهة مطبـات الحياة، لا بـد أن يتسانـدا

على سنة الله ورسوله بالزواج.. ولكن الزواج كيف يمكن مع المرتب الصغير؟ وإذا أمكن فأين الشقة؟ وإذا وجدت فكيف يعيشان إذا قررا أن يكون لهما طفل؟. وفي الطريق إلى الجامعة يتفاديان سيارات عريضة في مثل طول طابور الواقفين على محطة أتوبيس.. وعيون الواقفين أكثر لمعاناً من ألمونيوم الشقق الجديدة التي تنشر الصحف أنها تباع بمئات الألوف في عمارات تتكلف الملايين يدفعها أصحاب محلات الجزم والحلاقون والترزية ومهربو المخدرات. والدولة لا تسأل أحداً من أين له هذا ـ بل إن الدولة على مدى عشرات السنين قد حرصت على بقاء قانون يستحق الاحتقار والدفن في جنازة مهيبة.. اسمه: من أين لك هذا؟.. فهل لو غضب وسخط وثار هذا الشاب على كل الذي يحس به كل يوم هو وأسرته التي تنام في غرفة واحدة يكون كافراً أو منحرفاً أو منحلاً؟. (ملحوظة: لقد نشرت الصحف أن نصف سكان القاهرة يسكنون في غرفة واحدة.. ولا أدري إن كانت هذه حقيقة. فكلنا نجتهد. ولا توجد أية بيانات صحيحة رسمية يستفيد منها المشتغلون بالتخطيط لحاضر ومستقبل مصر. وسوف أرجع إلى ذلك فيما بعد!).

فهل لو اعتقد هذا الشاب أن الظلم من سمات المجتمع، وكذلك الفساد والرشوة والانحراف، وإن الإيمان كالجريمة لا يفيد.. فهل تراه مخطئاً؟ وإذا كان هذا هو

الخطأ فما هو الصواب؟ وإذا كانت الدولة تطالبه بالإيمان.. أي بالتمسك بالخلق الكريم والمثل العليا، فأين القدوة الحسنة؟.. إذن فما تقوله الدولة ليس إلا شعراً أو كالشعراء. والقرآن الكريم.. يقول «والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وإنهم يقولون مالا يفعلون»؟

إن الذي نطلبه من أنفسنا كثير، ولكنه ليس صعباً. فنحن لم ندرس ماذا حدث. ولكن يمكن أن نفعل ذلك. وأن تحشد الدولة قواها كلها من أجل رسم خريطة مصر - أعماق المجتمع المصري - فبغير هذه الخريطة الروحية والاقتصادية والاجتماعية لمصر، لا علاج لشيء.. وهذا ما يفعله الطبيب كل يوم. إنه يقلب في المريض. وقبل أن ينطق بالداء والدواء فإنه يأمره أن يأتي له بتحليل للدم والبول والبراز ورسم أشعة لكل جسمه. إنه يطلب منه بطاقته الشخصية.. فهو يعرفه أكثر وأوضح؛ لكي يتمكن من علاجه!

وليست في مصر بيانات رسمية عن عدد الشبان. لا نعرف. ولا أحد يعرف. نحن لا نعرف كم عدد الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٣٢ سنة. نحن لا نعرف إن كانوا يعيشون في غرفة أو أكثر. ولا نعرف كم عدد الذين يعيشون مع زوجات أبيهم.. ولا عدد اليتامى.. ولا

عـدد المـرضى منهم. . نحن لا نعـرف كم عـدد الـذين يدخنون منهم أو عدد الذين يتعـاطون المخـدرات. . ولا عدد الـذين يتمسكـون بتعـاليم الـدين. ولا عـدد المنضمين إلى جمعيات دينية. نحن لا نعـرف كم عدد الأبنـاء الوحيـدين. . نحن لا نعـرف عـدد الـطلبة الـذين ينفقـون على أنفسهم أو على أهليهم، وفي نفس الـوقت يـدرسـون، نحن لا نعـرف عدد الذين هاجروا أو الذين يريدون أن يهاجروا.

ثم هل صحيح أن الذي نواجهه في مصر هـو أزمة ثقـافة أو ثقـافة أزمـة؟ ـ وهي قضية تبنيتهـا فلسفياً ونفسيـاً منذ أكثـر من عشرين عاماً ـ هل هي أزمـة تعليم أو أغلبيـة أمية؟ . . هـل هي الفجـوة التي اتسعت بين الـطبقـات بسـبب الانـفتـاح الاقتصـادي المستمـر؟ . . هـل هي قضيـة المجتمـع الـذي يتحـرك بسـرعـة أكبـر من أن يستـوعبهـا الفـرد؟ . . هـل هم الأمـريكـان أو هـو الخـوميني؟ . . هـل هـو القـذافي أو مـاركس؟ . . هل هـو طابـور الجمعية أو خـطب الجمعة؟ . . ولأن أحـداً لا يعـرف. ولأن أحـداً لم يسـأل فـإن أحـداً لم يجب!

ولأضـرب مثلًا: كنت في مـدينـة سمـرقنـد بجمهـوريـة أوزبكستـان السـوفيتيـة، وخـطر لي أن أعـرف كيف يعـالـج الـروس مـرضـاهم ـ وهي مـادة أكتبهـا. فـطلبت أن أقـابـل الطبيب، فدفعـوني إلى طبيبة، وضعت لهـا يدي على بـطني

وقلت: آه.. وعلى عيني وعلى دمـاغي. ووصفت لهـا كيف تتـراقص الأشيـاء أمـام عيني، وكيف أشعـر أنني في مـركـز الأرض التي تدور حولي، فـأدوخ وأقع.. وكنت حـريصاً في هـذا التشـخيص عـلى ألا أختـار أعـراضـاً تـنقـلني إلـى المستشفى، فيكـون ذلـك عقـابـاً على أكـذوبـة مستمـرة. واستمعت الـطبيبة إلى كـل الذي قلت، وسجلت، وفكـرت. ثم اختفت لتـأتي بثلاثـة أقراص في ورقـة صغيـرة. وقـالت: واحدة عند النوم..

وسألتها: ولكن مـا اسم هذا المـرض الذي أعـاني منه؟ لا بد أنه ليس خطيراً. ما دام علاجه هكذا بسيطاً!

ولم تشأ أن تقول شيئاً.

وفي اليـوم التالي سـألتني: كيف حالـك؟ قلت: لم أعد أشكو من شيء.. فما هو هذا المرض؟

فأجابت: لا يهم اسم مرض. المهم أنك استرحت.

وفي ديسمبـر سنـة ١٩٥٩ انتهت رحلتي حـول العـالم التي استغـرقت ٢٢٣ يومـاً، بأن تـوقفت في واشنـطون. وقـد تعبت كثيـراً من رحلة بلا تـوقف بين آسيـا واستـراليا، وكنت أتنقـل فيها بين الـدول بالـطائرات ليـلاً ونهاراً. وكنت أخـرج من صيف الهند العنيف، إلى شتاء استـراليا الجليـدي في يوم واحـد.. من برودة استـراليـا إلى حـرارة الفلبين.. وهكـذا.

واستطاع السفير المصري أن يدخلني «مستشفى البحرية» الأمريكية. لا أعرف ما الذي قاله السفير المصري لإدارة المستشفى. ولكني دخلت. وخلعت ملابسي. وأعطوني رقماً. وأجلسوني على مقعد له عجلات. ووجدتني أتنقل من ممرضة إلى ممرضة.. ومن طبيب إلى طبيب: تحاليل دم وأشعة ووزن وقياس ضغط وضرب على الظهر وعلى البطن.. وشواكيش تدق ركبتي وظهري وكتفي.. ولم تتوقف تنقلاتي بين الغرف المضاءة والغرف المظلمة.. وكل وجوه الأطباء واحدة. أو لم أعد أعرف أحداً من آخر.. وبعد أسبوع أعطوني كراسة، هي تسجيل لحالتي الجسمية كلها. وقالوا: في استطاعتك أن تذهب إلى أي طبيب. فهذه بطاقتك الشخصية!

والآن: أمامنا ثلاث طرق لعلاج المريض: إما أن نعالج المريض، أخذاً بأقواله هو، ودون تشخيص أو دراسة.. وإما أن نشخص المريض ونرسمه ونحلله دون أن ننتظر منه كلمة واحدة.

أما الطريقة الثالثة فهي: بما أن هذا المريض ليس مصاباً في جسمه فقط، فلا بد أن نعرفه، ولن نعرفه دون أن نلتقي به. ولن نلتقي به دون أن يكون آمناً على الذي يقول، ولن يتحقق هذا الأمان إلا إذا كان الذين يتولون الحوار معه هيئات علمية محترمة. كما حدث في أمريكا

بعد حرب فيتنام. وكما حدث في بريطانيا بعد العدوان الثلاثي على مصر، وكما حدث في فرنسا بعد وفاة ديجول.. وهذا هو الذي ينقصنا، وليس يكفي أن نعترف بالنقص، ونكافىء أنفسنا على ذلك بأن نقول: إن الاعتراف بالرذيلة فضيلة، إنما يجب أن نعالج أنفسنا قبل أن نعالج غيرنا. أن نزيل نقصنا قبل أن نعرف «النواقص» في حياتنا الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية.

إن المثل الذي دخل به التاريخ رجل اسمه «سبارتاكوس» على أنه محرر العبيد، يحب أن نذكره في مناسبات عديدة. فهذا الرجل أتى بجيش من العبيد ليحرر العبيد. وكل الذي فعله أن وضع السلاسل في أيدي السادة، وجعلهم عبيداً للعبيد.. إنه لم يحرر العبيد، إنما أضاف إليهم عبيداً آخرين.. فكأنه انتقم من الهوان الذي لحقه، بأن خلعه على الآخرين.. فلا حرر العبيد من عقدة أنهم عبيد، ولا استطاع أن يغرس في السادة أنهم ليسوا كذلك وأنهم عبيد. فنحن نريد أن نحرر أنفسنا من نقص المعلومات، والجهل بمجتمعنا، لكي نصبح قادرين على تصحيح الأخطاء وتقويم المسار الطويل وتجفيف الدماء.. ولكن إذا نحن لم نكن جادين فنحن إذن كالطبيب الذي يجري عمليات جراحية بأدوات ملوثة.. ومهما كان الطبيب بارعاً. فإنه سفاح قد ارتدى ملابس الأطباء.. وهو قاتل

يطبق أحدث نظريات الجراحة!

فإذا كان الملل قد تسرب إلى نفسك من كثرة ما يقال عن أزمة الشباب، وعن انحراف بعض أبناء مصر، وعن المسدسات التي نبتت في الأيدي الناعمة، فأنت قد ضقت بهذه القضية، وإذا أصبح الضيق بها عاماً. كان هذا الضيق نوعاً من حفظ القضية. ومقدمة للإفراج النفسي الاجتماعي عن الجريمة المستمرة.. عن جبل الجليد الذي انقض وحشاً خارجاً من الأعماق ليقتل بكل حجمه ووزنه..

وليس أكثر خطورة على دراسة هذه القضية من الملل عند سماعها أو قراءتها.. إلا استعجال حلها.. كأن المرض معروف، والتشخيص معروف، ولم يبق إلا العلاج. والعلاج هو أي حل سريع؟!

وقديماً تعلمنا من أستاذنا العظيم سقراط، أن عدداً من تلامذته التفوا حوله. كلهم تكلموا.. إلا واحداً. فقال له سقراط: يا سيدي تكلم حتى أراك!

لقد طلب إليه أن يتكلم حتى يعرفه. فلا وسيلة لأن يعرفه إلا إذا قال شيئاً!

ويقال إن الإمام الشافعي قد لاحظ هو الآخر أن واحداً من مريديه لم يتكلم. وقد تهيب الإمام الشافعي أن يجلس على راحته في مواجهة هذا الرجل الذي يبدو مهيباً وقوراً.

ثم طلب إليه الشافعي أن يسأله ما شاء. فما كان من هذا الرجل إلا أن قال له: إذا وجد الإنسان نفسه في الشمس ولم يجد ماء يتوضأ به أو تراباً يتيمم به، ولم يصلِّ مدى الحياة. , فهل يدخل النار؟

وقال الإمام الشافعي: الآن يحق للشافعي أن يمد رجليه!

فقد اكتشف الإمام الشافعي أن الرجل تافه، وأنه لا يستحق الاحترام. . وأن من حق الشافعي أن يمد رجليه وقدميه ويضعها في عينيه!

فلا بد لكي نعرف الشباب أن نسمعهم. ولكي نسمعهم فلا بد أن نقترب منهم، وأن نؤمنهم، لكي نأمنهم ـ إنهم مصر: حاضرنا ومستقبلهم!

إنها فرصة لتصحيح
كلمات في
«قاموس الشيطان»!

هناك شعوب ترى «العصر الذهبي» وراءها، وشعوب تراه أمامها: مثل أمريكا وروسيا.

وهناك شبان يبكون على الذي فات ومات، وشبان يتطلعون إلى الفردوس الذي هو آت..

والذي تعاني منه مصر الآن: هو أن شبابنا المتطرفين يبكون على الذي مضى ولن يعود. ولذلك يحاولون أن يعيدوه بالقوة. فهم يرون أنه لا أمل في الحاضر، وأن المستقبل يجب أن يكون إحياء للماضي...

وكل الناس يتكلمون عن الشباب ـ إلا الشباب أنفسهم!

ولم يبق إلا أن نفتح الحنفيات فنجد الماء أحمر اللون يكتب كلمة: الشباب.. فقد أسرفنا في الكتابة والحديث عن الشباب، حتى وقع ما تخوفت منه في هذا المكان أكثر من مرة: أن نمل الحديث عنه. وأن نضيق به. وأن نقفل الراديو والتليفزيون والصحيفة وأن نقول: لدينا مشاكل أخرى!..

وهـذا «الضيق» يتفق مـع المـزاج المصـري. فنـحن نتحمس بشـدة. ونفتر بسـرعة. ونسـرف إذا تحمسنا، ونبـالغ إذا مللنـا. ونحن الآن في مرحلة تتجـه إلى القرف الـذي هو مقدمة الليل الذي هـو بدايـة الانصراف عن الشبـاب إلى أي شيء آخر. .

والـذين يحفظون تـاريـخ النغمـات الفكـريـة، والإيقـاع الجـدلي، يجدون أن هنـاك تشابهـاً بين الذي يقـال الآن عن الشبـاب والـذي قيـل بعـد اغتيـال الـدكتـور الـذهبي، وبعـد «انتفاضة الحـرامية» في شـوارع مصر سنـة ٧٧، وبعد نكسة سنة ٦٧، وبعد انفصال سوريـا عن مصر سنـة ٥٨، والعدوان الثلاثي سنة ٥٦. .

والمؤرخان عبد الرحمن الجبرتي وعبد الرحمن الـرافعي يصفان شيئاً من ذلك عند دخـول الفرنسيين القـاهرة واقتحـام نابليون للأزهر بخيوله ـ أي بعد الهزيمة والإذلال لمصر. .

ومثل ذلك حدثنا عنه الفيلسوف الـوجودي سـارتر عنـدما دخـل الألمان بـاريس. وأعلن أنـه منـذ تلك اللحـظة أصبح الفرنسيون أحراراً من كل قيد، وكل قيمـة، وكل تـراث، وأن في استـطاعتهم أن يفعلوا أي شيء، ولا لـوم عليـهم. لأن الألمان قد جـردوهم من الشرف والكـرامة، فعليهم أن يفعلوا بالضبط ما يفعله الإنسان الذي لم يعد شيئاً، ولم يعـد كريمـاً على نفسه أو أحد. .

وبعد النكسة كانت هناك مناقشة عن «أزمة الثقافة» في مصر. أي أن المثقفين قد تأزمت حالتهم المعنوية، وارتعدت أقلامهم، وارتجفت الأرض من تحتهم. فهم ضحايا الهزيمة ورهائن العار. ولكني في ذلك الوقت كان لي رأي آخر، وهو أن الذي كنا نعاني منه، لم يكن «أزمة ثقافة» إنما كان «ثقافة أزمة». فالأزمة التي أحرقتنا لم تقض علينا، والهوان الذي لحقنا لم يجعلنا تراباً تدوسه الأقدام. وتحيرت الأقلام وتعذبت بهذه الأزمة. فكان الأدب والفن والسياسية تعبيراً عن الأزمة، فكان ثقافة مختلفة، ولم يكن إفلاساً في الثقافة.

وإذا كان هذا الذي يقال في كل مجال الآن عن الشباب، هو تكراراً لما قيل، ولكن بصورة أخرى أوسع وأعنف، فمعنى ذلك أننا قادرون على أن نقول كلاماً مكرراً وبحماسة شديدة، كأنه شيء جديد. والتكرار هو أسلوب المطرب والسياسي والمدرس. فهم جميعاً خبراء في التكرار. لا يملون. ولا يضيقون. بل يجدون فيه لذة متجددة ـ لقد أصبحنا جميعاً كذلك!.

وسبب ذلك أننا ننسى بسهولة، أو نريح أنفسنا بأن ننسى الذي يضايقنا. وهذه هي النعمة الكبرى للنسيان. ومعنى ذلك أيضاً أننا لم نستفد من الأحداث التي جرت وجارت علينا. فلا الذي حدث كان درساً، ولا نسيانه كان

عبـرة لأحد. ومعنى ذلـك أن أحداث التـاريخ قـد علمتنـا ألا نتعلم منها شيئاً. وهذه خصلة مصرية.

ولـذلـك كـان مـوشي دايـان على حق عنـدمـا قـال: إن إسـرائيل هـزمت مصر في ١٩٦٧ تمـاماً كمـا هزمتهـا في ٥٦ وبنفس الـطريقـة. وقـال مـا هـــو أكثـر ســوءاً من ذلـك: إن إسـرائيل لـو حاربت مصـر مرة ثـالثة وبنفس الـطريقة فسـوف تهـزمها أيضـاً. فالمصـريون لا يتعلمـون، استخفافـاً بنـا، أو غروراً زائداً.

ولم يحـدث ما تـوقعه ديـان في حرب ٧٣، لأننـا تعلمنا هـذا الدرس الصغيـر الفادح. فقـد غيرنـا أسلوبنـا، بينمـا لم تغير إسرائيل أسلوبها. فحاربنا عدواً نعرفـه، وحاربنـا عدو لم يعد يعرفنا! . .

وبعـد اغتيـال الـرئيس السـادات ارتفعت النبــرة ـ وهـذا طبيعي. واتسعت مساحات الكلام، وطالت ساعات الحـوار. أما الموضوع فهو: الشباب . .

ولم يحـدد لنا أحـد حتى الآن من هو الشـاب بـالضبط، هـل بالضـرورة يجب أن يكون جـامعياً؟ وهـل من الضروري أن يكون متدينـاً، أو متدينـاً متطرفـاً؟ وهل صحيـح أنه فـاشل في حياته وفقير دائماً؟ . .

لقد أصبحت كلمة «شـاب» مثل كثيـر من الكلمات التي

تملأ أفواه الناس. ولكن أحداً لا يعرف حدودها. وعندما سئل الأديب الفرنسي استندال عن الحب قال: إن الحب مثل العفاريت، يتحدث عنها الناس، ولكن أحداً لم يرها!..

وكذلك الشباب، فالكل متخصص فيه وفي مشاكله. ولكن لكثرة الصفات التي وضعت للشباب، لم يعد أحد يعرفه إذا رآه. وإذا رآه لم يعد أحد قادراً على أن يتحدث إليه، وإذا فعل فلن يفهمه، وإذا فهمه فإنه يدينه.. وحين يدينه يرفضه. وتبقى الفجوة بين الأجيال، أكثر اتساعاً وعمقاً. وعندئذ نفكر من جديد في بناء الجسور للعبور إلى الشباب الذي ابتعد عنا ـ مع أننا نحن الذين أبعدناه!..

وما دام الشباب قد أصبح بعيداً، فنحن لم نعد نراه بوضوح، حتى أصبحنا ننظر إليه على أنه كائن حي مختلف عنا تماماً. وبذلك تكون الكائنات الحية ثلاثة: الإنسان والحيوان والشبان؟!..

فنحن قد اخترنا لأنفسنا الخطأ، واخترنا أن نقع فيه. فالإنسان عدو لمن يجهل. ونحن أصبحنا نجهل الشبان. وعلى ذلك فنحن أعداؤهم. ونتوهم أنهم هم الذين اختاروا العداء لنا. وهذه غلطة أخرى باهظة الثمن. لأن الشباب ليس مختلفاً تماماً عنا، إنه أكثر حساسية. والشباب ليس

معناه أن يكون الإنسان بين العشرين والثلاثين. . أي أن الشباب إحدى مراحل العمر. والحقيقة أن الشباب هو إحدى حالات العقل. أو أن الشباب هو نشوة العقل وانتفاضة الإرادة وشطحات الخيال. ولم يتحقق في التاريخ شيء عظيم. لم يكن صاحبه شاباً!. .

ودهشتنا لما يفعله الشباب تدل على أننا نسينا كيف كنا ونحن صغار، وماذا قلنا، ولماذا اختلفنا مع آبائنا. والذين يحتفظون بمذكراتهم عندما كانوا شباباً، لو عادوا إليها لوجدوا أشياء عجيبة. قرأت في مذكراتي عندما كنت تلميذاً بمدرسة المنصورة الثانوية، يوم قررت الانتحار، أن أسباب ذلك كانت هي أنني كنت تلميذاً متفوقاً، ولكن مرض أمي، وغياب أبي، جعلني أرى أن الانتحار هو الوسيلة الوحيدة للخلاص. ولم أشرح لنفسي معنى «الخلاص». ولكنني أفهم الآن أنني كنت افتقر إلى التقدير. ولم يكن أحد من أهلي على استعداد لأن يصفق. فقد كانت العين بصيرة واليد قصيرة - أي أن العين ترى ولا تجد شيئاً يستحق الاهتمام، واليد كانت أقصر وأضعف من أن تمتد ناحيتي. فقد كان تشجيعي - إذن - نوعاً من المشاعر الأجنبية على أسرة سحقتها الظروف في أحد أركان المجتمع. .

وتقول لنا الأديبة الوجودية سيمون دي بوفوار أنها قررت أن تكون رجلاً. فحلقت شعرها، ودخلت في البنطلون،

وراحت تتكلم بصـوت غليظ، لأن أمها لم تستمـع إليها وهي طفلة سعيدة بنظم أولى قصائدها. ولـم يشفع للأم أنها كـانت تسعل بشدة، وأن ارتفـاع درجة حـرارتها قـد جعلها لا تقـوى على الرؤية ولا على السمع ولا على الفهم!..

ولكننـا نحن الكبار ننسى الفعـل ورد الفعل على مـا كنـا نقوم به. ولو تذكرنا ذلك لحظة واحدة، لوجـدنا لشبـاب اليوم ألف عذر. ووجدنا أن الذي كنـا نفتقده هـو ما يفتقـده أيضاً. ومـطالب الشباب متـواضعة. ولكننـا نبالـغ فيهـا، حتى نجـد لأنفسنـا مبرراً في الاعتـذار عنها أو رفضهـا أو إدانته تمـامـاً. وفي ذلـك راحة لنـا من التفكيـر لهم والحـوار معهم، وإلقـاء الوحل عليهم أو إلقـائهم هم في الوحـل، ولكننا نستـطيع أن نلقي عشرة ومائـة وألفاً، ولكن مـا الذي نستـطيعه أمام مليون طفل يولـدون كل عشـرة شهور، سيصبحـون شبابـاً بعد مـائة شهر؟!..

إن أديب ألمانيا جـونترجـراس وجد حـلاً خطيـراً. ولكنه قمة السخرية من العصر الحـديث كله. لقد كتب روايـة جعل بطلها شـاباً تـوقف نموه.. أي أن هـذا الشاب قـرر ألا يكون شـاباً فيكـون عبئـاً على أحـد، فـأصبـح طفـلاً في العشـرين والأربعين والخمسين. فـلا كان طفـلاً ولا شـابـاً ولا شيخـاً. إنمـا هـو محـذوف من جـداول الجميـع، ثم إنـه عبء على النـاس. فـالأديب الألمـاني عـرض مشكلة الشبـاب في هـذا

العصر، بأن أعفى «النظم القائمة» من المسؤولية. وسجن الشبان في جلودهم، وأوقف تاريخهم. فجعلهم نكتة بيولوجية يضحك لها العلماء، ويبكي عليها السياسيون ورجال الدين!..

فهل نحن أيضاً، نحاول بالبكاء المستمر على الشباب والبكاء خوفاً منهم، أن نوقف نمو الشباب، لأننا لا نريده أن يكبر، ولأننا لا نريد أن نتقدم؟..

دعاني الصديق محمد رشوان وزير الدولة لشؤون مجلس الشعب والشورى إلى إلقاء محاضرة موضوعها «ثقافة الشباب». وكان يهمني أكثر أن أسمع الشباب، إيماناً مني بأنني لا أعرفك حتى تتكلم. فإذا تكلمت فقد عرفتك. واسترحت إلى أسئلة الشبان. لأنها تطابق تماماً ما يدور في رأسي. فما الذي طلبه الشبان؟.. طالبوا بمزيد من المكتبات العامة، وبكتب أرخص. انتهى كل الذي يريده الشبان.

ولا أعرف ما الذي كان يطلبه الشباب لو كان موضوع المحاضرة هو أزمة الإسكان، أو ارتفاع الأسعار، أو صعوبة المواصلات، أو الفوارق الهائلة بين الأثرياء والفقراء، أو عن العمل والأجور، وعن الهجرة، وعن الإيمان، ومن هو المسلم حقاً؟..

وفي نفس الليلة جاءني ثلاثة من الشبان من كليات الهندسة والعلوم والحقوق. وكانت لهم أسئلة أخرى، لم يتسع الوقت المخصص لأن يتقدموا بها. بدأوا حديثهم هكذا: نحن مسلمون. وإسلامنا صحيح. ونحفظ القرآن الكريم لأننا من أبناء الريف. ومن عائلات غنية والحمد لله. ومن المنصورة والإسكندرية وأسيوط. وقد تعارفنا وتآلفنا في نقاش حول ثمن اغتيال الرئيس السادات، ومن الذي سوف يدفعه: الشباب أو مصر أو العرب.. أو أن الرجل قد دفع عنا الثمن: حياته.. ثم أقفل هو الحساب؟.. فهل هو أقفله حقاً؟. وهل من حق أحد أن يستأنف الحكم في قضية السادات؟..

وانتقلنا إلى «قاموس الشيطان» ـ إن صح هذا التعبير. أي قاموس الكلمات الخطرة على الحياة والسلام والدين والمستقبل.. فقد وجدوا، وأنا أيضاً، أن الرد على الجماعات الدينية سهل، بشرط واحد هو أن ينشر فكرهم كله، وينشر الرد عليه. ولا خوف على أحد من الفتنة ما دام الرد مقنعاً..

وكنت قد قرأت الكثير من منشورات جماعة «التكفير والهجرة».. وكان د. سعد الدين إبراهيم الأستاذ بالجامعة الأمريكية قد سألني منذ سنوات إن كنت على استعداد للقائهم في السجن. فوافقت فوراً. وقال إن هذه رغبتهم

بعثوا بها إلى مباحث أمن الدولة . .

وجاءني خطاب من د. أحمد خليفة يعلق على ما كتبته عن الشباب في هذا المكان، وأنا أشكره على تقديره الكريم لما قلت. وفي خطابه أيضاً قال لي: إن جماعة التكفير والهجرة قد طلبت أن تلتقي بي. وأن يكون بيننا حوار. لأسباب من بينها أنني أكتب كثيراً عن الشباب، وإنني كنت مدرساً في الجامعة، وإنني أحفظ القرآن الكريم، وإنني كنت من الإخوان المسلمين. وإن تجربتي الدينية كانت عبر هضاب ووديان وكهوف وغابات فلسفية ودينية.

ويوم أدين شكري مصطفى وأعدم، كتبت دفاعاً عنه، لا باعتباره قاتلاً، ولكن باعتباره مؤمناً من نوع خاص. ولكنه لم يلق من يحاوره. ولأن تمرده ليس دينياً كله. ولأنه يستحيل أن نفصل بين الوجدان الديني والعقل السياسي والوضع الاجتماعي والمرحلة التاريخية . .

ووجدتني أتحدث إلى هؤلاء الشبان الثلاثة عن مفردات في «قاموس الشيطان» ـ أي قاموس التطرف الديني، وهو في نفس الوقت تطرف في السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والارتباطات الدولية العربية وغير العربية.

مثلاً كلمة «الإمام» وهي مرادفة لكلمة «أمير الجماعة».

هـذه الكلمة أخـذوها عن المـذاهب الشيعية. فـالإماميـة هي التي تـرى أنه في غيـاب النبي عليـه الصـلاة والسـلام، وفي غياب الخليفة علي بن أبي طالب وأحفاده، يكـون الإمام هـو النبي المعصـوم من الخطأ. ولـديهم أحاديث غـريبة أكثـرهـا مدسوس على الإسلام تؤكد هـذه المعاني. وتسعفهم الآيـات القرآنية ذات التفسيرات الغريبة في تأييد هذا المعنى..

وشكـري مصطفى كـان يرى أنـه هو هـذا الإمام. وعلى ذلك فلا يحق لأحد أن يعارضه أو يرد عليـه. هو القـانون مـا دام القانون الإسـلامي غائبـاً، وهو الإمـام أو الرسـول، مادام الرسول أو الإمام غائباً..

أما «التكفير» فهو أن المجتمع المصـري كله كافـر. لأنه لا يحكم بكتـاب الله. وحتى النص في الـدستـور على أن الإسـلام أساس التشـريع ليس كـافياً. لأن في الـدستور نصـاً يطالب «بالـرجوع إلى الشعب». ويـرون أن الرجـوع لا يكون لغيـر الله وإلى كتـاب الله، وإلى سنة رسـولـه. وعلى ذلـك فمصر دولة كافرة. والمسـاجد التي تقيمهـا الدولـة الكافـرة لا تصح فيها الصـلاة. ولذلـك فهم يصلون في بيوتهم. لمـاذا؟ لأنــه لا بـد من «التمكين» أو «التمكن» ـ أي أن يتمكنوا من السلطة المـطلقـة في حكم البـلاد.. فـإذا حـدث ذلـك، فالصلاة في المساجد حلال!

ويرون أيضاً أن النبي عليـه الصلاة والسـلام كان أميـاً لا

يقـرأ ولا يكتب. ولو كـان الله يريـده قـارئـاً أو كـاتبـاً لجعلـه كذلك. ويقولـون أنهم لم يقرأوا أن الـرسول قـد بنى مدرسـة واحـدة. إذن فلا داعي للتعليم. إنمـا الأمية سنـة عن رسـول الله وأمر من الله ولذلك كانوا يشجعـون الشبان الصغـار على ترك المـدرسة أو الجامعة؟!

أمـا «الهجرة» فهي أن يهـاجر المسلم بـدينه بعيـداً، لأنه لا يطيق أن يعيش في مجتمع كـافر، ولمـا كانت الهجـرة إلى دول أخـرى أمراً صعبـاً ، فهـم يهاجـرون إلى الكهوف . وفي الكهــوف يتحقق لهم أمــران: «الهجــرة» و«الكمــون» أي الاختفـاء والتربص. . أو أن الهجـرة هي ما يسمـونه «التقيـة» أي أنهم يختفون أو يتنكرون في أيـة صورة أخـرى. ومن بين هذه الصور أنهم يمالئون النظام القائم ويخدعونـه. ولا يكون ذلك كذباً اجتماعيـاً أو نفاقـاً، إنما هـو نوع من التلون الـذي تلجأ إليه الحشرات والحيوانات. فالتقية هي نوع من التمـويه من أجـل ألا يرصـد حركـاتهم أحد. . وفي الكهـوف جمعـوا السلاح وتدربوا عليه. .

أمـا من الذي يمـولهم: فهم شبـان آخـرون في مصـر أو في البـلاد الأخرى. أو أنهم مـا داموا في حـالة حـرب وجهاد مـع المجتمع، فكـل الذي يخـطفونـه ويسرقـونه هـو «غنـائم حرب».

وما دامت الدولـة كافـرة فقضايـاها أيضـاً. فالحـرب بين

مصر وإسرائيل لا يدخلونها. لأنها حرب بين جيشين كافرين. ولذلك يهربون من الجندية ويستنكرونها!!..

وكلمة «الجماعة» هي من أكثر الكلمات غموضاً. فهناك أحاديث دينية تتحدث عن «الخروج عن الجماعة». والمقصود بالجماعة في هذه الأحاديث: جماعة المسلمين أو إجماع المسلمين. ولكن التفسير الذي يراه هؤلاء المتطرفون هو أن الجماعة معناها «جماعتهم». لأنها هي وحدها الجماعة المسلمة إسلاماً صحيحاً في مجتمع كافر كفراً صحيحاً!

أما «القتل» فهو أكثر الكلمات وضوحاً. فالكافر لا بد من قتله!..

ولا خلاف بين كل الجماعات المتطرفة على هذه المعاني وغيرها. وهي معان خطرة. أما مناقشتها والرد عليها وتفنيدها فسهل جداً.

ولكن يعيب موقفنا اليوم وغداً أننا بدأنا نضيق بالكلام الكثير والتحليل والتطويل. وبدأنا نتخوف أيضاً من تصورات وتطورات جديدة ترى أن كل الذي ينقص هؤلاء الشبان هو الدين. أي أننا سنواجه الدين بمزيد من الدين. أو نواجه الدين المرفوض بمزيد من الدين الرافض له. وبنفس العنف.

فهل ترفع المصاحف على السيوف، أو ترفع السيوف بلا مصاحف، أو المصاحف بلا سيوف؟

إن أحداً لم يقل لنا شيئاً بعد!.

أما فورات وثورات الشباب في الغرب في نهاية القرن التاسع عشر وفي عشرينات وخمسينات وستينات هذا القرن. فقد وجدت من يدرسها ويحللها بالعقل. أي دون حاجة إلى «ندابة» فكرية، أو «البكاثين» على الشباب وعلى مصر ـ والندابة هي سيدة تحترف البكاء والعويل في الريف. فعندما يموت أحد يأتون بهذه السيدة لتقود جموع الباكيات لأنها أقدر على «التعديد» ـ أي تعديد مزايا الفقيد، وتعديد الكوارث التي سوف تصيب أهله من بعده. وبذلك توجع القلوب، وتعتصر الدموع، وتتقاضى أجراً على ذلك!..

فعندما نظر الكاتب الروسي تورجنيف إلى ثورات الشباب، اقترب منهم واستمع إليهم. ووجد التشخيص المناسب لذلك. فقال: إن كل شاب يجب أن يختار بين أن يكون «هاملت» بطل مسرحية الشاعر الإنجليزي شيكسبير، وبين «دون كخوته» بطل رواية الأديب الأسباني سرفانتس. أما هاملت فهو مثقف مدمر. ثم إنه شخصية انتحارية. أما دون كخوته فهو ذلك الإنسان المتفاني من أجل المثل العليا، والمعادي لكل النظم الاجتماعية، والذي يطالب بضرورة «العودة إلى الشعب»..

ويكـون العنف والإرهاب أو الانتحـار أو الاستشهـاد هـو الـذي يهـدف إليـه الشبـان. أي أن النهـايـة ليست انتحـار هـاملت، إنما انتحـار دون كخوتـه ـ أي الإنسان المثـالي هـو الذي ينتحر في النهـاية. لأنـه لا يقوى على تبـديل المجتمـع كله. ولأنـه لا يستـطيـع أن يقضي عليـه، فـإنـه يقضي على نفسه. وبدلاً من أن يكون موته بلا مقـابل، فـإنه يمنـح نفسه لقب شهيد في سبيل الحرية أو في سبيل الله! . .

ومن مظاهر الملل أخيـراً أن الناس عنـدما رأوا المتهمين باغتيال الـزعيم الراحـل يضحكون وراء القفص الحـديدي. . وعندما وجـدوا المحكمة تتلطف أو تتبسط في الحـديث إليهم ضـاقوا بـالمحكمة والمحـاكمة. . فـالنـاس يـرون أن اغتيـال السـادات يجب أن يؤدي إلى إعـدام المئـات. وأن الإعـدام يجب أن يكون فوراً وبلا محاكمـة!! والناس هنـا عاطفيـون. وقـد دفعهم الحـزن إلى الغضب. والغضب إلى نسيـان أن هنـاك قانـوناً، وأن الشهيـد كان ينـادي بسيادة القـانـون. وأن أحداً لا يحاكم أحـداً أولا يتحفظ على أحد إلا إذا كـان هناك ما يبرر ذلك. .

وإذا كـان الإرهابيـون يضحكون فتلك حـالة هستيـريـة. والضحـك هنـا نـوع من التعـويض عن الشعـور بـالخـزي والفشل. فما من قاتل واحـد لا يريـد أن يهرب بعـد ارتكاب جريمته ليشعر بالنصر الثاني على القتيل. .

أما النصر الأول فهو أنه قتله. وأما الثاني فهو أنه استطاع أن يهرب وأن يستأنف حياته سعيداً بهذا الإنجاز العظيم. وقد حاول بعضهم أن يهرب. وهرب. وأمسكوه. .

ثم إن اليأس من النجاة هو الذي يدفع الإنسان إلى أن يفعل ما يشاء من الضحك واللهو والسخرية بالمحكمة وبالناس وبالنظام، لأنه يعرف أن النهاية هي الموت أو السجن المؤبد. . وإن حسن السلوك والأدب لن يخفف عنه شيئاً. . ثم إنه لم يعد يخاف، فليس بعد الموت ولا قبله شيء يخيفه. انتهى كل شيء. وهو الآن حر من كل قيد، لأنه إن لم يكن ميتاً فهو في عداد الموتى! . .

وإذا كان للشبان المتطرفين قاموس نحن نسميه «قاموس الشيطان» فيجب ألا ننسى أننا نحن أيضاً قد شرعنا في تأليف قاموس أكثر سوءاً. . ومن أهم معانيه الخاطئة: أن هؤلاء الشبان حيوانات شرسة متوحشة. . وأنه لا قانون ولا سيادة للقانون عند محاكمتهم. . وأننا قد مللنا من الكلام عنهم، وبعد الملل لن نهتم كثيراً بدراسة أحوالهم أو بهم، لأن هذا قد حدث كثيراً وسوف يحدث كثيراً. . وإذا كان الشباب مرضاً، فقد أصبح الاهتمام بهم مرضاً. وأصبح الملل وقاية، والنسيان ضرورة. وعلى ذلك فبدلاً من أن نتهم الشبان، يجب أن نتهم الآن أنفسنا؟!

وهذا الذي بدأ يصيبنا هو أخطر من هذه الأفكار

المتطرفة. أخطر على مصر من هؤلاء الشبان. لأننا الأغلبية القوية التي تنهار وتتفكك أمام الأقلية الشابة. .

وإذا كان المرض من عندنا، فإن الشفاء من عند «الله» ـ مع رجاء خاص بالنظر إلى معنى كلمة «الله» في قاموس القاتل وقاموس القتيل! . .

من أين نبدأ؟ سؤال يجب ألا يظل تقليدياً!

أنت كإنسان متحضر من أين جئت؟ . . والسؤال ليس متأخراً. فنحن نتساءل عادة في مواجهة الأزمات والكوارث الكبرى. ويكون السؤال مثل مظلة واقية ننشرها حتى نهبط بسلام. وقد اعتاد الإنسان على أن يقف بثبات في وجه المصائب. وأن يتساءل: إلى أين؟ . . أو على الأصح: أنا إلى أين؟ . .

أي في مواجهة: أزمة عدم الثقة . . أو فجوة الأجيال . . أو أزمة الشباب والعنف . . أو التطرف الديني . .

ولولا حاجة الإنسان إلى النجاة من الموت والمرض والكوارث ما تولدت الاختراعات. فالحاجة هي أم الاختراع، وهذا هو جوهر الحضارة الإنسانية.

ولما سئل الأديب الفرنسي فيكتور هيجو عن كيف ولدت الحضارة؟ أجاب: من دموع المسيح ومن ابتسامة فولتير ـ أي من المثل الأعلى للإيمان والرحمة، ومن العلم والفلسفة والسخرية من أن تمشي طول الطريق وراء أي مسيح!

ولمـا سئـل الفيلسـوف الأمـريكي فـرانكلين عن معنى الحضارة قال: أن تتوافر للإنسان كـل أدوات العمل والحيـاة، وأن يتوافر له الوقت لكي يستريح من كل ذلك. .

والفيلسـوف الإنجليـزي كـارليـل قـال: الحضـارة هي البارود والطباعة والثورة على سلطان الدين. .

وأستاذنا العقاد قال: أن تشعـر الأقلية بـالأمان في حضن الأغلبية ـ أياً كانت الأقلية، وأياً كانت الأغلبية. .

ففي مواجهة الأزمات يكون رد الفعل غريـزياً. فـالإنسان يخشى أن يمـوت فجأة وأن تتـلاشى دنياه. ولـذلـك فعنـدمـا يتسـاءل عن مستقبـل حيـاتـه، يكـون التسـاؤل دليـلاً على التفـاؤل. لأن معناه أن هنـاك وقتاً للحيـاة وللتخلص من هـذه الأزمـة. . ففي ألف ليلة وليلة عندمـا طار النسـر وبين رجليـه أحـد التجار فـزع التاجـر. ولكنه وجـد ما يسعـده حين قال: الحمـد لله أنني لم أملأ بـطني طعـامـاً وإلا لسقـطت من بين مخالبه محطماً!

مـع أنه لـو سقط جائعـاً فسوف يتحـطم ـ تكفي جـاذبيـة الأرض!

وفي «كليلة ودمنة» نجد الأسد عندما مرض لم يعـد أحد يـزوره. فلم يعد قـوياً. وفي نفس الـوقت لم يعد قـادراً على أن يصيـد فرائسـه، فكان يـأكل زواره من الحيـوانـات. ولمـا

انقطعت الحيوانات عنه قال: لو بقيت فإنني سوف أموت جوعاً. .
ولو خرجت وسقطت من الإعياء فإن الطيور سوف تنهشني. . إن غلطتي أنني لم أكن كريماً مع هذه الحيوانات. . وهذا ما سوف أفعله عندما أنهض من رقدتي!

ولم ينهض. ولكنه في مواجهة الموت جوعاً، تساءل مقدماً عن الذي فعله والذي ينبغي أن يفعله. .

وابن بطوطة في رحلاته يروي أنه عندما كان في بحر الصين هبت عليهم عاصفة عنيفة أطاحت بركاب السفينة. وراح كل واحد ينذر لله إن وصل إلى البر سالماً أن يصلي ويصوم ويتوب. .

يقول ابن بطوطة: لو كان هذا حال كل الناس إذا هاج البحر أو هبت العواصف ما خرج الإنسان من بلاده، ولما اكتشفنا مجاهل الدنيا، ولما عرفنا عادات الناس.

إن الثبات ضد البحر والموج والمرض والجوع والظلم والظلام، هو جوهر الحضارة!

كأنما أراد أن يقول: إن هذه هي تحديات الإنسان التي صنعت حضارته!

وقد عرفت الحضارة الإنسانية كل أنواع التحديات: الحروب والأوبئة والجوع والبطالة. ووجدت طريقاً للخلاص منها، لتقع فيها من جديد. ولتقيم فوقها الجسور وتحتها

الأنفاق وتتجاوزها بالطائرات . . وإلى مالا نهاية .

فكيف نبدأ شيئاً جديداً في مواجهة القديم الذي لا يعجبنا؟

يقول برنارد شو: إن آدم عندما نزل إلى الأرض وجد زوجته تسوي شعرها، فراح يقلدها. وفجأة أمسك فأساً وراح يقلب الأرض. وأمسكت زوجته أوراق الشجر وراحت تصنع ملابسها.

يقول شو: ولم يكن لدى الإنسان وقت لأن يتساءل.

أي أنه بدأ أية بداية. واستمر في ذلك . .

فما هي هذه البداية التي نتحرك إلى ما بعدها؟ . .

عندما سئل أحد الفلاسفة الألمان عن سر عبقرية الشعب الألماني. قال: أننا قبل أن نذهب إلى الجامعة، نمر على الثكنات!

أي أن المجتمع الألماني به جامعات وبه ثكنات. وقبل التفرغ للعلم، لا بد أن يتعلم المواطنون النظام والطاعة والانضباط وروح الفريق.

وعندما سئل الأب توماس الأكويني الفيلسوف الفرنسي : إن كان الإيمان كافياً للتفوق في العلم. أجاب: لا تفوق في شيء بغير إيمان!

وقال: إن الوسيلة الوحيدة لأن تكون لنا حياة، هي أن نعيش في الأديرة، ثم نعود إلى الناس وقد زدنا إيماناً ورغبة في تحسين ظروف الحياة.

ولا تختلف حياة الدير عن حياة الثكنات: فهي عزلة وتفرغ وانضباط وزهد وتضحية..

وحياة العلماء الآن في الدول الصناعية الكبرى هي العسكرية والرهبانية. فالعلماء يعيشون في أماكن بعيدة عن ضوضاء المدن وعن الإرهاق الذي تسببه العلاقات الاجتماعية. فهم يعيشون في «سجون علمية» ـ وهذه السجون هي مصدر النور والحرية لكل الشعوب.

ولما سئل «دوكو» أبو الاقتصاد الياباني عن عبقرية الشعب الياباني، كان من رأيه: أن المصانع ليست إلا أسرة. إنها حياة العائلة الواحدة بكل ما في كلمة العائلة من معنى ريفي قديم. فالمصنع عائلة مرتبطة تماماً!

وعمال المصنع قد ولدوا ليموتوا في داخله. وإذا ترك الواحد منهم هذا المصنع فإنه لن يذهب مطلقاً إلى مصنع منافس. لم يحدث، وإذا حاول أحد عمال هذه المصانع أن يذهب إلى مصنع منافس، فإن المصنع لا يقبله. لأن العائلات أسرار. والعائلات اليابانية تتنافس ولكنها لا تتصارع.. إنما تتفوق على المصانع الأوروبية والأمريكية

من أجل رفاهية وعظمة الشعب الياباني كله. .

وقد حدثت في الثلاثين عاماً الأخيرة تطورات هائلة. . اختفى ما كان يسمى بالتحدي الأمريكي. فقد كانت أمريكا هي أقوى دول العالم صناعة وأكثرها تطوراً. ولذلك كانت روسيا أكثر تطوراً في السلاح وعلوم الفضاء. ولكن بعد أن ظهرت دول صناعية أخرى متطورة مثل فرنسا وألمانيا واليابان، لم يعد أحد يتحدث عن التحديات الأمريكية أو الروسية. فقد استطاعت هذه الدول أن تبلغ ما بلغته أمريكا وأن تهدد مصانعها وأن تخطف مئات الملايين من المستهلكين في العالم كله.

فكيف حدث ذلك؟

في عبارة قصيرة: حدث في القرون الثلاثة الماضية أن كانت الزراعة هي النشاط الإنساني الغالب، وبعد أن كان العامل الزراعي هو الأغلبية جاءت الثورة الصناعية باستخدام الحديد والفحم. ولم تؤد الثورة الصناعية إلى تطوير العمل الزراعي. ولكن المنافسة الزراعية والرغبة في الإنتاج الأوفر، أدت إلى أن دخلت الميكنة في الزراعة. فتطورت الزراعة. ولكن الصناعة انتقلت إلى مراحل أكثر تقدماً، وزاد عدد عمال الصناعة. وظهرت أعمال أخرى جديدة: كالإدارة والتسويق والتمويل والصيانة والتطوير. وفي العشرين عاماً الأخيرة قفزت صناعة الألكترونيات، وبلغت

قمتها عند صناعة العقول الألكترونية التي بدأت بعقل الكتروني أمريكي في حجم الغرفة.. إلى أن أصبح العقل الألكتروني في حجم علبة الكبريت. وفي العشر السنوات الماضية زاد عدد العمال الذين يشتغلون في صناعة العقول الألكترونية والآلات الحاسبة وساعات الكوارتس. وسوف يؤدي ذلك إلى ثورة خطيرة جداً ترفع عدد العمال وتخفض استخدام الطاقة. وهذه الثورة التي انتقل إليها العالم اسمها «ثورة المعلومات».. لأنه أصبح من الممكن اختزان أكبر كمية من المعلومات في أصغر الأجهزة، وهذه الأجهزة لا تعمل بالبترول إنما تعمل بمصادر أخرى جديدة.. إن المجتمع الذي نعيش فيه الآن اسمه: مجتمع المعلومات تنقلها وتحفظها وتعرضها العقول الألكترونية.. هذه العقول الألكترونية هي التي اتخذت شكل الإنسان الآلي في كل المصانع الكبرى!

وفي قصة حياة المخترع الاقتصادي الياباني «دوكو» يقول: إن هذه التطورات الهائلة تدل على عظمة العقل الإنساني. وإن المصدر الحقيقي لكل شيء هو هذا الجهاز الأعجوبة الذي على كتفيك. إنه المخ الإنساني. وإلى هذا المخ يجب أن نتجه بأفكارنا. فإذا عرفنا المخ الإنساني، وهو المصدر الذي لا ينفد للإبداع، فكل شيء بعد ذلك هين تماماً! وهذه هي البداية لكل عمل عظيم أو مجتمع

يريد أن يكون عظيماً!

يقـول السيد دوكـو: لو كنـا عرفنـا طبيعـة خـلايـا المـخ الإنساني لوفرنا على البشرية عشـرات السنين في بحث قضايـا لا جـدوى منها. . وهي قضـايا الصـراع والنزاع والخـوف من الحيـاة والخوف من المـوت. . بـل لقضينـا على الحـروب. ففي كـل دولـة في العـالم مـا يكفيهـا ويـزيـد عليهـا من كـل احتياجاتها.

يقـول أيضاً: عنـدما يـولد الـطفل يكـون مخه مكـوناً من عشـرة آلاف خلية. هـذه الخلايـا منفصلة بعضها عن بعض. ولكن هـذه الخلايـا لا تستطيـع أن تعمل وحـدها. لا بـد أن تتشـابك وأن تتمـاسك، بـل إن هـذه الخـلايـا تشبه الأيـدي عنـدما تتـداخل أصـابعها. . وتشبـه الكبـاري التي تـربط بين الشواطىء. . والصورة التي التقـطت لخلايـا المخ عنـد ميلاد الطفل تؤكد هذا المعنى، وتؤكد أن هذه الخـلايا تمـارس كل قدراتها في السنوات الثلاث الأولى للطفـل. . فهي تتماسـك وتستجيب للمؤثرات الخارجية التي تأتي بها الحواس. .

ويقـول: هذه الخـلايا تشبـه أجهزة التـرانزستـور تمامـاً. هذه الترانزستورات في أي جهاز لا بد أن تعمـل معاً. تتبـادل المعومات والفعل وردود الفعل. ولا يوجد تـرانزستـور يعمل منفرداً ـ تماماً مثل كل خلية في المخ.

والعلاقات المتشابكة والترابط بين الخلايا تشبه بالضبط الأسس الأولى لبناء أي مصنع. . الآلات الحديدية والقواعد الخرسانية. . ولكن بعد ذلك يجب أن ننتقل من وضع الأساس الضروري، إلى «التشغيل» وكيفية استخدام الآلات وتطويرها بعد ذلك، ولا يمكن أن نصل إلى نتائج رائعة، إذا كانت العقول الالكترونية رديئة!

المعنى: البداية هي الطفل. البداية هي المخ ومعرفته وتشغيله!

وفي آخر محاضرة ألقاها في طوكيو في العام الماضي قال: إن مجموع العمليات التي يستطيع المخ الإنساني أن يقوم بها ١٢٥ ألف عملية، فما الذي يعجز عنه الإنسان. . أي إنسان؟!

وفي آخر دقيقة في محاضرته التاريخية الثورية، التفت إلى الكرة الأرضية التي وضعت في القاعة وقال: إننا هكذا نقضي على قلق الشباب وسخطهم في العالم كله!

وليس شيئاً جديداً أن أقول أن اليابان دولة ليست لها موارد من الفحم والحديد والبترول. وإن مناجم اليابان هي التي استقرت فوق أكتاف أبنائها.

ويوم كان الرئيس السادات، يرحمه الله، يتمنى أن تلحق مصر باليابان كان حالماً. ولكن أحداً لم يتول تفسير

حلم الرئيس الراحل. ولا كيف يصبح الحلم حقيقة..

وبعض المتسرعين في تفسير الأحلام، رأوا أن نبدأ من جديد.. أي نبدأ من كل البدايات العلمية لنعرف معنى التطور.. فنبدأ بالعربة البخارية ثم بالسيارة البترولية ثم بالطائرة وهكذا.. وليكن ذلك في عشر سنوات.. وفي هذه السنوات العشر تكون اليابان قد تقدمت مائة عام أخرى!!..

وأيسر وسائل الاستفادة من الحضارة هي أن نستورد آخر ما وصلت إليه، وهذا ما نعمله. ولكن المشكلة دائماً: ليست الذي نستورده، ولكن كيف نصونه، وكيف نستفيد منه، وكيف نرتفع إلى مستواه العلمي!.

إن رفاعة الطهطاوي عندما ذهب إلى باريس في منتصف القرن الماضي، قد بهرته الحضارة الفرنسية، وسجل ذلك في كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز». ويوم رأى عربة رش الميادين في باريس توضأ وصلى لله ركعتين «لعله أن يقيض للكنانة مثل هذا الاختراع اللطيف».. ولكن أحداً من المصريين لم يقتبس هذا الاختراع، وظللنا عشرات السنين بعد ذلك نرش شوارعنا وميادينا بالجرادل والبلاليص!.

وفي آخر أيام المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي، لاحظ أن

الفرنسيين يضعون ورق عباد الشمس في كوب به سائل. يدخل الورق أبيض ويخرج أحمر، فبهره ذلك. ثم وجد عندهم المطابع للكتب والصحف . .

ورغم هذه الأشياء الباهرة فقد رآهم غزاة ظالمين، ولما ذهب إلى المحكمة وجدهم عادلين في محاكمتهم للمصريين . . واستنتج الشيخ الجبرتي أن الفرنسيين «رغم أنهم مسيحيون فهم متحضرون حقاً» عندهم علوم زاهرة، ثم إنهم يؤمنون بالعدل والحرية والمساواة أمام المحاكم ـ وهذا معنى آخر للحضارة الإنسانية . .

وقد سجل لنا ذلك في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» . .

ويوم شهدت مصر عربات الرش وعباد الشمس كان الفرنسيون قد وضعوا أسس علم الديناميكا الحرارية ـ التي اكتشفها العالم الكبير كارنو . .

فمن أين نبدأ؟

من عشرين عاماً وقف الرفيق خروتشيف وراء الزعيم ماوتسي تونج، لعله ينهض بألف مليون صيني . .

ووقف الرئيس كنيدي وراء الباندیت نهرو، أملاً في نهضة خمسمائة مليون هندي . .

ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق. فالنهضة لا تكون

باستيراد المصانع والأدوات. إنما النهضة تبدأ بالإنسان. . ولذلك أفلتت الصين من قبضة الروس. . واتجهت إلى اليابان، وعرفت اليابان بسرعة ما الذي يجب عمله. . فقد أدخلت الصناعات التي يمكن أن يتعلمها الصينيون دون مساس بكبريائهم القومية، ثم تولت الصين تدريب شعبها وتطويره علمياً وتربوياً. . حتى وقفت الصين وطالت أعناقها. . وقفت على قدميها.

وكانت بدايتها: الإنسان على أرضها. وليس الإنسان على أرض غيرها. .

وكذلك فعلت الهند أيضاً.

ولنعد لآخر مرة إلى تقرير السيد دوكو، فهو يتضمن نظرة يابانية إلى الحياة الغربية كلها.

يقول: إن هناك شللاً في التفكير والإبداع، وسببه: الصراع المستمر والخوف من الموت والتوترات الدولية. . ثم تلك الهوة العميقة المظلمة بين دول الشمال ودول الجنوب. . أي بين الدول التي تستورد المواد الخام، لتبيعها إلى صاحبة المواد الخام بأسعار مرتفعة. . وملفوفة في ورقة أنيقة اسمها: الجشع وعدم الامتنان!

وقد تأكد هذا الشعور الكريه عندما التقى تشرشل وروزفلت أثناء الحرب. . كان من رأي روزفلت أن الدول

الغـربية يجب أن تـرفع أيـديها عن المستعمـرات، وأن تتـرك لهـذه الدول حقهـا في تقـريـر مصيـرهـا واستئنـاف تـطورهـا بحـريتها. . ووعـد تشـرشـل بـذلـك. . ولكنـه لم يفعـل ولا الـدول الغربيـة. . فتـأخـرت دول العـالـم الثـالث عن التـطور واستدراك ما فاتها عشرات السنين. .

ولكن التجـربـة اليـابـانيـة العـظيمــة هي أحسن نمـوذج للبداية بشجاعة وقوة وصبر، بشرط. .

بشـرط أن يختفي الصـراع والخـوف والقلق الـذي يؤدي إلى الشلل ـ في الدولة الواحدة وبين الدول أيضاً!

شجرة محمد نجيب
ومقشة توفيق الحكيم
ومأساة بشير الجميل

عندما تشاهد الأفلام المصرية القديمة . أو عندما تكون عائداً من الخارج . فإنك تتساءل : لماذا كل هذه القذارة في شوارع مصر ؟

وأنت لا تسأل عن طبيعة القذارة . ففي كل بلاد الدنيا شيء من ذلك . ولكن في كل البلاد ما ليس في مصر . . وهو سرعة إزالة هذه القذارة . والسؤال معناه : أنك تريد أن تعرف طبيعة المصريين التي جعلتهم هكذا . ولكي تهتدي إلى «طبيعة» المصريين أو عاداتهم وتقاليدهم . فأنت في حاجة إلى أن تعود إلى التاريخ . أي كيف كانوا ثم كيف أصبحوا ومعنى ذلك أيضاً أن المصري كان نظيفاً . ثم تغير : يده وشارعه ومدينته . وأصبحت القذارة منظراً اعتاد عليه . فالغريب أن تجد البيوت والشوارع قد خلت من القذارة .

فإذا أنت وقفت أمام كوم زبالة ، وتساءلت عن أسباب هذا الذي تراه ولا تحب أن تراه . فأنت هنا تبحث عن التاريخ المصري للقذارة أو التاريخ القذر للحياة المصرية .

ولكن إذا أمسكت مقشة وأزلت الزبالة فوراً . فأنت رجل عملي وأنت مصلح ، ولكنك متفائل جداً ، أي أنك لم تحسن التقدير فليست مشكلة مصر أن تمسك أنت مقشة وتتفرج عليك وليست مشكلة مصر هو كوم زبالة واحداً تمكن إزالته في يوم . ولكنها مشكلة ملايين الأكوام تتكدس وتزول . أو يجب أن تزول. كل يوم .

ونحن نظلم ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وأنفسنا كثيراً . إذا قلنا أن هذه المناظر الكريهة لشوارع مصر قد بدأت معها . كأنها كانت ثورة على النظافة والنظام مع أنها كانت من أجل النظام والعمل ونظافة اليد . ولكن ربما كان المقصود من هذه العبارة أنه مع بداية الثورة بدأ الإعتماد الكامل على الدولة فالجيش هو الذي ثار شبابه وهؤلاء الشباب هم الدولة الجديدة ، وعلى الدولة الجديدة يجب أن نعتمد لكي نحقق المعجزات اليومية . . مثل خروج الإنجليز وتأميم قناة السويس والمكاسب الاشتراكية وحكم العمال والفلاحين وتحديد الملكية الزراعية وإلغاء الألقاب . فمع الثورة عرفنا أن كل الحكومات التي سبقتها كانت فاسدة . وكذلك كل الأحزاب وكل النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ومع الثورة خرجت الشركات والبيوت الأجنبية التي كانت نماذج للإدارة والنجاح والنظام والنظافة .

ولكن كيف نفسر نظافة الدول الرأسمالية والاشتراكية ـ

أو بعبارة أخرى : نظافة كل دول العالم إلا مصر؟ !

ففي الدول الرأسمالية التي نراها في الأفلام وفي الواقع . تجد كل مظاهر الحضارة الإنسانية . ومن مظاهر الحضارة : نظافة الشوارع والبيوت والمرافق العامة كالمحطات والمطارات والمطاعم والفنادق والحدائق والإسطبلات وفي الدول الإشتراكية التي لا فرق فيها بين الشعب والحكومة . فالشعب حكومة والحكومة شعب والدول الاشتراكية هي نموذج لما لا نراه في مصر ففي مصر نجد أن كل المؤسسات التي تملكها الدولة . هي أكثر نصيباً من الدمار والقذارة والخلل . ونعبر عن ذلك في مصر : أنها مؤسسات ليس لها صاحب .

فكيف نفسر قذارة المؤسسات المصرية التي لها مالك واحد أو أسرة؟! إنها أيضاً قذرة .

إذن : ليس السبب هو الإعتماد على الدولة أو اعتماد الشعب على نفسه . وإنما شيء آخر يتعلق بطبيعة المصريين . فهل المصريون حقاً بهذه القذارة . وإن هذا طبع قديم . وعلى ذلك فثورة يوليو بريئة من كل ذلك؟!

هناك اجتهاد آخر بأننا لو عدنا إلى «الصدمة الحضارية» التي تولدت بدخول الفرنسيين إلى مصر . لوجدنا شيئاً عجيباً . ففي ١٥ يونيو سنة ١٧٩٨ جاء نابليون إلى مصر : أعظم أبطال الحروب موفداً من أعظم دولة أوروبية وأصدر

نابليون أول بيان له إلى الشعب المصري . وتلقف البيان المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي فكان تعليق الجبرتي على هذا البيان نموذجاً لصلابة المؤرخ والمصريين . وفي نفس الوقت يبين مدى انبهاره بالحضارة الفرنسية . ولم يحجب عنه هذا الانبهار كذب نابليون والفرنسيين أيضاً . ففي كتاب الجبرتي «تاريخ مدة الفرنسيس بمصر» نجده يتهم نابليون بالكذب والكفر بكل الأديان . لأنه استهل بيانه هكذا «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه» . وقد فند الجبرتي هذا البيان بأنه كافر تماماً . فقال : «في ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون للملل الثلاث ومخالفون لها . بل لجميع الملل . فهم موافقون للمسلمين في ذكر التسمية ونفي الولد والشريك . ومخالفون لهم في عدم الإتيان بالشهادتين وجحد الرسالة . . وموافقون للنصارى في غالب أقوالهم وأفعالهم . ومخالفون لهم في القول بالتثليث » .

ولمثل هذه المواقف من الحضارة الفرنسية . اعتبر المؤرخ الكبير توينبي الشيخ الجبرتي أعظم المؤرخين في كل العصور .

ومضى الجبرتي يناقش أحوال الفرنسيين وعاداتهم فرآهم يرتدون الملابس النظيفة . وقال : إنهم ليسوا كذلك دائماً . ورآهم يخلطون الطعام بعضه ببعضه . فيضعون

القهوة مع الخمر مع الليمون المخلل مع اللحم في طبق واحد ورآهم يتبولون في الشوارع أمام الناس . ورأى الرجال والنساء يذهبون إلى الحلاق لإزالة شعر أجسادهم ! !

لقد رآهم الجبرتي . رغم علمهم وقوتهم وإيمانهم بالحرية والعدل . قذرين وأن المصريين أنظف من الفرنسيين . وأنه ليس صحيحاً أن مصر كانت قد اتسخت قبل مجيء الفرنسيين .

فإذا كانت فرنسا قد جاءت إلى عبد الرحمن الجبرتي . فلم تجعله يراها شيئاً باهراً . ومصر شيئاً حقيراً . فإن مصرياً آخر قد ذهب إلى فرنسا بعد ذلك بعشرين عاماً إنه الشيخ رفاعة الطهطاوي لقد كانت دهشة الطهطاوي لفرنسا مثل دهشة آدم عليه السلام عندما انتقل من الجنة إلى الأرض - إلى عالم جديد مع فارق واحد : أن فرنسا هي الجنة ورغم أنه رأى فيها كل ما ليس في مصر من علم ونور وعدل وحضارة فإن سلوك الفرنسيين وعاداتهم قد أسخطته عليهم أولو ما شاهده الطهطاوي هو أن الفرنسيين لا يجلسون على الأرض إذا أكلوا ولا ينامون على الأرض أيضاً فلا بد أن يأكلوا ويناموا على مكان مرتفع وكل إنسان له شوكة وسكينة وملعقة وطبق ولا أحد يأكل بيديه مطلقاً وإن كان هو يفضل أن يأكل بيدين أنظف من الشوكة والسكينة وعندما تحدث عن باريس وجد بها الميادين . وحاول أن يقربها إلى خيال

القـاريء . فراح يـذكر عـدداً من ميادين القـاهـرة وقـال إنهـا تشبههـا إلا في القـذارة وتغنى طــويـلاً . شعــراً ونثـراً . في جمال الحدائق والشوارع والغابات والأنهار والشـواطيء ورأى في باريس شيئاً بهره . هو «عربة الرش» وكأن الـطهطاوي قـد عـز عليه ألا تعـرف مصر عـربة الـرش . فحمـد الله على أن جـو مصر ليس حـاراً لدرجـة أن تحتاج القـاهرة إلى عـربـات الرش مثل باريس ؟ !

يقول الطهطاوي في كتابه : تخلص الإبريـز في تلخيص باريز : «أمـا مصر فـإنها سليمـة من مكاره بـرد باريس . كمـا أنها خالية أيضاً من الأمـور المحتاج إليهـا في وقت الحر فـإن أهل باريس سهـل عندهم رش ميـدان متسع من الأرض وقت الحـر . فإنهم يصنعـون دناً عـظيمـاً ذا عجـلات . ويمشـون العجلة بالخيل ولهذا الدِّن عـدة بزابيـز مصنوعـة بالهنـدسة . تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع فلا تـزال ماشيـة والبزابيـز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة في نحو ربـع ساعـة لا يمكن رشهـا بجملة رجـال في أبلغ من سـاعـة ولهم غيـر ذلـك من الحيـل . فمصرنـا أولى بهذا الـدن لغلبة حـرهـا ـ وقـد صـار الآن جل ذلك بمصر !

والـطهطاوي قـد أعجبته عـربـة الـرش . وأنكـرهـا على بـاريس أول الأمر . . تمنـاها لمصـر ، واستراح إلى أنهـا قـد ظهرت في ميادينها وشوارعها ، وقد اختفت الآن !

وبعـد الطهـطاوي بعشرين عـامـاً أخـرى جـاء إلى مصـر المستشـرق الإنجليـزي ادوارد لين وكـــان رجـلاً حسن النيـة صادقاً أراد أن يقدم مصر إلى العـالم الخارجي فـأصدر كتـابه الممتـاز عن عـادات وتقـاليـد المصـريين «وهـو الــذي رسم لوحات هذا الكتاب أيضـاً وهو لم يختلف كثيـراً عن الجبرتي والطهطاوي إلا في أنـه أجنبي وهو محب لمصـر . ولكن هذا الحب لم يعمـه عن عيـوبهـا وعن انتشـار العمى في مصـــر، فأكثر المصريين في رأيه مصابون بـالعمى الكامـل أو بإحـدى العينين وسبب ذلـك انتشـار الـــرمـد ونقص الــدواء والعـلاج ولكن عيـون النساء اصـح وأجمل ، والسبب هـو أن الـرجـل أكثر تعرضاً للذباب والتـراب خارج البيت . ويـرى إدوارد لين أن كـل مزايـا وعيـوب الشـرق مـوجـودة في مصـر : القـديم والجديد والمستقبل أيضاً .

وفي عبـارة بها كثيـر من الصـدق والخجـل يقـول لين ، ولكنهم نشطون فقط عندمـا يطردون الـذباب عن وجـوههم . أنـه إذا لـم تأت ذبـابة ظلت ايـديهم لاصقة بـأجســامهم ـ إلى هذه الدرجة من الكسل !

وهـذه هي البدايـة الحقيقية لـلإجـابـة عن السؤال الـذي بدأنا به هذه السـطور إنه الكسـل الذي جعلهم يلقـون العبء كله على الآخرين ، على أجهزة الدولة بعد ذلك .

ولكن في تلك الأيـام من الاحتلال الفـرنسي والبـريـطاني

بعد ذلك كان الناس يعتمدون على أنفسهم في تنظيف الشوارع والحواري بل إن جمعية تكونت أيام الحملة الفرنسية في مدينة القاهرة . وكان هدفها إلقاء جثث الكلاب بعيداً عن وسط المدينة ـ ولم نجد تفسيراً واضحاً لموت الكلاب كثيراً هكذا ولكن المهم أن جمعية أهلية جعلت مهمتها إخفاء جثث الكلاب في مكان بعيد عن قلب العاصمة . وأن رئيس الجمعية لم يكن من رجال الدين كما هي العادة . وإنما من التجار ، ولم تكن لتجارته علاقة بالكلاب حية أو ميتة ، وإنما هو رجل أحب النظافة . وأراد أن يكون قدوة حسنة . وقد انحلت هذه الجمعية من تلقاء نفسها . عندما لم يعد الناس في حاجة إلى مساعدتها ، ففي كل مرة يجد أحد من الناس حيواناً ميتاً فإنه يقوم من تلقاء نفسه بنقله ودفنه في مكان بعيد .

وهذا هو النجاح وهذا هو الأسلوب .

ويصبح النجاح مؤكداً إذا فعل الناس ذلك بلا سند من أجهزة الحكومة!

ونسمع كثيراً من الأكبر سناً يقولون لقد كانت شوارع القاهرة نظيفة لأن الناس كانوا يغسلونها بالصابون . ويقول آخرون أكثر واقعية وتواضعاً إن صاحب المحل يغسل البلاط أمام دكانه حتى يلمع كالمرآة . وكان أصحاب المحلات يتنافسون في ذلك !

أهو موقف التواكل التام على الدولة . . أو هو الموقف غير الودي من الحكومة؟ من أية حكومة! . . أهو الجهل بأضرار القذارة . . أو هو اللامبالاة بالضرر والنفع وبمصر كلها؟ هل النظافة نوع من الترف لا يقدر عليه الفقراء ؟ أهو الفقر ؟ أهو الضيق باتساع المسافة بين الأغنياء الجدد والفقراء القدامى ؟ هل هذا الضيق هو السبب الحقيقي وراء القلق السياسي والعنف الديني؟ . . أهو ذلك الشعور بالغربة : أي أن يشعر المواطن كأن هذا البلد ليس بلده أو البلد الذي تمناه ، أو كأنه ملك لغيره . . وأنه يحلم ببلد آخر ، ولذلك فهو يغمض عينه عن الواقع فلا يراه ، ويحلم بما هو أفضل ؟ . .

بسبب تراكم هذه الأسباب والعلل والتعليلات تكدست الزبالة في كل مكان . حتى أصبح من السهل أن نعرف مصر من مجرد النظر إلى شوارعها . . فشوارعنا هي وجهنا القبيح الذي لا نحب أن نراه. ولكننا اعتدنا عليه . . أي اعتدنا على هذه الصورة المشوهة لمصر ، والتي ارتضيناها أيضاً . ونحن ارتضيناها لأننا لم نفكر في غسلها وطلائها وتجميلها .

أو هو سبب آخر : انعدام الجدية ، أو انعدام الموقف الجاد المستمر ، أي إذا بدأنا شيئاً، فإننا لا نكمله .

أي أننا أبناء «اللحظة» الجادة . . وليست الساعة الجادة أو السنوات الجادة . . فعندما زرع الرئيس محمد نجيب شجرة في كوم أوشيم . لم يكن القصد من ذلك أن يصبح كوم أوشيم غابة من شجرة واحدة . . ولكن أن تكون هذه الشجرة هي البداية لغابة في هذه المنطقة وفي كل منطقة جرداء قحلاء .

وعندما أمسك كاتبنا الكبير توفيق الحكيم مقشة وكنس متراً من أرض القاهرة . لم يكن المقصود أن نعطيه فرصة لكنس القاهرة كلها . . وإنما كان الهدف أن يبدأ أحد بعمل مفيد . . وأن نمشي وراءه . . فيمسك المقشة كل قادر عليها من الأطفال والشباب . وتوفيق الحكيم لم يكنس أمام بيته . . فليس المقصود أن يبدأ بعتبة بيته . وإنما المقصود أن نقوم بحملة قومية للنظافة في أي مكان .

وكما ماتت شجرة محمد نجيب وغابة كوم أوشيم . وعاد النسيان تراباً وذباباً يلف كل شيء . وأصبحت البيوت تزحف على الأرض المزروعة . والصحراء تزحف على ما تبقى منها . وأصبحت الأرض المزروعة مساوية لما كانت عليه أيام الطهطاوي أي أربعة ملايين فدان . وتكومت القذارة والزبالة واتسعت الخرابات وتوالدت الحشرات والقوارض . وأكلت فيما أكلت مقشة توفيق الحكيم .

إنهم في هولندا يكتبون الأساطير عن الطفل الصغير

الـذي وجد مـاء البحر يكـاد يغرق إحـدى المـدن متسللاً من إحدى الفتحات . فـوضع الـطفل إصبعـه يسد المـاء ، وغلبه الماء ومات الطفل وأنقـذت المدينـة . إن الإنقاذ بـدأ بإصبـع طفـل . بشجرة رئيس ، بمقشـة أديب . . والبـدايـة هـامـة ، ولكنهـا تصبح أكثـر أهمية إذا كـانت متجـددة . . أو إذا ظلت بداية بغير نهاية ! . .

وهــذا عيب عيـوب مصــر أو الخلق المصـري : عــدم القدرة على الإستمرار !

وإذا كنت قـد وصلت في قراءتـك لهذا المقـال إلى هذا الحد . فهي شجاعـة وصبر منـك على النصيحة . فـالقاريء كان يفضل أن يقـرأ عن اغتيال بشيـر الجميل وتـرشيح والـده أو أخيـه ـ إنهـا اسـرة كنيـدي اللبنانية المنكـويـة ـ أو كميـل شمعون لرياسة الدولة الممزقة التي سوف تزداد تمـزقاً . وقـد كتبت هنـا كثيـراً أن الأوضـاع الـدستـوريـة تـراعي نسبـة : المـارون إلى الكاثـوليـك إلى الـروم الأرثـوذكس إلى الشيعـة إلى السنـة إلى الدروز . ولكن لبنـان الآن تقبل القسمـة على ألـوف العائـلات والعشائـر والقبائـل السيـاسيـة والاقتصـاديـة ومرتزقة الدول العربية والـدول الكبرى والعـظمى وإسرائيـل ـ فعلى لبنـان السلام ، بـل لن تعرف السـلام حتى نهايـة هـذا القـرن . ورغم أن هـذه العبـارة أقـرب إلى وضـع لبنـان في كفن من الحــريــر الــرقيق الأســود ودفــع الكفن إلى نعش

الصراعات الدولية وإنـزال الستار على جنـة الشرق الأوسط . فـإن القاريء كـان يفضل البكـاء من جديـد على لبنان وعلى العـرب لمـاذا؟ لأن الحـديث عن قـذارة مصـر فيـه فضيحــة للمصـريين ومواجهـة قاسيـة لهم ، وتعـريتهم أمـام أنفسهم : لأن القـذارة والكسل والتـواكـل والحمـاسـة المؤقتـة من أهم عيوبنا التي أودت بمصر . . فكل كلمة من هذه الكلمـات إن لم تكن شلوتـاً للقـاريء فهي صفعــة على قفـاه . وتلطيــخ لكبريائه . وهتك لعرضنا أمام العرب .

ونسيت أن أقـول وأمـام السيـاح الأجـانب أيضــاً . فقـد اعتـدنـا على الخــوف من الأجـانب ، ونحن معـــذورون في ذلـك . . فقد جـاءوا مصر غـزاة محتلين . وقد غـزونـا لأنهم أقـوى وأكثر تـطوراً . . وقد كـرهنـا الأجنبي وإن كنـا نعتـرف مثل الطهطاوي والجبرتي بأنهم أكثر علماً . ولذلـك فالسـائح الأجنبي له ألف حساب عندنا . وكثيـراً ما نقـول لأنفسنا مـاذا يقول عنا السيـاح الأجانب ؟ أو حتى لا يقـولوا شيئاً يجب أن نكنس ونـرش الأرض . ويجب أن نـقــدم لــلأجــانب مـن الخـواجات أو من الضيوف المصريين أفضـل مـا عنـدنـا من أطباق وطعام . . لأن رأي الآخـرين يهمنا جـداً . . وصورتنـا عند الغير تكلفنـا كثيراً . . ومعنى ذلـك أننا لا ننشـد النظافـة لـذاتها . ولكن لأن النـظافة دعـايـة لنـا . . أو تـزويـر جميـل لحقيقة قبيحة : هي أننا كسالى لا مبالون .

ومنذ أيام عدت من يوغوسلافيا ورومانيا وباريس . . وهي جميعاً تتفق في شيء واحد : أنها نظيفة . والنظافة هي أول كلمة تخرج من فم أي مصري عائد من الخارج . وهي صفة للبلاد التي رآها . وأمل في أن يجد لهذه الصفة معنى في مصر . . ونحن الآن في أيام الخريف . وشوارعهم الواسعة جداً قد امتلأت بالأشجار من كل لون وكل نوع . . ولكن الذي ادهشنا هو أننا لم نجد أوراق الخريف على الأرض . وليس معنى ذلك أن الأشجار لا تتساقط أوراقها . وإنما معناه أنها تساقطت على الأيدي التي تنتظرها حتى لا تتسخ الشوارع بألوانها الصفراء ! . .

وهذا هو التشابه الوحيد بين شوارعنا وشوارعهم : فنحن لا نجد أوراق الخريف في شوارعنا ، لأن شوارعنا قد أكلت أشجارها .

ولكن حدث في بوخارست أن التقيت بعدد من الدارسين . . وكان الحديث كله عن مصر ، وكيف يمكن أن نجعلها جديرة بهذا الإسم العظيم . كيف ننظفها مثلاً . قال أحد الدارسين إنهم في رومانيا لا يدخنون في الأماكن التي تمتليء بالناس . . لا في المحلات ولا في الصيدليات ولا في قاعة الإجتماعات . . وفي نفس الوقت لا تجد لافتة تنبه أحداً إلى عدم التدخين . ولم يكد يفرغ من عبارته هذه حتى لمحت واحداً من الدارسين قد أشعل سيجارته .

فداعبته قائلاً : ألا ترى أنكم غير جادين؟ . . إن واحداً يدخن في غرفة بها خمسون مصرياً !

وضحكوا جميعاً .

وكان هذا الضحك دليلاً على الشعور بالخجل . تماماً كما تنظر إلى إنسان قد سقط بنطلونه . . ولكن رغم هذا الشعور فقد مضى المدخن يملأ صدره وأنفه والغرفة بالدخان . . وقلت معلقاً على ذلك : هكذا . . إننا غير جادين ، فأنتم تريدون إقناعي بأن نفعل مثل أهل رومانيا . . وأنتم تريدون ذلك . . ولكن هذا الأمل قد سقط عند أول امتحان له!؟.

ومنذ أيام رأيت في التليفزيون تجربة قام بها بعض المواطنين في تحويل مناطق المجاري إلى حدائق صغيرة ، دون مساعدة من الدولة!

إنها المرة الأولى التي تزحف فيها الأرض الخضراء على أرض المباني ، الأرض المزروعة على البيوت المخنوقة . .

وسمعت أن عشرين حديقة صغيرة قد زرعت في مناطق أخرى . وأن هذه تجربة عمرها خمس سنوات . . نمت ونمت في الظل والظلام . ومن الممكن أن تموت التجربة سراً كما عاشت سراً . يكفي أن تتوقف عند هذا الإنتصار

الـذاتي ـ أي انتصار بعض النـاس على كسلهم وتـواكلهم ولا مبالاتهم . .

ولكن لكي يكـون هـذا الإنتصـار سـاحقـاً ، يجب أن نشجعـه في كل مكـان أن نشجعه نحن المـواطنين والهيئـات والجمعيـات والشركـات والبنوك والمؤسسـات الإعـلاميـة . . ونحن جميعاً الحكومة والشعب . أو الشعب الحكومة .

وبغيـر مثل هـذه التجارب الـرائدة ، فـلا أمـل في شيء يبقى أو يـزول ، إن الذي رأيتـه في التليفزيـون شيء عظيم ـ ولا أقصد أن المساحة عظيمة . فالمسـاحة لا تتعـدى المئات من الأمتار . . ولكنه نموذج عظيم ، ويصبح أعظم إذا انتقلنـا به ومعه ووراءه من حي إلى حي ومن مدينة إلى مدينة .

ومن الممكن أن نشعر بهول ما سوف يحدث ، فالقـاهرة ضخمـة . وأكـوامهـا بـالمـلايين . ومن الممكن أن نصـاب بـاليأس . . ولكن الـذين حققوا هـذه النمـاذج النـاجحـة هم أفضـل قدوة لنـا وأكبر دليـل على أنه إذا كـانت اللامبـالاة من أخلاق المصريين . فهي قـد أصابت «بعض» المصـريين . . وإذا كـان التـواكـل أسلوبـاً . فـإن مصـريين آخـرين قـد رفضوه . . وإذا كان اليأس عاماً . والأمل خاصاً ، فـإن الأمل من الممكن أن يكـون عـامـاً ـ وهـذه التجـارب الصغيـرة ليست إلا مثـل شجرة محمـد نجيب ومقشة تـوفيق الحكيم : بدايات ناجحة . . أو يجب أن تنجح ! . .

نعم . . يجب أن نزرع
أكثر من شجرة. ولكن أين؟!

ما الذي نزرعه عندما نزرع شجرة؟ . .

نزرع حياة. نزرع لوناً. نزرع هواء نقياً. نطلق عطراً ذكياً. نزرع زهرة. نزرع ثمرة. نفرش ظلاً. نبعث طيراً. نزرع سفينة ونصنع شراعاً. نزرع كتباً وصحفاً وفاكهة. نزرع الجمال والحب. نواجه البوار بالحقول والغابات. نتحدى الصحراء. نتحدى الفناء.

تساعد الأرض والسماء من يزرع شجرة. لأنه يزرع معنى للحياة والأحياء ولسكان السماء . .

وإذا كانت منظمة السياحة العالمية قد اتخذت شعارها القادم: فلنزرع شجرة، ثم اتخذت وزارة السياحة المصرية هذا الشعار أيضاً، فالعالم كله يريد أن يتمسك بالحياة . . يريد أن يعود إلى الطبيعة . . إلى الفطرة. إلى عصر ما قبل الأسلحة النووية، والصواريخ التليفزيونية، والليزر السرطانية، وسفن الفضاء الجاسوسية . .

ولا يفلت من السخرية من يجعل شعارنا أن نزرع شجرة. فمصر بلد زراعي. هكذا تعلمنا في الكتب. وقيل لنا أيضاً إن النيل قد أهدى مصر إلى شعب مصر. أهدانا الماء والأرض. ولم يحرص أبناء مصر على الهدية. لقد بددوها. أضاعوها. رهنوها. دفنوها تحت بيوتهم الجديدة. والذي لم تدفنه البيوت بعد، تركناه لرمال الصحراء. وزحف الصحراء على الوادي اسمه «التصحير» وزحف الوادي على الصحراء اسمه «التشجير». فلم تتسع الأرض تحت أقدامنا. لقد بقيت كما تركها لنا الخديو إسماعيل، بينما زاد الناس خمسة وثلاثين مليوناً. .

فنحن لم نزرع شجراً ولا أصلحنا أرضاً ولا وسعنا وادياً وإنما حصرنا أنفسنا بالرمال، وخنقنا آمالنا على ضفتي النيل. ولم يفكر أحد في الإفلات من هذه الضائقة الزراعية المالية الاقتصادية الاجتماعية. . ومع بداية ثورة ١٩٥٢ كان الضيق بكل شيء شعار العصر. وأول ما اهتدينا لتفريج هذا الضيق: أن نزرع شجرة. . وذهب الرئيس محمد نجيب ليزرع شجرة. واختاروا له «كوم أوشيم» وزرع شجرة، وترك الشجرة. وماتت الشجرة. الفكرة. القدوة. الأمل. ولم نفلح في أن نجعل زرع الشجرة واجباً على كل زائر لمصر أو كل زائر لأية مدينة أو قرية. . ولم نستهل كل مشروع جديد بأن نزرع شجرة. تماماً كما نستهل كل شيء بتلاوة

من القرآن الكريم أو بـذبح خـروف أو صنع طـاجن من الأرز باللبن . .

ولـم يفضحنا شيء كما فضحنـا «كوم أوشيم» . . فقـد كنا نـظن أننا نبني الحيـاة . فتركنـا الحياة تمـوت . كنا نـظن أننـا فلاحون نحب الأرض الخضراء . فأثبتنـا أننا نفضلهـا جرداء . كنا نظن أنا نقدس مـوتانـا كالفـراعنة ، فلم نقـدس موتـانا من الأشجار . ولـم نقدس مـوتانـا من الذين مـاتوا من أجلنـا . إننا ننبش قبورهم ثم نأكلهم . وبـذلك يعيش المـوت في دمائنـا . وهكذا نضيف نوعاً جديـداً من القبور : القبـور المصنوعـة من الـطين وأجسادنـا . فنحن الأحياء قبـور لموتـانـا . وإذا كـانت بعض القبائل البدائية تأكل مرضاها وشيوخها ، فنحن لا نأكـل إلا العظماء من موتانا . وأحط الحيوانـات المفترسـة هي التي تـأكـل الجيف . . ونحن أيضـاً لا نحب أن نـأكـل الأحيـاء ، وإنمـا نحب أن نقتـل الأحيـاء . ثم نجعـل لهؤلاء الضحـايـا رائحـة كريهـة ، فإذا كـانت لها هـذه الـرائحـة ، أقبلنـا عليهـا بشهية مفتوحة . .

إن «كوم أوشيم» هو علامة من علامات التـاريخ الفـاضح لأنفسنـا . ولذلـك فنحن ـ عـادة ـ لا نشيـر إلى ذلـك . وإنمـا نتستـر عليه . فعلى هـذا الكـون وفي الـطريق إليـه ، افتضـح كذبنا . عنـدما ادعينـا أننا قـد اتخذنـا شعار زراعـة الأشجار . وفضحنا أنفسنا لأننا مدمنون للشعارات . ولأننا مدمنـون فنحن

لا ندري ما الذي نقول وما الذي نفعل. ولأننا مدمنون فإن هذه الشعارات قد فقدت معناها. وليس شعار «ازرع شجرة». إلا شجرة هو الآخر. زرعناها. ثم تركناها لتموت. حيث ولدت. لتموت واقفة كالأبطال. ولتدفن حيث ماتت كالأنبياء. .

وهكذا أصبح «كوم أوشيم» من علامات العصر. . وبعده عرفنا مشاريع كثيرة لها نفس المعنى. .

فنحن لم نكن جادين يوم زرعنا كوم أوشيم. ولا كنا جادين عندما تمزقت قلوبنا حزناً على أشجار في أحد شوارع الجيزة. قطعوها ليوسعوا الشارع. أو قطعوها حتى لا يختبىء وراءها أحد فيطلق الرصاص على أحد. . إنها أشجار قد زرعها الخديو إسماعيل أيضاً. .

وعندما أمسك أديبنا الكبير توفيق الحكيم مقشة ليكنس جانباً من أحد الشوارع، كان يحاول أن يجدد ما حدث في كوم أوشيم. . أن يبدأ شيئاً ليكمله الناس من بعده. . فيتعاونوا على نظافة شوارع القاهرة. . فقذارة شوارعنا من علامات المدينة. كما أن الرمال الزاحفة من علامات الريف. . وكما أن التخريب من علامات الروح المصرية. .

وعندما ألقى توفيق الحكيم بالمقشة جاءت الرياح وقذفت بالمقشة إلى كوم أوشيم. فالمقشة التي هي بقايا

شجرة ميتة. قد ماتت مزة أخرى.

ونحن صغار كانوا يعلموننا زراعة القمح في أوراق النشاف. أما الآن فلا نشاف ولا قمح. ومن الغريب حقاً أن أحداً منا لم يزرع شجرة على أرض أو على ترعة أو في الصحراء.. ولما زرعنا مديرية التحرير والوادي الجديد. أفسدنا كل ذلك بالتشهير والتشنيع والتنكيت. ولما رأينا الرهبان يزرعون الصحراء في صمت، ولما رأيناهم يصدرون الفاكهة إلى كل فنادق مصر، ولما وجدناهم يستوردون أحدث الآلات، تعجبنا لذلك. وأطلقنا الشائعات.

وأدهشنا أن اليهود قد زرعوا صحراء النقب. وزرعوا سيناء. وتجددت عندنا أحلام «كوم أوشيم».. وتقدم شبان كثيرون يغامرون يزرعون ويصنعون ويبنون، ولكن ليس كثيراً ما فعلوه. وإن كانوا رواداً يحتاجون إلى أن نشجعهم على زراعة شجرة فوق كل صخرة، ولكن بقيت المشكلة كما هي: شبان يزرعون الصحراء، وأهل المدن يأكلون الأرض المزروعة، وبدلاً من أن نبني بيوتنا على الرمال، فإننا أقمناها على الأشجار. وبدلاً من أن تتسع المدن، فإننا ضيقناها على أنفسنا وحشرنا أجسادنا في العمارات العالية.. هل نحتاج إلى قانون؟ نعم. ولكن ما أكثر القوانين، وما أقل الذين يطبقونها!..

وكان الرسول ﷺ ينصح بألا يقطع الناس الأشجار. بل

إن له حديثاً حكيماً معناه: ترفقوا بأخواتكم النخل. .

وقد روي عنه عليه السلام أن النخل يسمع ويتألم. وذهب هذا الحديث على أنه معنى جميل. وإن الرسول يطلب من الناس الرحمة بالأحياء من الأشجار والحيوانات والإنسان. وإن الذي يترفق بالنخيل، أي بهذا الكائن الحي، هو الذي سوف يكون رحيماً مع غيره من الأحياء. وإن الرسول هو أول من نصح المسلمين بأن يعيشوا وأن يدعوا غيرهم ليعيش أيضاً. .

وفي السنوات الأخيرة أثبتت الدراسات العلمية أن الأشجار تتكلم، وأن لها لغة، وأن هذه اللغة على شكل موجات صوتية وضوئية. وقد سجلت هذه اللغة، وقد نشرت المجلة العالمية «باري ماتش» منذ خمس سنوات صوراً بالألوان لما تقوله الأشجار والأزهار عندما تدخل إحدى الفراشات، وما الذي تقوله هذه الأشجار إذا كان القادم عصفوراً أو غراباً أو كلباً. . وكيف تحس الزهور بالفراشة التي سوف تحط عليها، ثم تستدرجها الزهور برائحتها لكي تعصرها وتمتصها. .

وقد نشرت المجلة أيضاً صوراً بالألوان وبالأشعة للنزيف الباطني لإحدى الزهور عندما قطعت. . وكيف أن الزهرة نفسها تبكي وأن الشجرة أمها تبكي أيضاً. والذين

كتبـوا هذا المقـال الطويل ليسـوا من دراويش المسلمين ولا من الشعراء الرومانسيين، ولكنهم علماء آمنـوا بأن للكـون كله لغة مشتركة، كما أن لـه قوانين صـارمة تمسـك كل أطـرافه. وهــذه القـوانين هي «حكمــة» الله التي وسعت كـل شيء. والتي أحكمت ربــاط كـل شيء بكــل شيء وكـل حي: من الأشجار والأحجار والحيوان والإنسان. .

وفي أواخر القرن السابع عشر في أوروبا تعـالت الدعـوة إلى الـطبيعة. . إلى الحيـاة بعيداً عن المـدن. . في الحقـول والغـابـات. . وقـد فـزع النـاس من العصـر الصنـاعي بعـد ذلك. . مع أن الصناعة في ذلـك الوقت ليست إلا محـاولات بدائية. إذا قـورنت بما بلغتـه الصناعـة الآن. . وراح الشعراء الـرومانسيـون يتغنون بـالنباتـات وبالحيـاة البدائيـة هـربـاً من الحيـاة الأوروبية. . وكـان المثـل الأعلى عنـدهم: مجـاهـل إفريقيا والحيـاة البدائيـة والنسيان، فقـد ضاقـوا بحياة المـدن وقيود الحضارة وضوضاء الصناعة وجبروت الآلـة وسيطرة العلم والعقل والحساب والاقتصاد. .

وظهـرت جماعـة «الطبيعيين» التي تـطلب من النـاس أن يقفـوا في وجـه السيـاسـة والتجــارة. أو التجـارة والــدعـارة الفكــريـة، وأن يعــودوا إلى الحقـل، إلى الــزراعــة، إلى الفلاحة. .

وقد تزعـم الفيلسوف الفرنسي فرنسوا كينـاي هذه الـدعوة

الثـوريـة، ولم يكن من السهـل عليـه أو على أي أحـد، أن يـوقف الـزحف العلمي والتـوسـع السيـاسـي والجشـع الاقتصـادي. ولكنه كـان جرسـاً يدق بـاقتراب الخـطر الـذي استشرى الآن. . حتى ضاقت المسافة بين المـدينة والقـرية، بـل لم تعـد هنـاك قـرى، وإنمـا مـدن صغيـرة، ومصـانـع ومدافن، وهواء ملوث وماء فاسد وأطعمة مسمومة. .

ولست «الثـورة الخضـراء» في أوروبـا وأمـريكـا الآن إلا ضيقـاً بالقضـاء على الحيـاة بـاستخـدام أسلحـة الـدمـار. أو بالتوسع العمراني الذي أزال الغابـات والحقول. وفي ألمـانيا جماعات شـابة، «جمـاعات خضـراء» أو جماعـات الغاضبين الخضر، إن شعارهم هـو أن تترك الأشجـار تعيش كما نعيش نحن. .

وفي أمريكا تزعمت السيدة راشيـل كارسـون هذه الثـورة الخضراء، وكان دستور هذه الثـورة كتابهـا الممتع «المستنقـع الهـادىء». أما هـذا المستنقع فقـد اتخذتـه رمزاً لمـا أصـاب الحقول والحدائق في أمريكا بسبب المبيـدات الحشريـة التي قضت على الطيور والفـراش. فسكتت هذه الجنـة الخضراء. وسـوف تؤدي هـذه المبيـدات أيضـاً إلى الـقضـاء عـلى الأشجـار، وبعـد الأشجـار سـوف تقضي على الأطفـال. لأن هـذه المبيـدات تنتقـل مـع الأعشـاب والثمـار إلى لحـوم الحيـوانات وألبـانها. . وبعـد ذلك إلى الإنسـان، وهكذا يتم

خنق الإنسان: فالهـواء ملوث والماء ملوث والـطعام ملوث. فالإنسان هـو الذي يصنـع أدوات موتـه، وهو الـذي جعل من نفسه مقبرة لنفسه . .

وهكذا تتحول الحياة إلى مستنقع مـات فيه وحـواليه كـل الأحياء! . .

وفي أمـريكا يجعلون مقـابرهم في حـدائق جميلة وتحت غابات كثيفةوحول بحيرات ساحـرة، وتجارة دفن المـوتى هي من أكثـر الصنـاعـات رواجـاً. ففي الصحف إعـلانـات عن المقبـرة النمـوذجيـة التي تحب أن تـدفن فيهـا أعـز النـاس لـديك . . أو تختـارها لنفسـك . . تحت شجرة أو في غـابة أو على شـاطىء بحيـرة . . كم طـولهـا . . كم عـرضهـا . . كيف تكـون مستريحـاً حتى بعد مـوتك . . إنهـا الأشجار التي تبهـر الأحياء في طريقهم لزيارة موتاهـم . . والبكـاء على مقعد أنيق ومشهد جميل! . .

ولكن أين نزرع هذه الأشجار؟ . .

إن قلت نـزرعهـا كمـا زرعنـا «كـوم أوشيم» فقـد أضعنـا الـوقت في كلام قـديم. وإن قلت بل نـزرع كومـاً جـديـداً. كـانت هذه العبـارة شعاراً جـديداً. وكـان تكرارهـا دليلاً على أننـا لم نستفـد ممـا كـان، ولم نمـل نفس الكلمـات ونفس المعاني . .

ولـذلـك يجب أن نبحث عن مكـان آخـر لـزراعـة هـذه الشجرة . .

يجب أن نزرعها هنـا ـ وأنا أشيـر إلى رأسي وإلى قلبي . يجب أن تكـون الشجـرة حيـة في أفكـارنـا . يجب أن نقتنـع تماماً بأن الحياة يجب أن تستمـر . وأن الحياة ليست الإنسـان فقط . ولكنهـا الإنسان والحيـوان والنبات . يجب أن نتعلم أن الحيـاة ضـرورة . وأن تـدفق الحيـاة في كـل اتجـاه واجب قـومي . وأن هـذا الـواجب يجب أن يتحقق بـالقـوة . بقـوة الإقناع والإصرار والاستمرار . ولكي يكون ذلـك ممكناً يجب أن نبـدأ بغـرس الأشجـار عنـد الأطفـال ، الـذين هم أشجـار صغيـرة أيضاً . يجب أن تتغيـر مناهـج التـربيـة والتعليم . وأن يكـون البناء والـزرع وتربيـة الطيـور والرفق بـالحيوان وتـذوق الجمـال واحترام الآخـرين : هي أهم مبادىء الحيـاة في كـل مراحلها . .

إذن يجب أن نـزرع الشجرة فينـا . في الطفـل . وبيننـا : بين الأب والابن وبين الجـار والجار . وبين كـل المـواطنين . وإذا كـان من الـواجب أن نـزرع الصحـراء ، فمن الـواجب أيضـاً أن نـزرع العـلاقـات البـور ، وأن نستصلح الـروابط الجـافـة ، وأن نـروي الـلامبـالاة بـالأمـل ، وأن نبـذر الأرض الخراب بالإيمان . .

ولذلك فأنا لا أجد الدعـوة إلى زراعة شجـرة إلا صرخـة

بلا صدى، وإلا أذاناً في مالطة، وإلا تقديساً لكوم أوشيم، وإلا شلوتاً لتوفيق الحكيم، وإلا تطاولاً على الخديو إسماعيل.. وإلا دعوة لثورة مضادة اسمها «الثورة الصفراء» - أي تحويل كل شيء أخضر إلى رمل أصفر. وإلا نسياناً أو سهواً غير مقصود، لجهود رائدة قام بها شبان جامعيون في الوادي الجديد وفي سيناء.. فهم أيضاً يحلمون كما كان يحلم الرئيس السادت بأن يقفز بكل شيء وبكل أحد إلى الأمام، لعله، ولعلنا نستدرك ما فات..

وفي قلب القاهرة أناس زرعوا الأرض، وبالقرب من مدينة الإسماعيلية زرعوا غابة صغيرة، وفي استطاعة كل المدن على حافة الصحراء أن تفعل ذلك، ولكن شيئاً ما يجعلنا نقف ولا نذهب إلى أبعد مما فعلنا. هذا الشيء: إن هؤلاء الرواد المتواضعين يجدون أنفسهم وحدهم. لا أحد يشجعهم. لا أحد يعمل مثلهم. لا رأي عاماً. لا سياسة قومية. لا شعوراً عميقاً بأن هذا هو الواجب، وهو الضروري. وهو واجب لأنه من أجل مصر. وهو ضروري لأن الحياة ضرورة والجمال ضرورة.

أما الذي نزرعه عندما نزرع شجرة، فهو مصر كلها..

وليست هذه دعوة سياحية فقط، بمعنى أننا نزرع الأشجار حتى يراها السائح. وبعد ذلك يعود كل عام ليرى هذه الأشجار قد زادت.. فمن عاداتنا أن نقدم أحسن ما

لـدينا من طعـام وأدوات طعام ومـلابس من أجـل الضـ
وإنمــا نحن نزرع شجرة من أجــل أن نضــاعف متحـ
الحياة. فإذا جاء السياح بعد ذلك، كـانت فلوسهم مكـ
على ما قدمنا لأنفسنا وغيرنا. .

إن شجـرة على الأرض لن يزرعهـا ويرويهـا ويحـ
شجـرة أخرى تحت الجلد. فلنتجـه إلى نفـوسنـا الخـ
وضمائرنا البور، وقلوبنـا الخراب، وعقـولنا الجـرداء .
فيها ٤٥ مليون شجرة! . .

مؤتمر الفلسفة الوجودية
في مبنى الجامعة العربية:
ترك وراءه
النمل
في كل مكان!

١

جمع الفلاسفة أوراقهم وعادوا إلى بلادهم. ولم ترفع القاهرة حاجبيها دهشة لأنهم ناقشوا موضوعاً هو «الفلسفة الوجودية ورجل الشارع» ولم تصفق لهم إعجاباً لأنهم اختاروا مبنى الجامعة العربية. فقد التقى الفلاسفة العشرة في كبرى القاعات، فلا استطاع أحد ن يراهم أو يسمعهم. وأكثر الذين سمعوا لم يفهموا.

فانتقلوا إلى قاعة أصغر. وفي هذه القاعة رأينا وسمعنا. وأكثر الذين حضروا لم يفهموا. فالفلاسفة أقلية في كل الدنيا، إلا إذا عقدوا مؤتمراً، فهم أغلبية ساحقة ـ لأن أحداً لا يقوى على متابعة ما يقولون. وهذه هي النكتة.

فقد دخلوا الجامعة العربية التي كانت، والمبنى الذي اعتاد أن يموج بالأشكال والألوان، ويضج بالأموال

والمذاهب، ويختنق بروائح البترول وزيت الفول والعرق الزحلاوي والفستق الحلبي والكسكسي المغربي والشكشوكة السودانية والمنسف الأردني والهريسة الليبية والدموع الفلسطينية.. لقد أصبح المبنى الكبير مثل الكثير من المصطلحات الفلسفية خالياً من المعنى. مليئاً بالفراغ. كان له ماض وليس له مستقبل. أو يريد أن ينسى الماضي أملاً في أن يكون له مستقبل.

فما الذي قاله الفلاسفة؟. لقد كان أول المتحدثين وأوضحهم.. فيلسوفاً جاء من سويسرا هو «اندريه مرسبيه». أما موضوعه فهو: «رجل الشارع في الفلسفة الوجودية».. ووجد هذا الفيلسوف أن «تل النمل» هو أوضح صورة لحياة الإنسان في العصر الحديث..

فالإنسان اليوم ليس إلا نملاً يزاحم نملاً.. يطارد نملاً.. يقتل نملاً. لا عقل لديه؟ لا عقل. لا إرادة؟ مسلوب الإرادة! لا حرية عنده؟ نعم. لأنه ليس مسؤولاً عن الذي يفعله. فهو مسوق مدفوع محشور.. وهناك قوى جبارة تجنده للعمل وللحرب.. وترميه في الدمار..

هذا الإنسان النمل: هو رجل الشارع.. هو الإنسان العادي. الإنسان الصغير.. هو الذي فقد كل اسمه، ولم يعد له إلا اسم واحد هو: فلان ابن علان.. هو النمرة التي لا وجود لها إلا في بطاقته الشخصية وبطاقته النقابية

وتذكرته الصحية. . وأحسن مثال لذلك ما يفعله عسكري المرور، فهو ينادي السيارات وأصحابها هكذا: أنت يافيات. . أنت يا مرسيدس. . أنت يا تاكسي. . أي يا صاحب الفيات أو سائقها أو سارقها. . وفي السجون ينادونهم بأرقامهم، فيقال: أنت يا ٢٣٥. . اخرج يا ٤٧٠. . وبعدين معاك يا ٩٥٠. . إنهم أرقام. . وفي المستشفيات ينادونهم بأمراضهم فيقال: أنت يا مصران. . أنت يا لوز. . أن يا عمود فقري. . أنت يا فقري. . ونحن عادة نقول: من فضلك يا. . تسمح يا ـ وهي إهانة مهذبة!

إذن فالإنسان الصغير قد أهين. . لم تعد له كرامة ولا حرية. .

وبداية الفلسفة الوجودية كانت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى. وكان الفيلسوف الألماني هيدجر أول من فزع لهذا الهوان الذي أصاب الإنسان العادي. . أصاب «أي واحد». .وما دمت أنت قد أصبحت «أي واحد» فليست لك شخصية ولا مواصفات. . ولا فردية. . أنت مثل الأكواب والسيارات والعجلات. . كلها متشابهة. ما الذي جعلها كذلك؟ المصنع. . المصنع الذي أنتج الأدوات بالجملة، وهذا هو الفرق بين الصناعات المكانيكية والفنون اليدوية. . فالأجهزة والآلات والمصانع قد جعلت الإنسان عبداً لها. . هي التي تتحكم في حياته. وتحتم عليه أن

يكـون مثلها. بـلا دم ولا لحم. ولا إرادة ولا إنسانيـة. . لقد أصبـح آلة تقف أمـام آلة. ثم إن هـذه الآلات قد قضت على العمـال. اختصرتهم. . أي أنهـا لـم تكتفـ باستبعـاد الإنسان وإذلاله، وإنما اتجهت إلى القضاء عليه. .

وفي ألمـانيا ظهـرت النازيـة ـ أي الفلسفة القـائمـة على عبـادة الفـرد الـذي يملك كـل المصـانـع والأجهـزة وأسلحـة الدمار. فهـذا الفرد المـطلق قد استعبـد الشعـب، والأجهزة التي في يـده قد استعبـدت الشعب مرة أخـرى. لقـد اعتقـل النـاس سياسيـاً، ثم اعتقلهم في المصـانـع. اعتقلهـم مرتين. وكـان لا بـد من الـطاعـة العميـاء فكـانـوا جيـوشـاً للخـراب والدمار. .

لقد انعدم وجود الإنسان. وأصبح للإنســان كيان فقط. . أصبح اسماً. . رسماً. . «نفراً» أو «دفعة» ـ كما في القـاموس العسكري. .

وبعـد الحرب العـالميـة الثـانيـة ظهـرت الـوجـوديـة في فرنسا: سارتر وكـامي ومارسيـل. . وفي إسبانيـا: أونامـوتو. . وفي روسيا: بردياثف. وفي مصر: عبـد الرحـمن بـدوي وفي إسرائيل: بوبر. . وفي إيطاليا: أبانيانو.

ونحن مثـل النمـل يسكن في أي مكـان. ويـأكـل أي طعـام. ولا يكف عن العمل. وفي جـامعة النمـل ـ أي مكا

تجمع النمل ـ يوجد ثلاثة أنواع من النمل: النمل الشغال. . والذكور. . والإناث. . أما النمل الشغال فهو بلا أجنحة. وهو يجمع الطعام. ويخزنه ويقوم بزراعة حقول وتربية حشرات أخرى يرضعها ويسمنها ثم يأكلها. . والنمل الذكور له أجنحة. والذكور عمرها قصير. فهي تطير وراء الأنثى التي لها أجنحة. وبعد عملية تلقيح الأنثى التي سوف تكون ملكة فالذكر يجب أن يموت. . فقد انتهت مهمته البيولوجية. أما الأنثى فهي تأكل وتنام وتبيض. هي أم الجامعة. أم المستعمرة. أم تل النمل ـ وكذلك في مملكة النحل فالذكور تطارد الملكة وتسقط جميعاً من التعب. حتى يبقى ذكر واحد يلقحها ويموت. وحتى إذا لم يمت وحاول أن يدخل الخلية قتلوه.

وهذا الذي يحدث في عالم النمل، يحدث أيضاً في عالم الإنسان. فعندنا التلقيح الصناعي. أي أنه يمكن تلقيح الأنثى من ذكر لا تعرفه. وما يفرزه الرجل يكفي لتلقيح ملايين الإناث في وقت واحد. إذن فالذكر يمكن الاستغناء عنه. وقد تخيل الكاتب الإنجليزي هسكلي في روايته «عالم جديد شجاع» أن الذكر الإنساني لن تكون له أهمية في المستقبل. وإذا كانت العناكب الإناث تأكل الذكور أثناء اللقاح، فسوف يكون ذلك حال الرجال!

إذن فلم يعد الإنسان في حاجة إلى الحب لكي يكون

أباً. فالجنس يتم بغير متعة. كأن الإنسان لم يعد قادراً على الحب، إنه قادر على الكراهية فقط. لأن العلاقة بينه وبين فلان وعلان هامشية.. تجاور في المكان.. تتابع في السطور والأرقام.. فهو يقف في طابور الكتيبة وأمام الجمعية التعاونية وعند محطة الأتوبيس. لا أحد يكلم أحداً، ولا ضرورة لذلك. فهم الأغلبية الصامتة. وهي صامتة لأنه ليس عند أحد شيء يقوله. كل المعلومات لدينا واحدة متشابهة. وكل أجهزة الدولة الحديثة قد استولت على علامات الاستفهام والتعجب.. تركت النقط في نهاية كل سطر. بل لم تعد هناك سطور. وإنما نقط فقط. كأن الناس جميعاً قد استحالوا إلى نقط. إلى أشكال، لا عبارات مفيدة.. نقط تضعها الدولة تحت الحروف وفوق الحروف التي تعجبها!

٢

منذ أيام أعلنت الصحف المصرية أن النمل الأبيض يزحف على القاهرة. نمل جديد يزحف على نمل. أي بعد أن انتهت غارات الفئران جاءت غزوات النمل. أما النمل فلا يحلم بأن يكون إنساناً، فلا عقل له ولا تاريخ.. أما الإنسان النمل، فهو يحلم بأن يسترد إنسانيته. ولذلك ظهر في كل تاريخه الأنبياء المزيفون: في السياسة والعسكرية والصناعة. كلهم يوهمونه بأنهم نوح، وإنهم قادرون على

نجاته من الطوفان. . طوفان التفاهة واللامعنى واللاإنسانية واللامبالاة!

كلهم مثل يوحنا المعمدان الذي وصفته التوراة بأنه «الصارخ في البرية». . أي الصارخ في الصحراء. . النافخ في قربة مقطوعةفي مبنى الجامعة العربية بالقاهرة وتونس. . وفي الأمم المتحدة بنيويورك!

٣

وفي فندق هيلتون المجاور لمبنى الجامعة العربية جاء دافيد قمحي، مبعوثاً من إسرائيل لعله يقنع وزارة الخارجية المصرية بأننا دولة مصرية. ولتؤكد له الخارجية المصرية أنها مصرية عربية، وسوف تبقى كذلك. جاء يدافع عن عدالة الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان. وإن الرئيس الجميل ورجاله هم الذين يقبلون أقدام إسرائيل لكي تبقى هناك، حتى لا تأكله سوريا، وتفترسه المنظمات الفلسطينية، وتمزقه القبائل اللبنانية. . أما مصر فلم يكن عندها إلا رأي واحد: اخرجوا من لبنان.

وبعدها سوف تخرج سوريا.

ولكن سوريا تطلب من مصر: اخرجوا من سيناء ـ أي مزقوا اتفاقية السلام مع إسرائيل، لتعود إسرائيل تحتل سيناء وحقول البترول وتسد القناة وتضرب السويس وبورسعيد.

وهنا سوف تقف سوريا والأمة العربية وراءنا تطالب بانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء!

ويرد المبعوث الإسرائيلي أن الصحف المصرية والإذاعة تتحدث من حين إلى حين عن «العدو» الإسرائيلي..

شيء عجيب: إن إسرائيل لم تنس، ولن تنسى ما فعله هتلر بهم من خمسين عاماً. ما فعلة مرة واحدة. وتريدنا نحن العرب أن ننسى ما تفعله إسرائيل على مدى ثلاثين عاماً كل يوم.. أو ما تفعله من سنتين في لبنان كل ساعة؟!

فلا أقنعنا المبعوث الإسرائيلي، ولا نحن أقنعناه.

ومن الغريب أن الصحف المصرية تتحدث كثيراً عن كل ما يجري في إسرائيل.. أما الصحف الإسرائيلية فلا تتحدث إلا عن الفرق بين الملوخية في مصر والملوخية في لبنان.. ويتحدثون عن الذي فعلته المجندات السوريات يوم الاحتفال بمرور عشر سنوات على حرب أكتوبر. فقد ظهرت فتيات الصاعقة يأكلن الثعابين أمام الناس. وظهرت فتيات أخريات يستخرجن الدم من تماثيل من القماش الإسرائيلي ـ إنها الحرب والدم والعداء الذي في المنطقة كلها..!

وفي القرآن الكريم: ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا

يحطمنكم سليمان وجنوده﴾.. وفي لبنان جنود سليمان وداود وشارون. وسليمان يسوق النمل الإسرائيلي ليقضي على النمل العربي. إنه النمل يغزو النمل توسيعاً لحدود مملكة على حساب مملكة أخرى..

وقد أدمن النمل تعاطي السموم.

فقد استطاع علماء الكيمياء أن يخترعوا سموماً لذيذة يحرص النمل على التهامها ونقلها إلى داخل جامعة النمل ليقدمها للملكة. وهكذا تموت كل مستعمرة النمل!

وكما أدمن النمل الحشري هذه السموم، فقد أدمن النمل الإنساني سموماً أخرى: هي المخدرات. فلا توجد عاصمة ليس بها حي مثل «الباطنية»، في هذا الحي كل تجار المخدرات وكل الذين يتعاطونها، ويخاف الناس أن يمشوا ليلاً في أحياء مونبرناس في باريس وسوهو في لندن وريبربان في همبورج والشارع ١٥ في واشنطن. فالمدمنون قد وقفوا والسكاكين والخناجر في أيديهم، يقتلون ليحصلوا على المال.. فما معنى ذلك؟. معناه أن الجسم أقوى من العقل. أن الحيوانية أعنف من الإنسانية.. وأن هذه المخدرات هي ضرورة جسمية وليست ضرورة عقلية..

وهناك مخدرات أخرى: سياسية وعسكرية ودينية.. هذه المخدرات تجرد الإنسان من عقله ومن إرادته، فيكون

مرة أخرى ذليلاً للكيف.. فكم عدد سجون الهوان التي يعيش فيها الإنسان الحديث؟ كان شاعرنا العظيم أبو العلاء المعري يصف نفسه ـ وكذلك طه حسين والأعشى ـ بأنه رهين المحبسين: العمى والفقر.. ولكن إنسان العصر الحديث قد ارتدى الملابس الحديدية وأدخلوه في السجن.. ثم إنهم وضعوا حول رأسه كمامةً فلا يرى ولا يسمع.. إنه مثل الثيران التي تدور في الساقية، والخيول التي تجر العربات، والفراخ التي نحبسها في «البياضة» تأكل لتبيض!

٥

نحن لا نعرف ما الذي يقوله النمل عن نفسه ولا عن الإنسان. ولو قدر للنمل أن يفكر لظن أن الله قد خلق المزارع والبيوت، لكي يعيش فيها النمل.. ولو أسقطنا كوباً من الماء على إحدى مستعمرات النمل لظن أن هذا هو الطوفان.. كالطوفان الذي يتحدث عنه الإنسان..

بل إن الكاتب السويسري «فون دينكين» لا يستبعد أن تكون الكرة الأرضية مزرعة لتربية العجول الإنسانية، وأن أصحاب هذه المزرعة هم سكان الكواكب الأخرى الأكثر تطوراً. فسكان الكواكب الأخرى في رحلاتهم بين الكواكب اختاروا هذا الموقع المناسب، وأتوا بآدم وحواء من كواكب أخرى ثم تركوهما على هذه الأرض. ومن حين إلى حين

يجيء سكان الكواكب الأخرى في أطباقهم الطائرة يلقون نظرة على هذه الحظيرة، ونحن لا نعرف بالضبط ما الذي يفعلونه بنا.. ولأننا نفكر، فقد أقمنا لأنفسنا تاريخاً وحضارة. وجعلنا لوجودنا معنى. ولمذاهبنا دوراً مقدساً في إصلاح الكون كله..

فمن يدري؟.. ربما كانت أفكارنا إذا قورنت بأفكار سكان الكواكب الأخرى.. تشبه أفكار النمل إذا ما قورنت بأفكارنا. ولكن الذي نعرفه عن يقين هو أننا جميعاً نمل يغتال نملاً!

وكما أن للنمل غزوات على الحقول والبيوت والمدن، فكذلك كان ولا يزال للإنسان.. فقد عرفت الأمبراطورية الرومانية غزوات البرابرة.. وعرفنا الغزوات الصليبية لفتح بيت المقدس.. وعرفنا غزوات الدول الأوروبية بعضها لبعض.. والدول الأمريكية والبريطانية والفرنسية والبرتغالية على الشرق، واليابانية على كل آسيا.. والروسية على دول أوروبا الشرقية..

وكل هذه الشعوب والجيوش على لبنان!

٦

وفي هذه المنطقة من العالم: ما الذي لدينا؟ لدينا التاريخ الواحد واللغة والأرض الضيقة، وعقول أضيق من هذه

الأرض، وثلاثة أديان. وكل واحد يحاول أن يضع يده على قلبه يخفي دينه، ويده وراء ظهره يخفي سلاحه لأنه يريد السلام. .

فضد من ومع من يقف هذا النمل الإنساني؟

إن إسرائيل تقتل أبناء الخوميني لأنهم يقفون مع سوريا ضد لبنان والشعب الفلسطيني. . وإسرائيل تساعد الخوميني نفسه لأنه يقف ضد العراق!

وتقف إسرائيل وسوريا ضد الشعب الفلسطيني، وذلك من أجل أن تحل المشكلة الفلسطينية بالقضاء على الشعب نفسه!

ولو وقف جندي فلسطيني في وجه جندي إيطالي أو فرنسي وسأله: لماذا أنت هنا؟ لماذا تريد أن تقتلني أو تريدني أن أقتلك؟

فلا داعي لأن يجيب. لأن هؤلاء الجنود «نمل» شغال يجب أن يدافع عن الخلية. وهذه الخلية ليس هو الذي حدد موقعها. إنما الدولة بكل أجهزتها. . مرة تجعلها في أوروبا، ومرة في آسيا، ومرة في إفريقيا. .

بل لا داعي أيضاً لأن يتساءل الجندي الفلسطيني: وأين هم العرب؟ فلا معنى للإجابة لأنه لا معنى للسؤال. فالشعوب مسلوبة الإرادة. فقد استولت عليها كل وسائل

الإعلام. وجعلتها مقاعد خشبية تجلس أمام صناديق خشبية.. جعلتها سلالاً للمهملات تلقي فيها أجهزة الدولة بزبالة الكلام ونفاية الفكر، وأقراص الهلوسة!

٧

أمس سقط معسكر البداوي؟.. فما الذي ومن الذي سقط؟!

أرجو يا حضرات النمل أن تفكروا طويلاً في هذا السؤال. أما الإجابة فهي: لقد سقط المعسكر الفلسطيني أمام القوات الفلسطينية إنقاذاً له من المنظمات الفلسطينية. وعودة به إلى الضفة الفلسطينية، لتقوم الدولة الفلسطينية!

لا يمكن أن يكون جاداً تماماً صاحب هذه العبارة ولا هازلاً إطلاقاً. فعبارته صورة جادة للهزل وصورة هازلة للجد!

فبالله عليك ما الذي سقط ومن الذي سقط في معسكر البداوي؟ ومن الذي انتصر ومن الذي انكسر؟ ومن الذي بقي وما الذي بقي؟ ثم ما اسم هذه الكوميديا أو التراجيديا التي جلس الناس يتفرجون عليها من فوق ظهور حاملات الطائرات الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية؟

اسمها هو الذي تردد ألف مرة في قاعات مبنى الجامعة العربية منذ أيام: النمل.. غارات النمل على النمل من

أجل ملكات النمل.. سيدات الجيوش. صانعات المخدرات..

وإذا كان منظر النمل تحت قدميك يثير اشمئزازك، فلا بد أننا نبدو كذلك لسكان الكواكب الأخرى..

٨

كأن الفلاسفة الذين رحلوا عن مبنى الجامعة العربية قد أدركوا حقيقتهم تماماً، فقد أعلن واحد منهم: إنني أعرف أن رجال السياسة والحرب يرون أن الفلاسفة لا ضرورة لهم.. ولا أعرف ـ حقاً ـ إن كانت لنا ضرورة أو فائدة عند أحد سوانا!

وكما ترددت أصداؤهم وارتدت عليهم، ومن قبلهم مئات الزعماء عشرات السنين، عادوا إلى بلادهم.. بعد أن وضعونا في قائمة النمل. وكأن النمل الأبيض قد سمع ذلك، كما سمع النمل صوت سليمان عليه السلام، فقرروا الزحف على القاهرة.. إلى مبنى الجامعة العربية.. ومن هذا المبنى الفخم الرطب المظلم المطل على النيل، يواصل النمل دعوته إلى التضامن العربي من أجل فلسطين!

شكراً للندرة العاقلة في هذه الدنيا، فقد فتحوا عيوننا على الذي أفزعنا من أنفسنا وأحزننا عليها.. فليتقدم النمل من كل لون إلى أي مكان!

تعليقاً على فيلم «اليوم التالي»:
فلما كانت الليلة الخامسة عشرة من
«ألف ليلة وليلة»
تحول العفريت إلى
رماد.. وبنت السلطان أيضاً!

الشعب الأمريكي لا يتصور إلا نوعاً واحداً من الحروب: النووية.. وبعدها نهاية العالم. ولذلك فكل الإدارات الأمريكية. قبل الانتخابات تؤكد للشعب الأمريكي والحلفاء أن الحرب النووية غالب ومغلوب. وأن الغالب أمريكي والمغلوب شيوعي. وقد استراح الأمريكان إلى نهاية السوفيت. لأن الأسلحة الأمريكية النووية سوف تسحق الروس في أي وقت وفي أي مكان..

ولم أجد قصة خرافية تصور لنا هذا الواقع العالمي، وكيف تتصاعد أساليب القتال والموت، مثل الليلة الخامسة عشرة في «ألف ليلة وليلة». وهذه الليلة هي أقرب شبهاً بالفيلم الأمريكي «اليوم التالي» وهو الذي أفزع الملايين وملأ بهم الشوارع صراخاً وعويلاً في أمريكا وبريطانيا وألمانيا.

ولما شاهدت الفيلم تلفت ورائي، إن كان أحد

يشاركني الفرجة عليه، فلم أجد أحداً ـ فهو إذن فيلم يتحدث إلى غيرنا. . فلما كانت الليلة الخامسة عشرة قالت شهرزاد للملك شهريار: بلغني أيها الملك السعيد ذو العقل الرشيد أن بنت السلطات أمسكت سكيناً عليها أسماء عبرية ورسمت بها دائرة على الأرض. فأظلمت الدنيا. واهتز القصر، وظهر عفريت انقلب إلى أسد، وقال لها: يا خائنة. . ألم نتحالف معاً على ألا يتعرض أحدنا للآخر؟. فقالت بنت السلطان: وهل مثلك من يصون العهد ويفي بالوعد؟. .

ثم نزعت شعرة من رأسها تحولت إلى سيف وقطعت رقبته. فتحولت رقبة الأسد إلى عقرب، وانقلبت بنت السلطان إلى حية. ودارت معركة بينهما. وانقلبت العقرب إلى صقر، وانقلبت الحية إلى نسر. ودارت معركة. ثم تحول الصقر إلى قط أسود، وتحولت الحية إلى ذئب. واستأنفا القتال. . وتحولت القطة إلى رمانة كبيرة تدحرجت إلى الماء، وطاردها الذئب. وقفزت الرمانة إلى أعلى ثم سقطت على الأرض فانفرطت حباتها في كل اتجاه. وانقلب الذئب إلى ديك يلتقط حبات الرمان، ولكن حبة سقطت في الماء. . فصرخ الديك حتى زلزل المكان وانقلب إلى حوت يطارد حبة الرمان. . ثم انقلب الحوت إلى عفريت مرة أخرى تخرج النيران من عينيه وشفتيه ومن أنفه. . وتحولت

بنت السلطان إلى موجة من النار تضرب العفريت. ويضربها. وظلت النار تأكل النار، حتى تحول العفريت إلى كوم من الرماد. وإلى جواره سقط كوم آخر من الرماد. إنه بقايا بنت السلطان. . أما أبوها السلطان فراح يلطم خديه ويشق ثيابه ويبكي على ابنته. ثم أقام فوقها قبة وجعل تحت القبة شموعاً. . أما رماد العفريت فراحوا ينثرونه في الهواء. . لعنة الله عليه. . إلخ. .

ونهاية العفريت وبنت السلطان هي النهاية التي يؤمن بها كل أمريكي وغربي. فالحرب تطورت وتهورت حتى أصبحت نووية، والنهاية تراب ذري لكل الحضارة الإنسانية.

ولكن الأمريكان يرون أنهم قد استعدوا لكل شيء. وما من نملة تتحرك على حائط في الكرملين، إلا قد اتجهت إليها عيون نووية في أمريكا. وقبل أن تتحرك هذه النملة يكون الاتحاد السوفيتي أصبح رماداً! . .

حتى كان فيلم «اليوم التالي». وقد رأيته. . مرة مع مدنيين ومرة أخرى مع عسكريين. .

الفيلم يبدأ بالحياة العادية في أمريكا. الناس يلعبون ويأكلون ويزرعون ويحصدون ويحبون ويتخانقون على نتائج كرة القدم وأسعار البورصة. . والذين شاهدوا نشرة الأخبار

في التليفـزيـون لم يفهمـوا شيئاً من الخبـر الـذي أعلن أن ألمـانيـا الشـرقيـة قـد أغلقت الحـدود بينهـا وبين ألمـانيـا الغـربية . . فـالناس قـد اعتـادوا على «الإثـارة» حتى لم تعـد تثيـرهم مثـل هـذه الأخبـار . . ثم إن أكثـر الأصـوات إثـارة وإزعـاجاً، هي التي تعلن عن السلع الأمـريكيـة، فـالمـذيـع يتكلم بسرعة، حتى لا يستغرق وقتاً طـويلاً غـالياً، وفي نفس الـوقت يـريـد أن يهـز المتفـرج النـائم لكي ينهض بســرعـة ويشتري سيارة أو يحجـز له مكـاناً على أرض القمـر . . وعاد التليفزيون يقول إن هذا القـرار من جانب الـروس معناه قـطع العـلاقات . ومعنـاه إعلان الحـرب على أمريكـا . ولـم يصدق الناس ذلك . اندهشوا . واتهموا شبكات التليفـزيون المجنـونة التي لا بــد أنهـا تــروج لحبـوب مهــدئـة جــديـدة أو رحلة سيــاحـيــة لإراحــة الأعصـاب . . حتى الجنــود أنفسهم لم يصــدقـوا . وفجـأة انـطلقت الصـواريـخ النـوويـة من مـدينـة كانساس في اتجـاه الاتحاد السـوفيتي . وقف الناس يتفـرجون على الصـواريـخ . كمـا نتفـرج نحن على مـدفـع الإفــطار . وعـادوا إلى التليفزيـون . . إنها الحـرب . وهجم النـاس على الســوبرمـاركت يخطفـون ويكدســون ما يجـدونـه من طعـام . ويدوس بعضهم بعضاً، وانطلقت السيارات تزحم الطرقـات، والناس في حالـة جنونيـة من الفزع . وقـد تعلموا من الإذاعـة والتليفـزيون ومنـاقشات البـرلمـان أن روسيـا تحتـاج إلى ٢٢

دقيقة للرد على الصواريخ الأمريكية. وجاءت الصواريخ الروسية النووية. واكتسحت الإشعاعات كل أحد وكل شيء.. وتحول الجميع إلى رماد. وهرب بقية الناس تحت الأرض، إلى المخابىء والمستشفيات. وتعطلت كل الموتورات والمحركات والمولدات الكهربية بسبب الإشعاع الذري. وانقطعت المواصلات من مدينة كانساس وإليها.. وفي أحد المستشفيات كانت سيدة حامل تصرخ وتبكي. وتطلب إلى الطبيب ألا يولدها.. فأي عالم هذا الذي سوف يعيش فيه ابنها؟ بينما سيدة أخرى راحت تصرخ وتئن وتتوجع وحدها دون أن يقدر أحد على مساعدتها.. حتى ولدت وحدها ـ ففي قلب الموت تولد الحياة.. وفي هذا الفزع يرتد الناس إلى غرائزهم الحيوانية في القتل والخطف والخوف والفردية ويا روح ما بعدك روح، ويبقى طبيب يعود إلى بيته فيجد أناساً قد احتلوه.. حاول إخراجهم.. تذرع بكل ما تبقى فيه من حيوانية وإنسانية، ثم سقط ميتاً.

وبعد أن يهدأ الإشعاع (؟!) ويسكن الرماد الذري تتحرك بعض الموتورات وتلتقط الراديوهات صوت الرئيس الأمريكي ـ وهو سلطان هذا الزمان ـ هادئاً قوياً يقول للشعب الأمريكي: إنها تجربة قاسية، ولكن أمريكا قد انتصرت. إن مدينة واحدة قد تهدمت. ولكن الولايات المتحدة ما تزال قوية قادرة على مواصلة الكفاح من أجل الرفاهية الأمريكية

والديموقراطية الغربية!

ولا يلقى صوت الرئيس أي اهتمام فلا يعنيهم كثيراً أن تبقى الولايات المتحدة أو العالم كله إذا كانوا هم يموتون أو سوف يموتون. . وينتهي الفيلم! . .

وقد رآه الرئيس ريجان قبل أن يعرضه التليفزيون. ولم يستطع أن يمنعه، ولكنه استطاع فقط أن يحصل على موافقة شبكة التليفزيون التي أذاعته، على أن يناقشه أعضاء مجلس الأمن القومي. وظلت هذه المناقشة التي رآها ١٨٠ مليون أمريكي إلى الثالثة صباحاً تحاول تهدئة الشعوب الأمريكية والغربية التي تسابقت في تطوير أسلحة الدمار من البندقية إلى الصاروخ إلى القنبلة الذرية. . أملاً في أن يؤدي التسابق والتعادل النووي، والخوف من الدمار إلى استحالة الحروب. فنحن إذن نعيش في ظل الرعب النووي - أي في ظل التصعيد المستمر حتى يكون الجنون فقط هو الذي يدفع أي الطرفين إلى إشعال الحرب.

ولكن من قال إنه لا يوجد مجنون هنا أو هناك؟ ومن الذي قال إن هذا التكديس المستمر ليس جنوناً مؤكداً؟ . . ومن الذي قال إن أي خطأ في العقول الالكترونية التي تدير كل المعارك لا يؤدي إلى نهاية العالم؟ . .

فمنذ اعتقل الخوميني خمسين أمريكياً رهينة في

سفـارتهم في طهـران، ومنـذ الغـزو الـروسي لأفغـانستــان، تغيـرت الخريـطة الاستراتيجيـة في أمريكـا. واعتمد الـرئيس السابق كارتر ميزانيـة للأسلحـة النوويـة زادت على ألف ألف ألف مليـون دولار. لمـاذا؟ لأن الأمـريكـان أصبحـوا يؤمنـون بنـظرية جـديدة هي: ادفـع بليون دولار دفـاعاً عن المصـالح الأمـريكية، ولا تـدفع دولاراً واحـداً لمساعـدة الدول الحليفة على حماية نفسها!..

ولـذلـك انتشـرت الأسلحـة الأمـريكيـة في أوروبـا وفي كـوريا وفي البحـر المتوسط وبحـر العـرب ـ أي عنـد الـدول الحليفة..

فما هو المعنى لهذا الفيلم!..

الفيلم يؤكـد للشعب الأمـريكي أنــه غـارق في سعــادة كاذبة. وإنه لا أمان لـه. وإنه من الممكن أن يكـون ترابـاً في أيـة لحـظة.. وإن في استــطاعـة روسيــا أن تصيبه في أي مكان. ولأن أمريكـا ليست لديهـا معلومات مؤكـدة عن الذي يحدث في داخل الاتحاد السوفيتي، فكـل الخطط الأمـريكية «تخمينيــة» تتــردد فيهــا مثــل هــذه العبــارة «على أســوأ الاحتمـالات» ـ فليست لدى أمـريكـا أيـة قـدرة على اختـراق حوائط السرية السوفيتيـة من أجل معلومـات مؤكدة عن مـدى استعدادهم النووي وتطويرهم للأسلحة المضـادة. وأخطر من

ذلك أنه لا يوجد سر في أمريكا . . فكل شيء يذاع ويشاع . وأول من يفعل ذلك مديرو المخابرات الأمريكية!! . . الذين نشروا مذكراتهم وفضحوا أسرار مؤامراتهم واغتيالاتهم ومصانعهم وقواعدهم الخفية . .

إذن فالشعب الأمريكي يجب أن يخاف وأن يفزع . وأن يطالب حكومته بأن ترد على هذه الاحتمالات الخطيرة التي جاءت في هذا الفيلم . وإلا سقط الرئيس ريجان في الانتخابات . وعلى الحكومة أن تواجه المظاهرات الهزيلة في بريطانيا وفي ألمانيا ضد الصواريخ الأمريكية النووية التي انتشرت ، وقد اتجهت رؤوسها إلى المدن الروسية! . .

أو أن هذا الفيلم هو بداية المعركة الانتخابية في أمريكا ـ وطبيعي أن يبدأ النجم السينمائي رونالد ريجان حملته الانتخابية بداية تليفزيونية مثيرة . وهي فرصة لكي يؤكد للشعب الأمريكي ضرورة زيادة ميزانية الدفاع وضرورة التمسك بنشر الأسلحة النووية في أوروبا ، وبقاء الأساطيل الأمريكية في مواجهة الخطر السوفيتي في لبنان وأفغانستان وإيران وليبيا وكوبا . خاصة أن الحلفاء لم يعودوا حلفاء . فليس لدى دولة واحدة أية رغبة في أن تحارب من أجل المصالح الأمريكية .

ولكن أحداً في أمريكا لا يرفع صوته عالياً غاضباً بالاحتجاج على حكومته التي تتورط في الدفاع عن الأطماع

الإسرائيلية في الشرق الأوسط؟!..

إذن فالدولة الأمريكية العظمى تخاف.. رئيسها انطلق عليه الرصاص. وبيت الرئيس تكدست حوله اللوريات وأكياس الرمل، وحول البيت الأبيض، الذي لم يعد أبيض، توارت صواريخ تنطلق على أية طائرات انتحارية. وكان الرئيس ريجان قد طلع على الشعب منذ أيام بأن إيران قد دربت ألف إرهابي انتحاري.. وإنهم في طريقهم إلى أمريكا..

ولكن هؤلاء الإرهابيين الانتحاريين بعد أن نسفوا القيادة الأمريكية في بيروت اتجهوا إلى نسف السفارتين الأمريكية والفرنسية في الكويت. واختاروا الكويت لزلزلة دول الخليج..

وقد حدث أثناء الحرب العالمية الثانية أن شعر عدد من الشبان الألمان بأن القوات النازية تتراجع على كل الجبهات، فقرروا تكوين وحدة انتحارية من أربعين شاباً. وعرضوا فكرتهم على القيادة العسكرية. وكان هدفهم أن يربكوا الحلفاء قبل غزوهم لأوروبا. وفي فبراير سنة ١٩٤٤ قابل هتلر فتاة طيارة اسمها هانا رايتش، من بين هؤلاء الانتحاريين، ومنحها «الصليب الحديدي». فكانت أول فتاة تحصل عليه. ولكن هتلر لم يوافق على هذه الفكرة لأنها

تـدل على روح اليأس والهـزيمة. وهـو حتى ذلك الـوقت لـم يعتقد أنه قـد انهزم تمـاماً. وإن كـان قد وافق على صـواريخ انتحارية يوجهها الأفراد. ثم اخترع العالم الألماني فرنر فـون براون الصاروخ الصارخ «ف ١» الذي وجهـه إلى بريـطانيا. . ولكن لم يفلح الألمـان في تـطبيق التعـديـلات التي أدخلت على الصواريخ الانتحـارية، فقـد سبقهم الحلفاء وهبـطوا في نورمانديا يوم ٦ يونيو سنة ١٩٤٤. .

وفي محاكمات نـورمبرج أعلن هـرمان جـورنج مـاريشال الطيران الألمـاني: أن هتلر رفض هذا الأسلوب الـذي يجرح كـرامة الألمـان. . ولكنه لا يـرفض أن يموت أي ألمـاني من أجله! . .

والآن إذا كانت أمريكـا تخاف الصـواريخ للروسيـة، فإن خـوفهـا من أي شـاب إيـراني انتحـاري أشـد وأعمق. أو إذا كـانت لا تخاف الـرؤوس النووية السـوفيتيـة، فـإنهـا تخـاف الرؤوس الإيرانية العاريـة. . إيراني واحـد قرر أن يمـوت، لا تستطيع أمريكا كلهـا أن تعرف من هـو ولا متى دخلها ولا من يكون هدفه ولا متى. .

والشبـان النازيـون الـذين قـرروا الانتحـار، هم أبنـاء الهـزيمـة. . أبنـاء اليـأس وخيبـة الأمـل. . وليس أكثـر من اليائسين وخائبي الأمل، في الشرق الأوسط! . .

وليس الـذي يمسك قنبلة نـووية، بـأكثر أمـاناً من الـذي يمسـك سكينـاً، عليهـا «كلمـات عبـريـة» كمـا فعلت بنت السلطان في «ألف ليلة ولـيلة». ولـيس الـذي يحـارب عـن أرضـه ودينه، بـأحسن حالاً من الـذي يدافـع عن البترول. . وإذا كـان الأمـريكـان يخـافـون من الأسلحـة النـوويـة، فـإن أسلحـة أخرى في الشـرق الأوسط قد اختفت تحت الجلد. . في القلوب. . وهي الأخـرى تنتـظر. . تحتشـد. . تتـربص حتى أصبـح صمتهـا دويـاً، وانتـظارهـا عـدوانـاً، وسـلامهـا خرافة!!

لقـد سخـر العـالم كله من الأديب الفـرنسي الـرومـاني الأصل يوجين يونسكو عندما أصـر على الظهـور في مسرحيـة اسمها «المياه العذبة» للأديبة فـرجينيا وولف. الـرجل تجـاوز السبعين. وهـو أحـد أعمـدة مسـرح العبث ـ أي مسـرح اللامعنى واللامنطق واللاعقل واللافـائدة والـلالغة يتفـاهم بها الناس. .

ولما سئل عن هذا السلوك الشاذ كـانت إجابتـه منطقيـة: لا معنى لـدوري. لأنه لا معنى لشيء. وإنني أريـد أن أؤكـد مـا سبق أن قلته وكتبتـه: وهو أنـه مـا دام العـالم كله يستعـد للموت بحرارة وحماسة وحيـوية، ومـا دام العلماء والحكمـاء والفـلاسفة أحـذية في أقـدام الجهلاء من السـاسـة والأغنيـاء والقـوادين والمغـامـرين والسمـاسـرة. ومـا دام رجـال الـدين

ينتهزون هذه الفرصة ويبشرون بالسـلام على الأرض والمحبة بين النـاس وهـم كـاذبـون. . فـلا معنى لشيء ولا أعـرف مـا الذي يقصده الناس، ولا حتى أنا، عنـدما أقـول: إن السلام ضـد الحرب، وإن الحيـاة ضـد المـوت، وإن المنـطق ضـد الفوضى. . فكل من تقع عليه عيناك كذاب قـد مل الكـذب، أو كذاب قد أدمن الكذب!. .

وهو شيخ يترنح وحـده ضمن فرقـة مسرحيـة من عشرين ممثـلاً لا يتفـرج عليهم أحـد. . ولكن هـذه هي «الحقيقـة» المنزوية المنطوية المشردة على المسارح الفارغة ـ حتى هـذه «الحقيقـة» لم أعد أعـرف أنا الآخـر لها معنى. . إنهـا إحدى القنابل المسيلة للدموع في ترسـانة الـرئيس شهريـار والرفيقـة شهرزاد في ملحمة «ألف سلام وسلام»؟!

نجيب محفوظ:

الإسلام ينهار
فينا وحولنا
ووقفنا نتفرج على ذلك؟!

لا يجرؤ كاتب أن يقول: لم يكد ينطلق مدفع الإفطار حتى مددت يدي إلى كوب من البيرة فشربتها!

ولكنه في قصائده يستطيع أن يجعل النيل من الفضة والأهرام من الذهب، وأن يعتصر الخمر من شفاه الفتيات الجميلات.. وفي رواياته يستطيع أن يجعل أبطاله يعربدون ويفسقون ويكفرون بالله.

إنهم «الآخرون».. أحرار في عالمهم يفعلون ما يشاءون..

فالحرية التي يفتقدها المؤلف، يمنحها لمخلوقاته: أبطال قصائده ومسرحياته ورواياته.. ويستطيع أن ينقل حياتهم إلى بعيد في الزمان والمكان، ويرمز ويغمز إلى الواقع الذي لا يرضاه. ويتمنى لو يستطيع أن يغيره.

وعندما كنت أنشر «في صالون العقاد» قال لي الأستاذان توفيق الحكيم وحسين مؤنس: ألا ترى كيف كانت الحياة

الأدبية والسياسية والفلسفية والدينية في خمسينات وستينات هذا القرن؟

أي أنني حاولت أن أصور الذي كان في مواجهة الذي لا وجود له الآن: من حيوية القلق والبحث الدائم عن الصيغة الفكرية والأدبية والدينية.. وعن تضارب الرؤوس الشامخة لأعلام الفكر والسياسة والدين في ذلك الوقت.

ولكني لم أصرح بذلك. وإنما تركته لفطنة القارىء والناقد والمؤرخ.

وعندما أصدر الأستاذ توفيق الحكيم كتابه «مصر بين عهدين». فقد أراد هذا المعنى أيضاً، فقد نقل إلينا ما كان يعانيه من حيرة وغيرة على مصر. ومن حرصه على أن يفعل شيئاً من أجل تنوير العقول والأقلام والمدارس والمسارح.. فذهب إلى بعيد في العشرينات والثلاثينات، ليؤكد غضبه وسخطه وقرفه من الذي كان في الستينات ولا تزال آثاره في السبعينات والثمانينات.

والأستاذ نجيب محفوظ أيضاً في كتابه الجديد «رحلة ابن فطومة» قد انتقل إلى بعيد في المكان والزمان، ليرى وطنه من هناك. وراح ينتقل بخياله إلى بلاد كثيرة، لعله يعود إلى وطنه بشيء مفيد..

وقبل ذلك بستة قرون كانت رحلة «ابن بطوطة» التي

عرفت باسم «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

وابن فطومة هو قنديل محمد العنابي، تاجر ابن تاجر. تعلم في بيته. فأبوه غني، وأمه تخاف عليه من الناس ومن إخوته السبعة الذين أطلقوا عليه ابن فطومة، أي ابن أمه، وليس ابن أبيهم.. أحب فتاة خطفها منه أحد موظفي قصر الوالي. وفوجىء بأن رجلاً خطب منه أمه.. ففي وقت واحد أضاع المحبوبة والأم. وكان ذلك سبباً كافياً لأن يترك بلاده حزيناً على نفسه وعلى أهله وعلى وطنه.

والذين ألفوا «ألف ليلة وليلة» قد جعلوا بدايتها حزينة: خيانة مزدوجة.. فالملك شاه زمان خانته زوجته فقتلها، وأخوه الملك شهريار خانته زوجته، فقرر أن يقتل فتاة كل ليلة، حتى استطاعت شهرزاد أن تشغله بقصصها عن قتلها هي وغيرها من الفتيات..

والشاعر الإيطالي دانتي الليجيري قام برحلته في العالم الآخِر، مرافقاً الفتاة بياترتيشه التي خانته وتزوجت غيره.. لقد أقام لها «الجحيم» و «المطهر» و «الفردوس».. لقد خلق لها «الآخرة» لكي تكون معه، ما دامت الدنيا قد فرقت بينهما..

ففي البدء كانت الخيانة..

وقبل أن يقوم ابن فطومة برحلته أكد لنفسه أنه عاشق للقاهرة: لرائحة العطارين والمآذن والقباب والوجوه الجميلة والزقاق وبغلة الحاكم وأقدام الحفاة وأناشيد الدراويش والربابة والخيول وأشجار اللبلاب ونوح اليمام وهديل الحمام. إنه يريد أن يعرف الدنيا ليرجع إلى وطنه بالدواء الشافي.

والأستاذ نجيب محفوظ هو الآخر يقول: أردت أن أرى وطني من بعيد.. أراه على ضوء بقية البلاد لعلي استطيع أن أقول كلمة نافعة.

من أجل ذلك كانت الرحلة إلى بلاد لها أسماء رمزية: دار المشرق ودار الحيرة ودار الحلبة ودار الأمان ودار الغروب.. ثم يرى بعينيه دار الجبل التي لا وجود لها إلا في خيال وأحلام المثاليين..

وكل هذه البلاد بلاد وثنية ولكنها آمنة.. إذن فمن الممكن أن يكون الوطن وثنياً ويحقق ما عجزت عنه دار الإسلام. لأن في بلاد الإسلام مبادىء لا يطبقها أحد. ولذلك استطاعت بلاد أخرى أن تفرض من المبادىء ما تستطيع أن تطبقه!

وهكذا بدأت رحلة ابن فطومة بشعور بالخيانة مضاعف: خانته الفتاة التي أحبها، وخانته أمه وخانه الدين -

اللعنة على هذه الدنيا. . ثم رحل إلى «دار المشرق».

وهي إلى الجنوب في الصحراء. حارة. كل الناس عراة. ولا قيود على رغبات الناس. ولا عقود زواج. فالزواج لم يحل مشكلة السعادة. بل إن استمرار الزواج في بلاد الإسلام، ليس سببه أنه علاقة ناجحة، ولكنه الصبر الذي يمسك الزوجين. أما في هذه البلاد. فلا زواج. إنه علاقة مقبولة من الطرفين. والإسلام يدعو إلى الحب ولا نجده. . ويدعو إلى الأخوة ولا نجدها. . ثم أنهم يعبدون القمر. وفي الليالي القمرية يتحلل كل رجل من «زوجته» ويفعل كل منهما ما بدا له. .

ويقول ابن فطومة لنفسه: ديننا عظيم وحياتنا وثنية!

وقد اعتاد على العلاقات وعلى الرباط المقدس. ولكن في هذه البلاد كل العلاقات عابرة، لأن كل علاقة قيد. وكل قيد حجر يثقل على الرأس والقلب، وتصطدم به القدم. ويعوق التطور.

ويتخلف عن القافلة سنوات، ويترك «زوجته» واسمها عروسة مع أولادها.

ويرحل إلى «دار الحيرة». إنهم يعبدون الملك. فهو مالك كل شيء وخالق كل شيء، وتستعد البلاد للحرب فتستولي على «دار المشرق» ويسعده ذلك لأنه سوف يستعيد

زوجتـه وأولادهمـا. . وليس من الضـروري أن تكـون هنـاك أسبـاب معقـولـة لشن الحـرب. وإنمـا هي أعـذار يفتعلهـا الملك، وبعـدهـا يمـوت الأبـريـاء من الجـانبين دفـاعـاً عن الحـرية. . تحـرير العبيـد في البلاد الأخـرى، وانتشارهم في هذه البلاد.

وتسـاءل ابن فطومـة وقلبه على وطنـه: أيهمـا أسـوأ؟. . من يـدعي الألوهيـة عن جهل أم الـذي يقوم بتـطويع القـرآن لخدمة أغراضه الشخصية؟

وإذا شـاء أن يضع عنـواناً لكـل الذي حـوله اليـوم وغداً وأمس، ففي كلمتين اثنتين: دماء وزغاريد.

ويلتقي بفيلسوف الحزب أو حكيم البلاد. . ويسمع منـه عجبـاً. ويـرى أن الحكيم قـد وضـع فلسفتـه تحت حـذاء الملك. . ويرى ابن فطومة طوابيـر الأسرى وبينهم «عـروسة» ويعـرضونهـا للبيع. ويشتريهـا الحكيم لنفسـه، ثم يضـع ابن فـطومة في السجن عشـرين عـامـاً. وفي السجن تمـوت كـل أحـلامه. ويصبـح من آمالـه أن يفقد كـل أمل، ومن أحـلامه أن ينام فلا يصحـو أو يصحو فـلا ينام، وينقلب نـظام الحكم ويخرج، ويدخل الحكيم خاطف زوجته. ويهتف ابن فطومـة للحاكم الجديد الذي أطلق سراحه شيخاً محطماً.

ويـرحل إلى «دار الحلبـة». وفيها حـريـة العقيـدة. كـل

الأديان معاً: البوذية واليهودية والمسيحية والإسلام والوثنية والإلحاد. والدولة ليس لها دين رسمي. والحاكم وثني. ويلتقي بالمسلمين. ويرى إسلاماً عجيباً فيقول: لو يبعث الرسول عليه السلام لأنكر الإسلام هنا.

ويقال له: ولأنكر الإسلام عندكم أيضاً.

ويرد ابن فطومة: هذا صحيح!

ويقول للمسلمين هناك: لو كنتم تطبقون الشريعة؟

ويكون الرد عليه: لو كنتم تطبقونها أنتم!

ويقال له أيضاً: الإسلام يذْوي على أيديكم وأنتم تنظرون.

ويقال له: الفرق بين إسلامنا وإسلامكم: إسلامنا لم يقفل باب الاجتهاد، وإسلامكم أقفله.. إسلام بلا اجتهاد، إسلام بلا عقل!

ويرحل ابن فطومة إلى «دار الأمان». وكل شيء فيها مضبوط دقيق حسب خطة موضوعة. الإنتاج. العمل. الطعام. الشراب. التعليم. ويرافقه في نومه ودورة المياه أحد رجال الأمن ـ دفاعاً عن الغرباء ومن أجل سلامتهم؟! أما الحاكم فقد اختاروه. وأما المستشارون فقد اختارهم، ولكنه هو المطلق الذي هو القانون. والمساواة هي العدل.

والعدل هو القاعدة. أما الحرية فلا بد من إحكام الرقابة عليها حتى لا ينفلت أو ينحرف أحد أو يخرج عن الصف.

كل شيء قد تحقق، ولكن الوجوه حزينة واللمحات صارمة.

يقول ابن فطومة لنفسه: إنهم يحققون هنا كل أهدافهم.. أما في دار الإسلام فيعلنون هدفاً ويحققون هدفاً آخر باستبهتار وبلا حياء وبلا محاسب. إن أهلي قد خانوا دينهم.

ويمضي إلى «دار الغروب». إلى الرموز والدروشة والهلوسة.. أعلى مراحل السمو واليأس معاً. استعداداً إلى «دار الجبل» التي يراها بالعين ولا يبلغها، ولم يبلغها أحد.. إنها دار الكمال الإنساني ـ إن كان في الإمكان أن يكون الكامل إنساناً، أو الإنسان كاملاً.

وكان لا بد أن يواصل رحلته وحده وعلى قدميه. أما الذين لا يستطيعون السير على أقدامهم فلا بد أن يعودوا مع القافلة..

«ولكن لم تهتز عزيمة أحد، وصممنا على المغامرة، وفكرت في ذاتي وفيمن خلفت ورائي، وفيما قد يصادفني من أسباب تحول دون عودتي، فكرت في ذلك فخطر لي خاطر، وهو أن أعهد بدفتر رحلتي إلى صاحب القافلة

ليسلمه إلى أمي أو إلى أمين دار الحكمة، ففيه من المشاهد ما يستحق أن يعرف، بل لمحات عن «دار الجبل» نفسها، تبدد بعض ما يخيم عليها من ظلمات، وتحرك الخيال لتصور مالم يعرف منها بعد. ولا بأس بعد ذلك أن أفرد دفتراً خاصاً لدار الجبل إذا قيض لي زيارتها والرجوع منها إلى الوطن، وقبل الرجل القيام بالمهمة، فنفحته بمائة دينار، وقرأنا الفاتحة، تخففت بعد ذلك من وساوسي. وتأهبت للمغامرة الأخيرة بعزيمة لا تقهر».

وفي هذه الرحلة كما في كل مؤلفات كاتبنا الكبير نجيب محفوظ: الحكمة والجمال. ومثل كثير من كتب نجيب محفوظ: تزداد متعتك وفائدتك إذا عاودت قراءته. فهو فنان جاد وهو مفكر وطني وهو صاحب رسالة إصلاحية. أما قلبه فكبير الحزن على ما أصاب وطنه ودينه، وهو يدعوك إلى أن تفعل شيئاً نافعاً.. لعله ولعلنا..

الدين: لله
والوطن: أيضاً؟!

كل الحروب دينية، إلا الحروب الدينية!

فلكي يحمل إنسان السلاح ليقتل إنساناً آخر، فلا بد أن يكون لديه إيمان قوي بأن الله يقف إلى جواره، وأن الشيطان يقف على الجانب الآخر.

وهذا هو رأي الذين يقفون في الناحية الأخرى أيضاً!.

فنحن جميعاً نحارب في سبيل الله!.

وهكذا تكون «الحقيقة» هي أولى ضحايا الحرب..

وحقوق الإنسان هي أول طابور للأسرى..

والشيوخ هم الذين يعلنون الحرب، أما الشباب فهم الذين يمشون على الألغام إلى الجنة.. وكلما زاد عدد قتلى العدو، كان الثواب أعظم، وكلما هدموا بيوتاً كانت قصورهم يوم القيامة أفخم!

ولذلك ففي جميع الحروب تدوي على الجانبين عبارة: الله أكبر..

والشعوب تلجأ إلى الحرب، عندما تفشل في حل مشاكلها بالذوق.. أو أنها عندما لا تستطيع أن تحل العقد بأسنانها، فإنها تقطعها بالسيف.

ولا أحد يعرف متى بدأت الحرب الشاملة. ولكن نعرف أن الحرب هي مثل الخلاف بين اثنين وقد انضرب في مليون..

وهي تبدأ عادة بأن تنظر إلى الذي في يد غيرك، وترى أنه لا يستحق كل ذلك. فالبداية الحقيقية للحرب كانت عندما نظر قابيل إلى ما في يد أخيه هابيل.. ثم قتله. ولم يكن لهابيل أولاد، ولذلك فنحن جميعاً أولاد القاتل قابيل.. وما زلنا نحيي ذكراه الدموية في كل مكان وزمان..

وإذا كانت الخناقة بين أخوين بسبب الطمع. فكل الحروب كذلك. لأنها نتيجة للطمع، ومقدمة لطمع جديد.. أو أنها نتيجة للفساد العام، ومقدمة لفساد آخر ـ فلا نهاية لمقدمات الحروب، ولا نهاية لنتائجها المتجددة..

وبعض المؤرخين يرون أن الحروب الحديثة لم تعد دينية. فقد انتهت الحروب الدينية كلها سنة ١٦٤٨ بعد ثلاثين عاماً من القتال بين البروتستانت الألمان والكاثوليك.. ولكن الحروب التي جاءت بعد ذلك سياسية اقتصادية.

أما الحروب الدينية فما تزال في أرض الديانات التي هبطت من السماء كاليهودية والمسيحية والإسلام، أو التي خرجت من الأرض مثل الهندوكية والكونفوشيسية والتاوية والبهائية والزرادشتية ـ هنا في الشرق الأوسط!.

وهذا الرأي ليس صحيحاً تماماً. فالحروب الدينية في أوروبا لم تنته بعد. فالنازية التي اجتاحت أوروبا كان لها مذاق ديني. فهتلر هبة السماء، والشعب الألماني المتفوق على كل الشعوب الأخرى، هو شعب الله المختار. ولذلك فالحرب مقدسة، والرسالة مقدسة. والهدف هو بقاء الشعوب الآرية سيدة على الشعوب الأخرى..

والشيوعيون الذين حاربوا النازية والفاشية، ليسوا مؤمنين. ولكن لديهم كل عناصر الدين إلا وجود الله.. فالشيوعية هدف ووسيلة. وكتاب «رأس المال» هو التوراة والإنجيل والقرآن. والكرملين هو الفاتيكان والكعبة. ولينين هو المسيح والرسول.. فهم أيضاً شعب الله المختار، ورسالتهم هي خلاص البشرية من أجل جنة العمال والفلاحين عندما ينتهي الصراع بين الطبقات في نهاية العالم..

وكما تتحرك البراكين الخامدة، تفجرت أخيراً الحرب الدينية في ولاية البنجاب الهندية. الأغلبية من السيخ. والأقلية من الهندوك. ولكن الهندوك هم الأغلبية الساحقة

في الهند كلها (٧٠٠ مليون نسمة). ولم تشتعل هذه الحرب لأن عود كبريت قد ألقي في «المعبد الذهبي».. ولا لأن الزعيم الديني قد قام مذعوراً، ومات من الخوف. ولكن الخلاف القديم. والتحفز الطويل. وانتظار اللحظة المناسبة قد حان. والأيدي كلها على الزناد، والفتيل منزوع من كل الصدور. وقد حاول السيخ أن تكون لهم ولاية خاصة بهم. ولكن الحكومة البريطانية قد قضت على هذه الآمال الانفصالية.

والخلاف ديني في المقام الأول. فديانة السيخ هي خليط من الإسلام والهندوكية.. فهم يؤمنون بإله واحد، والهندوكيون يؤمنون بعدد من الآلهة.. والسيخ لا يقدسون الأصنام والتماثيل، بينما الهندوكيون يفعلون ذلك. وهم يتفقون مع الهندوكيين في إيمانهم بتناسخ الأرواح بعد الموت. فبعد أن يموت الإنسان تحل روحه في أي جسم آخر: إنسان أو حيوان أو نبات.

وتحاول الروح في هذه الأجسام المضيفة أن تحقق ذاتها من جديد، وتظل تنتقل من جسم إلى جسم حتى يتم تطهيرها بعد مئات الألوف من السنين..

ولذلك فالسيخ يغضبون المسلمين والهندوكيين معاً.

وهكذا حتى أصبح لدى السيخ شعور بأنهم أقلية

الأقلية. وإنهم في حالة دفاع مستمر عن النفس.

ولذلك فهم يكونون قوة كبيرة في الجيش الهندي ـ أي إنهم يتدربون على القتال تحت عباءة الأغلبية، وتحفزاً لها..

حتى جاءت هذه الفرصة، وكان القتال عنيفاً وضحاياه بالألوف في أيام قليلة..

ثم إن هناك سبباً اقتصادياً. فالسيخ أحسن من يزرع القمح في الهند كلها. ولذلك تحقد عليهم الولايات المجاورة. وتمنع عنهم الماء. وتقوم الحكومة بتحويل الأنهار إلى حقول الهندوكيين لتجف حقول السيخ وتموت مزارعهم، وتخلو صوامعهم ويصرخوا من الجوع، ويمدوا أيديهم إلى الحكومة التي تنتهز هذه الفرصة العظيمة فلا تعطيهم شيئاً!

إنها حرب القمح المقدسة!.

وهذه حرب في شعب واحد، وهي غير متكافئة. ولكن الحرب تجعل المقاتل ينسى مبادىء الحساب. وينسى معنى الحياة. وكل ما يذكره هو أنه، حتى لو كان أقلية، فسوف يبقى ما دام الله معه، وينسى أن من الجائز أن يموت، ويتذكر أن عدوه لا بد أن يموت، وأن القمح إذا كان هو السبب، فإن الله هو الذي اختار له القمح، واختاره للقمح.

فهو يدافع عن إرادة الله . .

وفي الشرق الأوسط كل أنواع الحروب . .

فالمسلمون في إيران يحاربون المسلمين في العراق .

وهم في إيران أغلبية من الشيعة . .

وفي العراق أغلبية من السنة . .

عرب في العراق، وفرس في إيران . .

وقد بدأت الحرب الدينية في داخل إيران في عهد رضا بهلوي ، عندما حاول أن يقص أظافر ولحى وشوارب رجال الدين الذين يرفضون الحياة الأوروبية ، ونجح في ذلك. واستأنف رجال الدين هذه الحرب مع ابنه محمد رضا بهلوي ، وانتصروا عليه في مظاهرات ومذابح سنة ١٩٧٨ حتى أسقطوه في يناير سنة ١٩٧٩ .

فالحرب كانت بين الفساد السياسي والإصلاح الديني . . بين الحياة الغربية ، بين كتاب «الثورة البيضاء» لشاه إيران وبين «القرآن الكريم» . .

وقد تغير العالم الإسلامي بعد نجاح ثورة آية الله روح الله حجة الإسلام الإسماعيلي الاثنا عشري الإمام الخوميني . .

فقد اهتز العالم كله لهذه الغضبة الشيعية ، وزلزلت كل

المنابر الإسلامية. ولكن ثورة الخوميني، مثل كل الثورات، راحت تأكل بنيها.. أكلت من رجال الدين أضعاف ما أكلته من السياسيين من مخلفات الشاه. وأكلت من الشعب الإيراني أضعاف الذي قتلته من الشعب العراقي.

ولم يكن الخلاف بين إيران والعراق دينياً في أساسه. إنما هو خلاف على المساحة التي تطمع فيها الدولتان من نهر شط العرب.. وقد كانت بينهما اتفاقية. وأعلن العراق من طرف واحد إلغاءها. فالخلاف إذن على الماء.. أو على الخط الذي يجب أن يكون فاصلاً بين العراق وإيران في شط العرب. وانتقل هذا الخط من شط العرب إلى الحدود بين البلدين.. إلى الخليج العربي الفارسي.. ثم حول آبار البترول وفي المدن.. وتطاير شرر القتال بعيداً عنيفاً دموياً.. فكان الاعتداء على الكعبة الشريفة، وكان اغتيال أنور السادات..

ولا تزال الجماعات الدينية في العالم العربي تستعد وتتحفز. وإذا نظرنا إلى أسماء الجماعات الدينية نجد أنها جميعاً ترفض المجتمع الذي تعيش فيه وتتربص به.. فهي جميعاً في حالة انتظار مسلح..

وإلى جانب إيران وقف الأردن وسوريا وليبيا وأمريكا وإسرائيل..

وإلى جانب العراق وقفت بقية الدول العربية وروسيا وفرنسا . .

وفي سوريا صراع بين الشيعة الحاكمة، وهي أقلية، والسنة المحكومة، وهي أغلبية . . وقد أدت ثورة الأغلبية إلى أن سحقتها الأقلية الحاكمة. فأبادت المدن وعشرات الألوف من المدنيين.

وفي لبنان كل أنواع الصراع الديني: بين الموارنة المسيحيين والمسلمين من الشيعة والسنة.

وكل العرب يقفون منذ عشرات السنين ضد الشعوب اليهودية التي تسللت إلى فلسطين، وأقامت لنفسها بمساعدة أمريكا وروسيا دولة إسرائيل . .

والحرب بين الشعوب اليهودية والعرب بعد أن أصبحت لهم دولة إسرائيل، هي من أجل أن تتوافر لها مياه سوريا ولبنان والأردن . . فهي حرب من أجل الماء أيضاً. وهي حرب على الأرض المقدسة. فإسرائيل قد استولت على مقدسات المسلمين والمسيحيين: المسجد الأقصى ومسجد عمر وكنيستي المهد والقيامة . .

وقد قامت بين اليهود والعرب خمس حروب. ولم تتوقف هذه الحروب ولا الاستعداد لها. وما أشعله اليهود في لبنان من حرب وحشية ضد الشعب الفلسطيني والشعب

اللبناني، يؤكد أن الحرب مستمرة بين العرب واليهود. وأن السلام الذي تحقق بين مصر وإسرائيل ليس إلا سلاماً جزئياً.. وهو وقف لإطلاق النار، ولكن الحرب الكلامية والنفسية بين البلدين لم تتوقف.. فمصر لا تستطيع أن تنفصل عن العرب.. ولا عن المشاكل العربية. وليس ممكناً ذلك. رغم كل محاولات عزل مصر، وتخويف العرب من الديمقراطية المصرية، فإنها عربية.. وحتى إذا كانت بعض الدول العربية تدفع مالاً كثيراً في مصر لتشجيع الانشقاق السياسي والديني، فإنها تفعل ذلك لتغرق مصر في مشاكلها الداخلية، فإذا جاءت مشاكل خارجية كانت مصر أضعف في الداخل والخارج ـ ولذلك يتعاون بعض العرب والأمريكان والروس وإسرائيل على أن تصبح مصر هي الرجل المريض. ولأنه مريض فهم يخافون أن تنتقل عدواه السياسية والدينية إلى البلاد الأخرى.

وفي غير العالم العربي حروب دينية أخرى: في قبرص بين اليونانيين المسيحيين والأتراك المسلمين.

وبين البروتستانت والكاثوليك في شمال أيرلندا.

البروتستانت يخضعون لتأثير بريطانيا، والكاثوليك للكنيسة الأيرلندية، وهم لذلك يريدون أن يتحدوا بأيرلندا. والبروتستانت يريدون أن يتحدوا مع بريطانيا.. والكاثوليك الأقلية في الشمال يعانون من التفرقة السياسية. ولذلك فعدد

المتعطلين أكثر، وبيوتهم وطعامهم دون المستوى البروتستانتي. والمدارس نوعان.

فهذا التمييز الديني، قد أدى إلى تفرقة سياسية واجتماعية.. وإلى تفاوت في الدخول بين الأغنياء البروتستانت والفقراء الكاثوليك. ورغم وجود قوات بريطانية من سنة ١٩٦٩، فإن عدد الضحايا يتزايد عاماً بعد عام. ولا حل!

والصهيونية باعتبارها أحدث القوميات السياسية، هي نموذج لدين الأقلية المضطهدة المنبوذة الخائفة التي تتربص ببقية الشعوب. فاليهود عندما انهدم عليهم المعبد، وتفرقوا في الأرض. كانت التوراة هي مسكنهم. هي بيتهم.. ويكفي أن ننظر إلى ما يفعله اليهود في المعبد وما يفعله غيرهم من أبناء الديانات الأخرى. ففي المعبد اليهودي يلتقي الناس ويتناقشون في البيع والشراء. فالصلاة لا تهم. وإنما التجمع واللقاء والشعور بالأمان هو الذي يهم. بينما المسلم يرى المسجد مكاناً مقدساً للصلاة. وكذلك المسيحي. فالمسلمون والمسيحيون ليست مشكلتهم الأولى هي الالتقاء والتجمع. ولا ينقصهم الأمان. فالأمان أمام الباب، أما ما وراء الباب فهو الصلاة والاتجاه إلى الله.

ولا يزال الماء والبحث عنه والقتال من أجله هو الهدف

الخفي عند الشعوب اليهودية في إسرائيل. . من النيل إلى الفرات. .

ومنذ ألقي موسى عليه السلام في الماء، ونجا من النيل، ثم نجا مرة أخرى من ماء البحر الأحمر. . فالماء هو كابوس في الأحلام اليهودية وهو أيضاً أهم عناصر الحياة في أرض المعاد الجافة الأنهار الملحة الآبار.

وإذا كان المسلمون في الهند قد انفصلوا واستقلوا بدولة باكستان، فليس الآن سهلاً في لبنان الذي حارب عليه المسلمون السوريون، أشقاءهم المسلمين الفلسطينيين، وحارب فيه المسيحيون الموارنة أشقاءهم المسيحيين الأرثوذكس، وحاربهم اليهود جميعاً. .

وإذا كان الدستور اللبناني قد نص صراحة على الوجود الطائفي للجميع، فإن الطوائف اللبنانية عندما التقت في سويسرا، دخلت متفرقة، وخرجت ممزقة. ويبقي كل شيء في لبنان على ما كان عليه وأسوأ. . وسوف يزداد عنفاً عندما تستولي سوريا على البقاع، وإسرائيل على جنوب لبنان. وقد ساعدت الدول الأوروبية المسيحية على تقسيم لبنان، وعلى الوقوف وراء المسيحيين. . تماماً كما فعلت ذلك في إقليم «بيافرا» المسيحي في نيجيريا المسلمة. . وكما تفعل ذلك الآن في جنوب السودان، فهي تشجع على انتشار المسيحية وبقاء الوثنية واستدراجهم إلى الهجرة

خارج السودان لكي تتولد مشاكل أمنية واقتصادية وسياسية مع الدول المحيطة بالسودان.

والذي يفعله الرئيس القذافي هو خليط من الدين والإلحاد والإرهاب والعزلة، والمقاومة في الدخل والخارج.

وإذا كانت الشعوب النامية ترى أن الدين هو الوطن. فإن الشعوب الحديثة ترى أن الوطن هو الدين. وإن الوطنية هي الدين. ولذلك كان الملك أو الامبراطور هو الدولة التي هي الدين والذي هو الدين. فالملك هو رأس الدولة ورأس الكنيسة ـ كما كان في التاريخ الإسلامي هو الخليفة وهو أمير المؤمنين.. وهو آية الله روح الله الأقدس حجة الإسلام الخوميني!

والمسلمون في أفغانستان هم وحدهم في العالم الذين يحاربون الروس الملحدين.. فهي حرب مقدسة تماماً عند الأفغان. ومن المؤكد أن شعوب روسيا القيصرية الحمراء، يدافعون عن مقدساتهم أيضاً، لأنهم يعتقدون أن روسيا هي دولة قد اختارها التاريخ، لنشر الماركسية وإقامة العدل العنيف بالتسوية الدموية بين الناس، ويجيء المهدي المنتظر الذي تختاره اللجنة المركزية للحزب، فيملأ الأرض عدلاً شيوعياً، بعد أن امتلأت ظلماً رأسمالياً.

ولا تزال آلة الحرب في حاجة إلى نار، هذه النار

هي الدين. .

فالحروب مهما كانت سياسية، فهناك دين يدفعها ويحميها ويقدس ضحاياها. . والحروب مهما كانت دينية، فهناك مصالح مادية.

فالذين يتحدثون عن اليمين واليسار، ينسون أن هناك فوق وتحت. .

والذين لا يعرفون إلا ما هو فوق وما هو تحت، يندفعون إلى أن يكون لهم يمين ويسار. .

وتبقى الحرب هي أكثر سلوكيات الشعوب عنفاً وشمولاً واستمراراً. وقد سجل المفكر الأمريكي ول ديوارنت سنوات الحرب في تاريخ الإنسانية فوجدها ٣٤٢١ عاماً. . بينما السلام ووقف إطلاق النار لم يستغرق سوى ٢٦٨ عاماً. .

وسوف تبقى الحرب لأن أسباب اشتعالها بين الشعوب هي نفسها أسباب الخلاف بين الأفراد: الطمع والغيرة والغرور والطعام والأرض والموارد الطبيعية والطاقة والسيطرة.

أما الدول فتضع القوانين لمنع الفرد من تحقيق رغباته بالقوة.

ولكن الفرد لا يستطيع أن يضع مثل هذه القوانين

للدولـة، حتى لا تندفـع إلى تحقيق أطماعهـا بـالقـوة. . ومـا دامت الدولة هي الأقـوى، والفرد هـو الأضعف، فسوف تبقى الحـروب لأنهـا الأسلوب الـوحيـد عنـد الشعـوب في حـل مشاكلها الحيـوية. وتحقيق رسـالتها التـاريخية، وتلك مشيئـة الله لأن «الله» القديم هو «الدولة» الحديثة؟!!.

الاغتراب الاجتماعي!
الاغتراب السياسي
الاغتراب الديني!

لأول مرة من ثلاثين عاماً تجيء كلمة «الاغتراب» في خطاب لرئيس الجمهورية. فقد التفت الرئيس حسني مبارك إلى ظاهرة نفسية اجتماعية سياسية دينية خطيرة هي اللامبالاة.. وهذه اللامبالاة سببها أن الشباب في مصر عنده شعور بالاغتراب.. بالغربة.. بالغرابة.. أي أنه غريب في بلاد غريبة.. كأنه ليس مصرياً.. كأنه ليس شباباً.. كأنه أسقط بالبراشوت في مكان غير مكانه، وزمان غير زمانه.. كأنه من أهل الكهف.. كأنه جاء من الكواكب الأخرى بلا خريطة.. بلا لغة.. بلا مبرر..

وكان من الضروري أن تظهر هذه الكلمة سنة ١٩٥٤ عندما أطلق واحد من الإخوان المسلمين رصاصة على الرئيس جمال عبد الناصر في الإسكندرية.. فالرصاص قد انطلق على البطل جمال عبد الناصر.. والذي أطلقه شاب أراد أن ينتقم لما فعله الرئيس عبد الناصر بالإخوان المسلمين والمسلمين والإسلام.. إذن فلقد عكفت جماعة من الشبان على مفهوم البطولة ومعناها ودورها في التاريخ

المصري والعربي، فوجدوا أن حياته تساوي وفاته تماماً. .
وأن الذي أنجزه لمصر لا يساوي ما أوقعه من ظلم وعذاب
بالذين يخالفونه في السياسة. أي أن دوره انتهى. ورسالته
يجب اختصارها. وإنه يجب أن يختفي.

والرصاص الذي انطلق على جمال عبد الناصر ظل
يلف ويدور حتى أصاب السادات بعد ذلك بسبعة وعشرين
عاماً. . ولكن الرصاص الذي لم يقتل عبد الناصر، قد قتل
معاني الرياسة والزعامة والبطولة. . لقد قضى على عشرات
من الكلمات العظيمة الاحترام عند الناس. . إن الرصاص
لم يقتل بطلاً، إنما هذا الرصاص كان مثل مدفع الافطار. .
فبعده أفطر الناس على الكذب وسوء الظن والريبة. .
واللامبالاة. . والكفر السياسي والاجتماعي. . وبعد سنة
١٩٥٤ عرفت مصر كل أنواع الكذب. . وكل أنواع الشك.
وكل أنواع الضيق بالبطل والبطولة والزعيم والزعامة.

ففي سنة ١٩٥٦ تحول موقف جمال عبد الناصر
الخطابي إلى انتصار على العدوان الثلاثي. . فبريطانيا
وفرنسا وإسرائيل لم تغتد على مصر، إنما مصر قد انتصرت
عليها قبل أن تعتدي علينا. . ونحن أخرجناهم قبل أن
ينزلوا. . أو نحن استدرجناهم إلى الهبوط في بور سعيد من
أجل القضاء عليهم. . تماماً كما استدرجنا إسرائيل في
حرب سنة ١٩٦٧ من أجل «الضربة الثانية». . فنحن قد

خططنا للهزيمة ولم نخطط للنصر. . فكانت الهزيمة بناء على خطة موضوعة. . أما النصر فقد كان أسهل لولا تدخل الدول العظمى ولولا خيانة أمريكا. . ولولا خيانة روسيا. . ولولا خيانة العرب ـ كل ذلك قيل. أما الضحية فنحن. ومع ذلك فقد قيل لنا إننا لم نكن ضحية. إنما نحن وقعنا باختيارنا، ونزف دمنا بقرار منا؟!

وبعد ذلك جاء من يقول إن نصر سنة ١٩٧٣ العسكري والنفسي كان هزيمة. وأننا لم نأخذ سيناء كلها، إنما فقط قناة السويس. . حتى قناة السويس لم يستردها جيشنا العظيم، إنما كانت الخطة موضوعة قبل ذلك بسنوات. . وكل ما فعله الجيش أيام السادات، هو تنفيذ الخطة التي وضعت أيام عبد الناصر؟!

ولما استرد الجيش سيناء كلها جاء من يقول إنها خيانة عظمى. فقد استرد المصريون أرضهم، وتركوا الجولان والضفة الغربية والقطاع والقدس والصحراء المغربية والأوجادين الصومالية وجزيرتي طمبا الصغرى والكبرى في الخليج. .

والآن أرجوك أن تضع كل هذه المعلومات على ورقة أمام شاب دون العشرين وأن تتركه بعض الوقت. ثم عد إليه واسأله: ما الذي فهمت من تاريخ مصر؟. من الذي انكسر ومن الذي انتصر؟ من هو القائد الوطني، ولماذا هو

يسرق المليون جنيه؟ . ومن هو الزعيم الوطني ولماذا قتلناه؟ . . وما هذا الجيش الذي ينهزم ويموت منه الألوف . . ومن هؤلاء الذين يقتلون من شباب مصر المسلمين في كل الحروب دون أن يعرفوا أنهم انتصروا في سنة ١٩٦٧ وانهزموا في سنة ١٩٧٣ . . وهم لا انهزموا ولا انتصروا في سنة ١٩٥٦، إنما الذي انتصر وحده لا شريك له هو الزعيم الخالد جمال عبد الناصر!

وإذا وجدت هذا الشاب قد ألقى بنفسه من النافذة، فلا تندهش. فهو لم يفهم. وهو عندما فهم أدرك أنه لا أمل له في هذه الحياة التي امتلأت بالكذب والخداع والتضليل . . وأنه لا يستطيع أن يحترم أباه أو المدرس أو الكاتب أو الحاكم . . فالكل يكذب عليه. والكل يتوهمون أنه بلا عقل وبلا إرادة . .

وإذا لم يلق هذا الشاب بنفسه من النافذة واكتفى بإلقاء الورقة . . فمعنى ذلك أنه لم يحتقر شأنها وشأننا، إنما هو أراد أن يجعلها منشوراً ثورياً . . ألقاها لعل أحداً يلتقطها، ويجمع الشباب حوله ليقوموا بمظاهرة احتقار لكل ما يرون وما يسمعون . . وإذا لم يكلف الشاب خاطره بإلقاء هذه الورقة من النافذة أو تمزيقها، فإنه سوف يتخذ قراراً فردياً بألا يقرأ كلمة واحدة مكتوبة . . وألا يسمع ما يقال وما يذاع . . فلم يعد يثق بالكلمة . . باللغة . . واللغة هي وسيلة

المواصلات الوحيدة بيننا.. هي الكوبري بيني وبينك.. وبيننا وبين المجتمع.. والدنيا من حولنا..

تصور أنك لا تثق بالسلالم. فلا تنزل عليها.. ولا تثق بالمشي في الطريق فلا تخرج من البيت.. ولا تثق بالسيارة والطيارة.. والتليفونات.. والإذاعة. وأنت في نفس الوقت لا بد أن تخرج ولا بد أن تسمع ولا بد أن تعمل وأن تتعلم. إذن فأنت تفعل كل ذلك خائفاً متردداً.. أو تفعل كل ذلك وأنت لا تدري به.. كأنك نائم.. أو في غيبوبة.. هذه الغيبوبة، أي عدم الوعي بنفسك أو بغيرك، هي اللامبالاة.. هي أنك تريد ولا تريد.. تعمل وكأنك لا تعمل. تقول وكأنك تسمع.. تعيش وكأنك انتقلت إلى العالم الآخر.. إذن فأنت غريب في بيتك.. في مكتبك.. في معملك.. في بلدك.. وأكثر من ذلك: إنه لا يهمك شيء.. مما يحدث لك.. وما يحدث لغيرك.. ثم إنك شخصياً بلا دور.. بلا معنى بلا هدف..

وأرى أن هذا الشاب، وملايين غيره، معذور مجني عليه.. ضحية.

ولكن أحداً لم يلتفت إليه..

فلما وجدنا ملايين الشبان يقفون معاً بعيداً عنا.. وفي مواجهتنا وضدنا، هنا فقط قد تنبهنا ولأننا أيضاً قد أصابتنا

هذه اللامبالاة، لأننا أيضاً نحمل وزر هؤلاء الشبان.. إنهم ضحايانا، فنحن الجناة.. نحن القتلة.. فقد توارينا خجلاً أو يأساً من مواجهتهم. وتركناهم يتكدسون معاً، ويعكفون معاً على فهم شيء، وتدبير شيء.. كانت لهم اتجاهاتهم الإيمانية الخاصة بعيداً عنا، وفي غياب منا وفي غربة..

وأصبحنا نقول: هم.. ونحن.. رأيهم ورأينا.. إيمانهم الخاطىء، وإيماننا الصحيح.. ولكننا لا نسمعهم وهم يقولون: هم.. ونحن.. رأيهم الخاطىء ورأينا الصحيح.. هم الكثرة الذين دفعونا إلى الهجرة من مصر.. إلى ما تحت أرض مصر.. إلى كهوف مصر..

فقط عندما اتخذ الشبان المهزومون المقهورون قراراً بأن يكونوا قوة سياسية، فزعنا نحن الأكبر سناً..

فزعنا عندما انطلق الرصاص على البطل جمال عبد الناصر..

ولم نتنبه إلى ملايين الرصاص الذي أطلقه هو على ملايين الشبان والآمال والأحلام.. لم نتنبه إلى مذبحة الفكر المصري والروح المصرية التي توالت مشانقها معركة بعد معركة.

ويوم أطلق شاب في حلوان صاروخاً وصفته الصحف المصرية بأنه أسرع من الضوء، لم يدرك أحد خطورة أن

تحتفـل الصحف بهـذه الحـادثـة الفـاضحـة الجهـل. .
فالصواريـخ اليوم سـرعتها لا تـزيد على ٢٨ ألف كيلومتـر في الساعة ـ أعظم صواريخ أمريكـا وروسيا. . أمـا سرعـة الضوء فهي ١٨٦ ألف ميل في الثانية؟!!

ولم يعلق أحـد من أساتـذة كليات العلوم والهنـدسـة في مصـر على هـذه الفضيحـة العلميـة. . ولم ينتبـه الـذي كتب الخبر والذي نشره والذي هو مسؤول عنـه بعد النشـر إلى هذه الغلطة الفـظيعـة ـ وكـان هـذا الصمت، أو التـراخي في التصحيح، قمة اللامبالاة الجماعية. .

ويكفي أن نقـارن بين هـذا الخبـر والـذي حـدث في أمريكا يـوم أطلق الروس «اسبـوتنيك» وهـو أول قمر صنـاعي سنـة ١٩٥٧ ـ يـزن ١٨٥ رطـلاً، ليـدور حـول الأرض. لقـد زلـزلت أمـريكـا كلهـا: حكـومـة وهيئـات علميـة وسيـاسيـة ودينية. .

ولم تمض سـوى شهـور حتى أطلقت أمـريكـا أول قمـر لها. .

مـا زالت أمريكـا تـطلق سفنـاً إلى الفضـاء حتى أطلقت أخيراً المكوك الفضائي كولـومبيا وهـو يزن ٦٥ ألف رطـل أي أكبـر من أول قمـر روسي بمقـدار ٣٥٣ مـرة. . وأطـلقت تسعمـائة رائـد فضائي أقـامـوا حـول الأرض مـا يعـادل سبـع سنـوات. . وعشـرات الألـوف من الأجسـام تـدور حـول

الأرض. فقد تأزمت أمريكا وتقزمت - أي شعرت بالأزمة وأحست بأنها قزم إذا ما قورنت بروسيا سنة ١٩٥٧. . ولكن القزم تعملق، حتى تقدمت أمريكا في كل علوم وفنون الفضاء والسفر إلى الكواكب الأخرى. .

وتساقطت عشرات العمارات في مصر - أي ضحى المهندسون بالذي تعلموه في الهندسة وفي علوم الأخلاق، من أجل فلوس المقاولين - فكانت أزمة علمية أخلاقية. .

ولكن انهيار العمارات في مصر لم يؤد إلى فزع أخلاقي أو قلق علمي في معاهد مصر. .

فما الذي فعله اليابانيون عندما عثر أحد مفتشي الأسواق على كاميرا حاول فتحها فلم تنفتح. . وتقدم منه البائع قائلاً: إن هذه هي ثالث كاميرا نحاول معها ذلك ولكنها لا تستجيب.

وسافر المفتش الياباني إلى طوكيو. وقرر المصنع إقفال أبوابه يومين. التقى جميع المهندسين والمخترعين والمصممين والمديرين لمواجهة هذه الكارثة: كاميرا لا تستجيب لأصابع الزبون. . كاميرا اتخذت قراراً فردياً هو إساءة سمعة الصناعة اليابانية. . كاميرا لسبب غير واضح قررت تدمير اليابان كلها بأقسى وأعنف مما فعلته قنابل هيروشيما. .

واكتشف الأطباء اليابانيون أن الخطأ جاء من أن أحد العمال الذي يقوم بربط أجزاء هذه الكاميرا مصاب بالنقرس وتصلب في أصابع يده اليسرى. . وإن هذا التصلب يجعله أبطأ ويجعله غير قادر على ربط أجزائها بإحكام. . إنه عامل من تسعين ألف عامل! . .

وقرروا الاستغناء عن جانب كبير من العمل اليدوي في هذه المرحلة من تركيب الكاميرا. وأقفل المصنع أبوابه ليقوم جميع العاملين بفتح الكاميرات، واحدة واحدة قبل تصديرها. . وكذلك فعل مئات المفتشين الذين سارعوا بالسفر إلى جميع عواصم العالم! .

ثم بلغت اللامبالاة في مصر أقصى وأقسى درجاتها، فامتنع ثمانية ملايين ناخب عن الإدلاء بأصواتهم . .

أي كانت عندهم فرصة لأن يكون لهم رأي وموقف، فلم يفعلوا شيئاً . .

أي أتيحت لهم فرصة رسم خريطة مصر، ووضع جدول أعمال مصر، وتشكيل مجلس إدارة مستقبل مصر، فلم يهتم أحد من هذه الملايين بشيء من ذلك.

لا ذهبوا، ولا أعلنوا امتناعهم عن التصويت. .

أي لا ذهبوا فقالوا: لا . .

ولا ذهبوا فقالوا: نعم . .

وإنما كان الصمت هو «لعم» ـ أي لا ونعم معاً . .

وهي قمة اللامبالاة السياسية والاجتماعية . .

واللامبالاة هي نتيجة هذا الشعور بالغربة والاغتراب . .

والاغتراب أنواع: الاغتراب الروحي . . أي يلجأ الإنسان إلى بيت فكري يقيمه لنفسه . . فهو هارب من الواقع إلى مخيمات فلسفية أو سياسية أو أدبية . . يعيش فيها، ويستقر بعيداً عن الواقع المصري . . لأنه غير راض عنه. ولأنه غير قادر على التكيف معه . . وعاجز عن تغييره، ليكون مناسباً له . .

ومثل هؤلاء المغتربين: كثير من الرومانسيين في القرن السابع عشر والثامن عشر. وأنا أرى شخصياً أن أكثر الأدباء المصريين رومانسيون، حالمون بعالم أفضل وليس لديهم برنامج واضح لذلك. ولذلك انتشر الرمز، والإيحاء والهمز والهمس واللمز واللمس في الرواية والمسرحية والقصيدة . .

وهناك «الاغتراب الاجتماعي»، فيحس الشاب أنه حائر بين طبقات المجتمع . . فهو قفز من الطبقة الدنيا، ويحلم بالطبقة العليا، وعاجز عن الوصول إلى الطبقة الوسطى الأكثر عدداً والأكثر مالاً . . فهو بالواقع عاجز، وهو بأحلامه شقي . . وهو لا يعرف ما فائدة العلم والدراسة. إذا كان الذي يتخرج في كليه الهندسة يكسب أقل من السمكري

والنقاش والسباك.. وإذا كان المهندس الزراعي يكسب أقل من الفلاح.. والطبيب أقل من السائق.. والعسكري أقل من اللص.. وفي نفس الوقت نحاكم الناجحين على أنهم غشاشون.. ويجيء الظلم سريعاً ويجيء العدل بطيئاً.. فكم من أبرياء خرجوا موتى بعد أن أهلكتهم الفضيحة والعار، بينما اللصوص والمهربون دخلوا وخرجوا، بين صفين من كبار المحامين.. فما هو العدل؟ وما هو ثمن النجاح؟ وما هي جدوى الشرف والأمانة؟..

و«الاغتراب السياسي» معناه: إنهم لا هم مواطنون ولا هم رعايا.. لا هم محكومون ولا هم حكام.. لأنهم لا يمارسون أي نوع من إدارة العلاقات الشعبية. لا في الكلية ولا في الجامعة ولا في الأحزاب السياسية.. إنهم يقرأون أسماءهم وصفاتهم في خطب الأساتذة والعمداء والوزراء.. وتجيء أسماؤهم كأنها تأبين لهم. ولذلك فهم لا يجدون أنفسهم في أية صيغة سياسية..

وأخيراً «الاغتراب الديني» عندما يشعر الشبان بأن المجتمع فاسد، أخلاقياته وسياساته.. وأن الإسلام قد انحرف به الكبار.. وأنه لم يعد إسلاماً إنما هو استسلام للطاغوت ـ أي للشيطان والظلم.. وإنهم لذلك كافرون بهذا الإسلام المزور.. أو أن الناس جميعاً هم الكافرون ـ وأن الإسلام الصحيح هو الذي درسوه وحفظوه.. ولذلك

فهم يهاجرون بدينهم بعيداً عن هذا المجتمع الكافر، الذي لا يحكم بما أنزل الله على الرسول عليه السلام . .

فكانت عقيدتهم «تكفير» المجتمع و«الهجرة» بعيداً عنه . .

وهم لذلك لا يشاركون ولا يساهمون بشيء في بناء هذا المجتمع . . إنهم يتفرجون عليه ويتوقعون انهياره، وهم يرون أنه انهار . . وهم في ابتعادهم يتربصون وينتظرون ويستعدون، وهم لا يرون أنهم فقط غرباء، إنما المجتمع هو الغريب عنهم . .

فهم الغرباء بين الغرباء، وهم الغرباء في الأرض الغريبة. ولكنهم لا يرفضون مصر، وإنما «إدارة» مصر . . وهم لا ينكرون مصر، ولكن يستنكرون حالها الأخلاقي والاجتماعي والسياسي . .

فما هو الحل ـ أي ما هو علاج ظاهرة أو مرض اللامبالاة في مصر؟ . .

العلاج هو أن يبالي الناس بأنفسهم ومجتمعهم وبلادهم. حاضرهم ومستقبلهم. أي أن يكون لهم دور . . موقف إيجابي . كيف؟ . .

لقد كتبت هنا كثيراً عن هذا المرض . . وكان مقالي الأول في العدد الأول من هذه المجلة عن «دوخة» الشباب بين الذي نقوله لهم والذي يرونه في الواقع . . وسقوطهم

في الهـوة الـواسعـة بين الصـدق والكـذب. . ثم عشـرات المرات في مقالي «مواقف» اليومي في «الأهرام». .

كمـا أنني نشرت في هـذا المكان في العـام الماضي أن الـرئيس مبـارك عكف على قـراءة كتـاب عنـوانـه «أمـة في خطر» - وهو التقرير الـذي كتبته أكبـر هيئة علميـة في أمريكـا بتكليف من الرئيس الأمريكي. .

وقـد تولى شـرحه ونقله والـرد عليـه د. مصـطفى كمـال حلمي في عـدة مقـالات، نشـرت في هـذه المجلة. أمـا التقرير فهو مهتم بظاهرة السطحيـة والتفاهـة التي انتشرت في المدارس والمعاهـد والجامعـات الأمريكيـة. وكان من نتـائج ذلك أن تقدمت اليابان وألمانيا وبريطانيـا على أمريكـا في كل مجـالات العلوم والصنـاعـة والبحث والإبـداع - إنهـا كـارثـة كبرى لأكبر وأغنى دولة صناعية في العالم! . .

فما هو الحل الذي وجدوه؟ . .

الحـل هو «الجـدية». أي الـروح الجادة بين التـلاميـذ. الضبط والـربط واستخـدام العصـا في بعض الـمـدارس. إصـلاح حال المـدرسين ورفع مستـواهم، وأن يكون لـلآبـاء دور إيجابي في تربية الأولاد في البيت وفي المدرسة. .

وهو نفس الرأي الذي اقتنع به الرئيس مبـارك في خطابـه الأخيـر إلى مجلسي الشعب والشورى، وفي خـطابات سـابقة

أيضاً: إننا في مصر في حاجة إلى مزيد من الإنتاج، أي العمل الإيجابي، وهذا العمل الإيجابي هو الشفاء من اللامبالاة والعزوف عن الحياة السياسية والاجتماعية والأخلاقية.. أي بالكف عن الشعور بالغربة والغرابة.. أي باسترجاع الشعور بالقرب والقرابة.. أي بالمشاركة العملية، لا بالفرجة الخيالية على ما يحدث في مصر..

ولذلك كان لا بد من الاهتمام بالتعليم الفني.. أي تأهيل الطالب وهو يدرس إلى أن تكون له حياة.. فهو يتعلم ليعمل.. فالمدرسة يجب أن تكون المدخل النظري إلى الحياة العملية. ولذلك لا بد من تغيير برامج التعليم، وتغيير السياسة التعليمية والتربوية لمصر. لكي تملأ العقول الفارغة، وتشغل الأيدي العاطلة، وتدعم العلاقات الهزيلة بين الشباب..

ولا خوف عليهم أو منهم بعد ذلك.

ولن يتحقق كل ذلك في عام أو خمسة أعوام.. فتغيير الناس يحتاج إلى وقت طويل.. أما أمريكا في تقريرها الخطير هذا فقد صممت على أن تظل اللجنة التي كتبت هذا التقرير منعقدة إلى نهاية القرن.. أي أن تظل أمريكا في حالة طوارىء روحية عشرين عاماً أخرى حتى تنتهي اللامبالاة والتفاهة ومجتمع الكافتيريا ـ أي المجتمع الذي يجلس فيه الطلبة يأكلون السندوتش ويمضغون اللبان

ويضحكون بعيداً عن الفصول والمدرجات دون أن يعاتبهم أحد، ودون أن يعاقبهم أحد، ودون أن يتنبهوا إلى خطورة الوقت الضائع على بلادهم في هذه المقاهي والمطاعم المنتشرة في الجامعات وحولها.

فهم في أمريكا قرروا لأنفسهم عشرين عاماً، يتمكنون خلالها من تعديل مسار التربية المنحرفة والتعليم النظري قبل أن تسبقهم اليابان إلى كل شيء في الصناعة، وقبل أن تغرقهم بالبضائع الأفضل والأرخص! . .

وإذا لم يجلس عدد كبير من العلماء والخبراء في مصر لمدة عشرين عاماً، لبحث أسباب وعلاج هذه اللامبالاة أو هذا الاغتراب، فمعنى ذلك أن المرض قد استشرى فينا صغاراً وكباراً. . وأن الكبار لا يحق لهم بعد اليوم أن ينصحوا الصغار. . فعليهم أن يبدأوا بأنفسهم، قبل أن يتجهوا إلى الشباب. .

وعندي أمل في مجلس الشعب. . فهذه الانتخابات الأخيرة، وإن لم تسعد كل الأحزاب فهي قد أراحت الناس. فسوف نسمع ونرى وجوهاً جديدة. ولهجة جديدة. ونبرة مفيدة. وسوف يطلق كل الناخبين أصواتهم وبالونات أحلامهم وآمالهم. .

ولكن عيبنا، نحن المصريين، أننا لا نصبر على حال

واحدة. . وإذا صبرنا على حال واحدة بعض الوقت فسوف نشعر بالملل والقرف، وندعو إلى التغيير. ويجيء التغيير، ولكننا لا نرضى عنه عادة ونتطلع إلى تغيير آخر. . لمجرد الرغبة في التغيير دون أن يؤدي إلى تعديل لمسيرة الأشياء أو تصحيح للعلاقات الاجتماعية والسياسية. .

ولكن سوف يكون لما يدور في مجلس الشعب صدى في الصحف المصرية والعربية ويكون له صدى في وسائل الإعلام وفي الحياة الاجتماعية. . وسوف يحرك الحياة الراكدة في مصر. .

ولن يكون له أثر كبير. فالحياة الراكدة أقوى من مجلسي الشعب والشورى. . وأقوى من الحكومة. . وهي في حاجة إلى قوة أكبر، ودفع أعظم. ولن تتحقق الحركة والحيوية والإيجابية إلا في وقت طويل. .

وكذلك الاغتراب الروحي والاجتماعي والسياسي والديني. . وهذه اللامبالاة.

ومن أهم عاهاتنا الأخلاقية في مصر: العجز عن الاستمرار. ولذلك فنحن نسرف في استخدام هذا التعبير: المرحلة القادمة. .

ما من خطاب لأي مسؤول في أية مناسبة إلا جاء فيه: وفي المرحلة القادمة نحن نحتاج إلى كذا وكذا. .

ويكون الفارق بين المرحلة الماضية والمرحلة القادمة: يوماً أو ساعة.. مثلاً لو قام رئيس وزراء بتشكيل وزارة جديدة لجاء في خطابه: «أما المرحلة القادمة».. مع أن المرحلة السابقة قد كانت قبل ذلك بساعة أو ساعتين. فنحن نتوهم أننا «نبدأ» شيئاً جديداً والحقيقة أننا لا نبدأ، إنما نحن نستمر في القديم..

وإذا اتخذنا شيئاً جديداً، فنحن لا نصبر عليه.. لا نستمر. فكم من ألوف المشروعات بدأناها ولم نكملها، إذن فمشكلتنا ليست أن نبدأ، إنما مشكلتنا أن نستمر.. أن نثابر.. أن نمضي.. ألا نتوقف..

وفي حياتنا العادية نقول: سوف أتوقف عن التدخين أول الشهر.. سوف أبدأ المذاكرة يوم السبت، أول الأسبوع.. ابتداء من العام القادم سوف أعامل الناس جميعاً بشكل آخر.. هكذا نبدأ مع بداية الأسبوع أو الشهر أو السنة.. نحب ذلك، ونتوهم ذلك. ولكننا لسنا جادين في البداية أو الاستمرار ـ هذا هو مرض الأمراض المصرية النفسية والاجتماعية والأخلاقية. ومن هنا يبدأ القضاء على جرثومة اللامبالاة، وميكروب الاغتراب، ووباء الفرجة على مصر دون أن نمد لها يداً، أو نطلق لها خيالاً، أو نحقق لها إبداعاً..

وقد جاءت عبارة «الاغتراب» ضمن خطاب الرئيس

مبـارك، قصيرة خـاطفة ولكنهـا لامعة بـارقـة صـاعقـة. وهي المفتاح الصغير لأكبر خزائن الأوجاع المصرية . .

والمفتاح في أيدينا جميعاً . .

أيها الشاب
صوتك هام
وأنت أيضاً!

في الخمسينات من هذا القرن جاءت هذه العبارة في إحدى مسرحيات الأديب الفرنسي يونسكو: لا أحد. . إنه والذي يموت! واهتز المسرح والصالة والمجلات الأدبية لهذه العبارة التي قالها رجل لم يهتز. مع أن الذي يصرخ من الألم رجل يموت. . وهذا الرجل أبوه حبيبه الذي ترك له مليون جنيه، وترك له لقباً وزوجة حسناء.

وتلفت الناس على المسرح، وتلفت المتفرجون في الصالة، وتبادل النقاد أقلامهم وهم يندهشون لهذا البرود والبلادة والجمود واللامبالاة التي جاءت في هذه العبارة دليلاً على الذي أصاب الوجدان الفرنسي خصوصاً والأوروبي عموماً، في أعقاب الحرب العالمية الثانية. .

ثم استراح الناس في أوروبا إلى عنوان مسرحية الكاتب الإيرلندي توماس بيكت: في انتظار جودو. ولكن جودو لا يجيء، فكل شيء في المسرحية يتعلق على مجيء جودو. . وتنتهي المسرحية، وجودو هذا الغامض القادر على حل كل شيء، لا يجيء. ويبدو أنه لم يحضر حتى

الآن..

وجاء عنوان هذه المسرحية ومعناه ومعناها دليلاً على أن الناس بدأوا يؤجلون الحسم واتخاذ القرار، انتظاراً لهذا الغائب الذي لن يجيء.. أو بعبارة أخرى كان معنى المسرحية: إذا جاء جودو انحلت هذه المشكلة.. إذا حضر جودو، أصبح لكل شيء ثمن ولكل طريق هدف، ولكل بداية نهاية.. ولكن جودو لم ولن يجيء.. ولذلك فسوف يبقى كل شيء معلقاً بين القول والعمل، بين السماء والأرض، بين البداية والنهاية، بين الأمل والإدارة..

ورأى المفكرون والمؤرخون أن مثل هذه الأفكار تدل على مرض الروح الأوربية.. لأنها غير قادرة على الانفعال.. غير قادرة على الحزن. على الفرح. على الأمل.. وأن هذا العجز هو الذي جعلها هكذا بليدة.. أو هكذا لا مبالية بشيء مما فيها، أو مما حولها..

ولذلك يجب أن يذهب أناس كثيرون لمشاهدة هذا النوع من المسرحيات التي تصور الأعماق الخاوية للإنسان.. والتي تجعله يشعر بالخجل من نفسه، فيفعل شيئاً. فليست هذه المسرحية إلا صوراً قبيحة لا يحب أن يراها..

وذهب الناس في أوروبا إلى هذه المسارح سنوات، ثم

انصـــرفـوا عنهـــا. لأنهم قـد فهمـــوا المعنى الـــذي قصـــده المؤلفـون. . ثم إنهم تجاوزوهـا. . أي انتقلوا من اللامبـالاة إلى المبـالاة، من الـرغبـة إلى تحقيقهـا، ومن الاهتـــزاز بين طرفين إلى الحسم. .

ورأينا في القاهرة بعض هذه المسرحيات. . وعرفنا منهـا معنى التفـاهـة والـلامعنى. . وفقـدان الإرادة. . وأقبلنـا على هذه المسرحيات، وشاركنـا في كتابـة مثلها، ونقـدها والنفـور منهـا. . وأحسسنا كـأنها غـريبـة علينـا. . فهـل تتحـدث عن إفلاس العقل الأوروبي ـ أو أن الإفـلاس غـريب عنـا، أو أنـه قديم فينا؟. ولذلك أثارت اهتمامنـا ولم تثر همـومنا. . فكمـا جـاءت أو ذهبت ولم تتـرك أثـراً. . إنمـا هي «مـوضـة» فنيـة تفـرجنا عليهـا، وتحدثنـا عنها، واختفت فقـاعـة في مـاء، أو دخاناً لسيجارة. .

فهـل هي لم تتـرك أثـراً، لأننـا كنـا أسبق منهـا شعـــوراً بـاللامبـالاة؟ هل هي تحـدثنا عن التفـاهـة العـارضـة، بينمـا التفاهة عندنا مستقرة؟. هل «مسـرح العبث» الذي استضفنـاه في مصـــر، لم يكن جـديـــداً إلا في الشكـل فقط. . أي أن العبث قـديم فينا، ولكن أن يكـون عملاً مسـرحيـاً فهـذا هـو الجديد؟. أما الأوروبيون فقد استطاعـوا أن يحددوا متى ظهـر الإنسان الخاوي الفارغ الأجوف، متى ظهـرت الكلمات التي هي مثل علب من ورق. . قشر بيض. . غطيان زجاجات.

قالوا امتلأ الإنسان فراغاً بعد الحرب الأولى وقالوا بعد الثانية. . وقالوا بل قبل ذلك بعد الحرب السبعينية بين بروسيا وفرنسا ـ أي بعد الحروب الكبرى ظهرت الهزات العنيفة التي تبدد الأحلام العظمى، ولا تترك للإنسان إلا «نشارة» أفكاره ورماد أحلامه ورفات الأيديولوجيات السياسية. .

شيء من مثل ذلك أصابنا نحن أيضاً. . ومنذ وقت طويل. والنتيجة هي هذه اللامبالاة. . التي اتخذت أشكالاً مختلفة من الانتظار الطويل لشيء يجيء ثم لا يجيء. . فنحن كنا ننتظر خروج القوات البريطانية لنحقق المعجزة بعدها مباشرة. . وننتظر خروج القوات الإسرائيلية. . وكل قوات الاحتلال خرجت. ولكن استقرت قوات اللامبالاة. . واحتلت البلاد، وتغطت النفوس بالكسل، والعيون بضمادات سوداء. . لماذا؟.

لأن من الأسهل ألا نفعل شيئاً. ومن الأصعب أن نفكر ونقرر، وبعد ذلك أن نمضي نفعل ونختار. ونقرر ونلتزم ونداف عن القرار.

وأيسر من ذلك أن نستريح إلى أن القرار ليس في أيدينا، إنه في أيدي الإنجليز والأمريكان والروس واليهود. . وفي أيدي العرب ـ في أيدي كل الناس إلا في أيدينا. ثم

نحلم بـأن يجيء ذلك اليـوم الذي تـطول فيه أيـدينـا وتقصـر أيـدي هؤلاء الغربـاء الغزاة الـطامعين. . فإذا انقـطعَت أيدي الغرباء، كان أمرنا بيدنـا، وقرارنـا بإرادتنـا، ومستقبلنا خـادماً لحاضرنا. . وعلى الأرض السلام!

ولأننـا لا نـريــد ذلـك اليــوم أن يجيء، لنـظل هكــذا مقهـورين مظلومين معـذورين، فإننـا نتوهم قـوات تمنعنـا من اتخــاذ القــرار. . تمنعنــا من أن نقــول لا أو نعم. . أو إذا تحمسنـا وخرجنـا من هـذه الـلامبـالاة، فلكي نخـطو خـطوة واحــدة. . فـنـقــول: لا. . لأي شــيء. . لأي رأي. . لأي قرار. . أي نرفض ما لا نعرف وما لا نفهم وما لا نرى. .

فقط كما تقول المسرحيـة: إن الذي يمـوت في الداخـل ليس أحداً. . إنه والدي. .

مـع أن المعقول أن يقـول الإنسـان: إنـه أحـد يتـألم لا أعرف من هو. .

ولكن المسـرحيـة تقـول: إنـه والـدي ورغم ذلـك فــلا يهمني ما يعانيه من ألم أو ما ينتظره من موت!

هذه إجابتي المختصرة عن سؤال يتكرر بيننـا هو: لمـاذا هـذه اللامبـالاة عند كثيـر من الشبان؟. . لمـاذا لا يذهبـون ـ عادة ـ إلى صناديق الانتخـابات ويكـون لهم رأي؟. أي لا بد أن يقـرروا الذهـاب. وعنـد الصنـدوق يقـررون أن يقـولـوا:

لا . . أو نعم . ولكن المهم أن يكون هناك موقف . . ولا يهم بعد ذلك ما هي النتيجة . ولكن الذي نراه في مصر هو أن عدداً هائلاً من المتعلمين والمثقفين الشبان لا يذهبون . أي لا يبالون : إن كان هذا الذي يتألم ويصرخ هو أباهم ، أو أي إنسان آخر . . إن كانت المشاركة في اختيار من يمثلهم في البرلمان أو في الحكومة ، شيئاً هاماً . . وإن كانت أداة الحكم والتنفيذ والتخطيط من اختيارهم . . أي إن كانت مصر المستقبل هي مصرهم ومصيرهم . .

وهناك فرق بين الرفض واللامبالاة . .

فالذي يرفض قد اتخذ قراراً ضد إدارة أو نظام أو نظرية . ثم إن هذا الرفض قد اتخذ شكل الرفض الجماعي ـ أي محاولة أن تكون للرفض شعبية . . ولذلك فالرافض يدعو إلى رأيه ونظريته المخالفة ، في الشارع والنادي والصحف . وقد يكون الرافضون أضعف من الإدارة والمؤسسة ولكنهم يرفضون . وهم لا يكتفون بالرفض أي بقول : لا . . إنما لديهم برنامج إصلاحي . أي لديهم بديل .

وقد رأت أوروبا أشكالاً وألواناً من الرفض بعد الحرب العالمية الثانية وبعد فشل العدوان على قناة السويس وبعد فشل أمريكا في حرب فيتنام ، ولا يهم أن هذا الرفض قد انحسر لتظهر أنواع أخرى من السلوك الشبابي في كل

الدنيا. وقد يكون الرفض نوعاً من المخالفة فقط أو الوقوف ضد السلطة. ولكنه موقف إيجابي . .

وهو لذلك أفضل كثيراً من الذي لا موقف له. أي لا قال لا ولا قال نعم. وعندما فتح فمه تثاءب. . أو ابتلع بعض المخدرات، ليغيب عن الواقع فلا يجد نفسه مضطراً إلى الرفض أو اللامبالاة. .

وفي مسرحية للكاتب الإسباني أرابال أن فلاحاً غنياً وقف بين أبقاره وأغنامه ودواجنه وأبناء القرية يقول: اعترف لكم أن هذه الأرض ليست ملكي. . ولا هذه الأبقار ولا الأغنام! .

ثم تلفت يميناً وشمالاً، وتولاه الرعب وهجم على دجاجة وهرب بها بعيداً عن القرية! .

المعنى: أن هذا الرجل لأنه أراد أن يسرق، فقد أعلن أن كل الذي يملكه لا يملكه. ولذلك فليس هو صاحب الأرض، وهو غريب عن القرية. . ولذلك فلا بد أن يسرق لأنه محتاج إلى كل ذلك!

تماماً كالذي يشعر أن هذه البلاد ليست بلاده. . وأنه ليس من هذا الشعب، وأن هذه الحكومة لا تمثله، وهذه الأحزاب لا تتحدث عنه. . أي أنه إنسان أجنبي عن هذه البلاد، وعلى ذلك فلا حق له في أن يذهب إلى صناديق

الانتخابات ويدلي بصوته!.

فهو الذي فرض على نفسه الغربة ليعيش أجنبياً.. فلا صوت له، ولا رأي له في الانتخابات أو في الإدارة أو السياسة..

هذه هي الغربة بالإكراه ـ هو الذي أكره نفسه على أن يكون غريباً. حتى لا يكون له رأي، أو يطلب منه أحد ذلك!

وتسمع من الشبان مثل هذه المعاني أيضاً. فيقولون: نحن غرباء في بلادنا..

حتى الجماعات الدينية المتطرفة استراحت إلى هذا المعنى..

فالجماعات المتطرفة ترى أن إيمانها هو الحق. وكل الناس كافرون. ولما كانت الجماعات الدينية أقلية، فهي أضعف من أن تفرض على الناس ما يؤمنون به. ولذلك فهم غرباء في بلادهم، مهاجرون بإيمانهم. وما داموا أقلية ضعيفة، فلا حق لهم في أن يجاهروا بدينهم الآن.. ولذلك فهم يتوارون بين الناس، وقد يدفعهم التخفي والكمون إلى الامتناع عن الصلاة، حتى لا يعرف الناس أمرهم. وهم في ذلك يفعلون ما كان يفعله المسلمون في مكة. فعندما كان المسلمون في مكة منعهم الخوف من التظاهر بدينهم.. فالمسلمة تتزوج مشركاً ولا تنطق.

والمسلم لا يصلي علناً ولا جماعـة. . وقـد يـدفعـه الخـوف إلى شـرب الخمـر، حتى لا يعـرف أحـد أنــه أسلم. . وقـد يدفعه الخـوف إلى السرقـة، ليؤكد للمشـركين في مكة، أنـه لـم يؤمن بالدين الجديد. . وقـد يتزوج دون عقـد ودون شهود لأنـه خائف على دينـه. . ولذلـك فهذه الجمـاعات المتـطرفة تـرى أنها في حـالة هجـرة، إنها في حـالة غـربـة وسط هـذا المجتمع الكافـر ـ أي المجتمع الـذين حكموا بتكفيـره. فهم مهـاجـرون، أو أنهم قـامـوا «بتهجيــر» أنفسهم أو «بتغـريب» أنفسهم. . ومعنى ذلـك أنـه لا يصـح أن يشـاركـوا بشيء في إدارة الدولة التي حولهم. . ولذلك فهـم رافضون. .

فكأنهم أعلنوا أن مصر دولة أجنبيـة. . وإنها هي الغـريبة عنهم. وإنهم دولــة «الــطاغــوت» أو الشيــطان أو الــظلم والظلام. . ولا يسعهـم إلا أن يرفضـوها كمـا رفضتهـم. . وأن ينكروها كما أنكرتهم. .

وفي مدينة القـدس جماعـة دينية يهـودية متـطرفة اسمهـا «نـاطورا كـارتـا» أي حـراس المـدينـة. وهـم يـرون أن دولـة إسـرائيل دولـة حرام. قـامت على باطـل، وأن اليهود الكفـرة قد أقاموها قبل أن يجيء المسيح الـذي سوف يخلص اليهـود من عذابهم وويلاتهم. ولذلك فهـذه الجماعـة لا تتعامـل مع إسـرائيل ولا بـالنقد الإسـرائيلي، ولا تتكلم اللغـة العبـريـة، وتحرم العلم في دولة إسرائيل وفي جيشها الذي أقـام الباطـل

ليدافع عنه، فإذا أرادوا أن يزوروا «حائط المبكى» الذي يرونه بأعينهم، فإنهم يطلبون من السلطات الأردنية أن تسمح لهم بدخول المدينة. لأنهم يرون أن الأردن هي الدولة التي تملك القدس وتدير شؤونها، أما إسرائيل فقد اغتصبت ذلك. . و«حراس المدينة» لا يزيد عددهم على بضعة آلاف. هذه الألوف أنكرت دولة إسرائيل وحكمت عليها بالطرد. . وبأنها غريبة عنهم، ولذلك فهم لا يعترفون بها. إنما يكفرونها. ولأنها قوية وهم ضعاف، فليس في استطاعتهم تقويضها أو القضاء عليها، ولكنهم لم يفقدوا الأمل انتظاراً لمجيء مسيح الخلاص في نهاية العالم!

إذن فهذا الشعور بالغربة والتباعد بين هذه الجماعات الشابة السياسية أو الثقافية أو الدينية. . والمجتمع الكبير، هو الذي أفقدهم «دلالة» الكلمات، والكلمات هي وسيلة الاتصال الوحيدة بيننا. . ولما كانت الكلمات كثيرة ومتضاربة وأكثرها بلا معنى فلا توجد لغة مشتركة. ولا آمال مشتركة. ولا هدف مشترك، إنما شعور واحد هو: خيبة الأمل الذي ورثه الشباب عن آبائهم. فلم يكن سهلاً من الناحية النفسية والاجتماعية أن تنهار المثل العليا المصرية والعربية في مدى عشر سنوات: أن نتهم الزعيم جمال عبد الناصر بالسرقة وأن نتهم الزعيم الشجاع أنور السادات بالخيانة. . ولا أن تجيء الأحزاب القديمة التي قامت الثورة

ضـدهـا، فتجـد لهـا صـدى عنـد الشعب. . ويمشي الشعب وراءها، ويكون المعنى: أن هذه الأحزاب القـديمة مـا زالت أفضل وأن الثورة إذا كـانت قد حكمت عليهـا بالإعـدام. فإن الشعب استـأنف هـذا الحكم ضـد الثـورة. وحكم لهـذه الأحـزاب ضد ثـورتي يوليـو ومايـو، ضد كـل إنجازاتهمـا في الاستقلال والاستقرار والأمان الاجتماعي والانفتـاح والدستـور الدائم وشرعية المعارضة ودستورية الأحزاب والنصـر والسلام مـع إسرائيـل ـ أي ضد استقـلال القرار المصـري، أي ضـد طـرد كل القـوى الأجنبية التي كـانت تشل الإرادة المصـرية، وكأن السير وراء الوفد وغيـره من الأحزاب، هـو عودة إلى مـا كانت عليه مصر قبل الثورة. .

وفي مواجهة هذا الطوفـان من الأفكار المتضـاربة والآراء المتشابكة يضيع جيل بـأكمله. أما رجـال السياسـة القدامى، فقد تدربوا طويـلاً على المشي في الضباب، والسبـاحة ضـد التيار ومعه. فلا خوف عليهم. إنما هو الخـوف يتولانـا ونحن ننـظر إلى الضحايـا النبلاء من الشبـاب. فـلا تـزال أفكـارهـم خضـراء، وأحـلامهم ورديـة، وحقهم في الحيـاة مقـدسـاً، وواجبهم يدعوهم إلى أن يفعلوا ما هو أفضل. .

وفي منـاقشات طـويلة في الأسبوعين المـاضيين، تمـزق قلبي حـزناً وأسفـاً على مـا أصـاب جيـلاً كـامـلاً. فـلا شيء واضحاً عنـدهم: لا الكلمـات ولا معـانيهـا، ولا النـظريـات

وتطبيقاتها، ولا الأحزاب وبـرامجها، ولا قـول: نعم ولا قول لا ولا صناديق الانتخابـات. . لماذا؟ لأن أحـداً لم يقـل لهم شيئاً. لأن أحداً لم يحـدثهم بصدق وإخـلاص. لأن أحداً لم ينـظر إلى ما تحت قـدميه وهـو يـدوس الـرقـاب والقلوب من أجـل المقعد في مجلس الشعب أو غيـره من مجـالس الإدارة والسلطة. . لأن كـل الأجهـزة تنـظر إلى هؤلاء الشبـان على أنهم «أطفـال» وأن دورهم سوف يجيء ولـذلك فـلا يصح أن يتعجلوا طريقهم إلى إدارة شؤون مصر. .

قلت لأحد الشبان: سوف تعطي صوتك.

أجاب: ما جدوى صوت واحد؟

قلت: ولماذا واحد؟. . أنتم بالملايين. .

قال: ولكني لم أسمع عن واحد سوف يعـطي صوتـه. . فما قيمة صوت واحد هو صوتي؟!

قلت: ولكن صوتك ولو كان واحـداً له قيمـة. . لأن لك قيمـة. . المهم أن تشعر أنـك أنت لـك قيمـة. وأن صـوتـك قيمـة. إن مليماً واحداً له قيمـة. . ولكن إذا قورن بـالمـلايين فقيمته صغيرة. . ولكنها قيمة. . فلمـاذا لا تدعـو زملاءك إلى أن يكـون لهم صوت؟. . إن مليـون صوت ليس صـوتاً. إنـه دوي. . عـاصفة. . زئيـر. . ولا أمل لمصـر، إذا كان شبـابها لا يـرى أن له قيمـة. . فإذا كـان «الآخرون» يعتقـدون أنـه لا

قيمة لكم.. فهذه فرصتكم لكي تؤكدوا أنكم أنتم القيمة.. ولم يحدث إصلاح أو تطوير أو تعجيل بالتطوير بغير هذا الرأي وهذا القرار.

قال: العكس هو الصحيح تماماً.. فعندما أشعر أنني أقف وحدي في المقدمة وليس ورائي أحد، فلم أعد مقدمة.. ولا أنا طابور.. ولا أنا مظاهرة.. ولا أنا دوي.. إنني انظر ورائي في خوف وأمامي في يأس.. وكذلك ملايين الشبان..

قلت: ليكن لكم حزب.. ليكن تجمع.. تكتل.. أي اسم. ومادام لكم رأي وتؤمنون به، فمن الضروري أن تدعوا إليه.. كل الأحزاب والهيئات والمنظمات والجميعات الأدبية والخيرية كانت هكذا.. ولكن إذا كنت أو كنتم لا تؤمنون بنأفسكم، فالآخرون معذورون إذا رأوكم أطفالاً عابثين..

ـ.. ولا أظن أن أحدنا أقنع الآخر.. ورأيت يده تنقبض وتنبسط، كأن بها تذكرة انتخابية قد التصقت بها، وحرص على أن يلقيها على الأرض قبل أن يبرح القاعة.. ومن ورائه تسلل عشرات الشبان.. إذن فقد أغضبتهم، وفي نفس الوقت خسرتهم وخسرتهم مصر أيضاً.

وسألني شاب متجهم جداً: وما فائدة أن نذهب جميعاً

لندلي بأصوات ليس لها صدى؟

قلت: لا أفهم.

قال: إن أكثر الأصوات تضيع في الصناديق إلا إذا كانت لصالح مرشح الحكومة..

قلت: وأنت لا تعطي صوتك للحكومة؟

قال: طبعاً لا..

قلت: ولماذا طبعاً لا؟..

قال: هذا موقف.. رأي لا يتغير. أنا ضد أي حكومة..

قلت: ضد هذه الحكومة؟.. وأي حكومة؟..

ولصالح من؟

قال: لصالح التغيير.. أي تغيير.. ثم إن الأرقام التي تعلنها الحكومات عادة عن الأصوات التي حصلت عليها وتصل إلى ٩٩٪ لا يمكن أن تشجع أحداً على أن يقول: لا.. وإذا قال: لا.. فالدولة حريصة على أن تجعله يشعر بتفاهته.. أي أنه ١٪ فقط.. وإنه مسحوق.. أو رأي مسحوق.. أي أنه «فتافيت» الرأي العام.. أو ذرات من المعارضة.. وهذا ما يضايقني.

قلت: يضايقك وحدك.. ولكن إذا كان الذين قرروا

أن يقولوا: لا.. أو نعم كثيرين.. ملايين.. فلا يمكن أن تكونوا بعد ذلك ١٪.

قال: لم أعد أثق في أحد.. لا أنت ولا غيرك.. ولا أي أب ولا أم ولا مدرس ولا شيخ ولا قسيس ولا حاخام ولا وزير.. ولا إذاعة ولا تليفزيون ولا صحافة.. كله كذب في كذب.

قلت: ولا عندك أمل في أن يكون هناك رأي عام من الشباب؟..

قال: شباب؟ ومن هم الشباب؟ الذين تراهم الآن.. إنهم يلعبون الكرة ويعاكسون البنات ويدخنون ويحششون.. لا أقصد سجائر الحشيش.. ولكن هناك أنواع أخرى من الآراء والمعتقدات أعمق وأقوى من الحشيش.

قالت طالبة شديدة التحجب: أنا سوف أختار الوفد.. سأذهب إلى صناديق الانتخابات وأعطي صوتي.

قلت: هذا حقك.. وواجبك أن يكون لك صوت..

قالت: ولكني لا أجد هذا الوفد شجاعاً بدرجة كافية.. ربما ظهرت شجاعته بعد الانتخابات.. لماذا لا يدين ثورة يوليو؟.. لماذا لا يطالب بعودة الملكية؟.. أي ملك من مصر.. أي طفل يختارونه من أحد الملاجيء ويجعلونه ملكاً على مصر.. أنت حدثتنا عن عادات التبت، فهم

يختـارون أي طفل ويجعلونـه إلهاً يعبـدونـه. . أي يختـارون قمة الكهنوت الروحي في البلاد. . أسبـانيا أعـادت الملكية، بـل أعادهـا الرئيس فـرانكـو وهـو مـا يـزال حيـاً. . لمـاذا لا يـطالبون بعـودة العلم المصري الأخضـر ذي الهلال والنجـوم بـدلاً من هـذا العلم الـذي لا نعـرف كيف نميـزه عن أعـلام سـوريـا وليبيـا والعـراق واليمن؟. . لمـاذا لا يغيـرون اسم «جمهورية مصر العربية» إلى جمهوريـة مصر فقط؟ فكثيـر من الـدول العربيـة لا تضـع كلمـة العـربيـة في اسمهـا. . لمـاذا الإصـرار على «العروبـة» التي يتنكر لهـا كل العـرب، ومصر هي التي تـدفع الفـاتورة عـادة من قـوتهـا ومن دمهـا؟ ولكني سوف اختار حـزب الوفـد لأنه معـارض، ولأنه الحـزب الذي يحمل على كتفيه أكبر التهم والفضائـح في تاريـخ مصر. إنـه الحـزب الـوحيـد الـذي لـه «قضيـة» وهـذه القضيـة هي التي أقامت ثورة يـوليو. . والعجيب أنـه بعد مـرور ٣٢ عامـاً، فإن في الشعب من يفضله على الثـورة. . وإن الـوفـد بعيـوبـه أفضل من الثورة بمزاياهـا. . أليس هذا شيئـاً «عجيباً» يغـري بأن يكون لـلإنسان مـوقف؟. . إنني أفضل الحـزب الذي لـه لـون، ولون الـوفد هـو لون الاقـطاع وظلم الفـلاحين وفسـاد الإدارة والسلطة. . وهـو في نفس الـوقت يشعـل حمـاستي كطالبة في كليـة الحقوق أن أتـولى الدفـاع عنه. . ومن كليـة الحقوق هذه خرج كل السياسيين في كل العصـور. إلا عصر

مـا بعـد الثـورة! ألا تـرى أنني عـلى حق؟ . . إنـني أرى ذلك . . إنني بمنتهى الصراحة سوف أستأنف الحكم في كل القضـايـا التي حكمت فيهـا الثـورة وأدانت رجـال السيـاسـة ورجـال الـدين، إنني أنـا وغيـري من الشبـان سـوف نكـون مصدراً للحيوية والشباب للمنـابر المصـرية . . إن الاستسـلام والركود الـذي ينعم فيه الشعب المصـري، لشيء يبعث على الحزن . . إنني لا أطيق هذه الصور المتوالية من الموت!

قلت: هـذا رأي . . احتـرمـه. ولا أعـرف إن كنت قـد لقيت صدى لما تقولين.

قـالت: إنني أحاول. وقـد انتهـزت هـذه الفـرصـة لكي أعـرض رأيي على زمـلائي . . ولـو اتسـع وقتـك لأخـذنـا الأصوات على ذلك.

قال آخر: أنا كما ترون شاب، عمـري ١٧ سنة. قـرأت كثيـراً. وفهمت وأحـاول أن يكـون لي رأي. وأنـا أسـأل زمـلائي . . لماذا نحـاول أن نكسب قضايـا خاسـرة؟ . . لماذا لا نفـرح بما في أيـدينا؟ . . لمـاذا لا نضيف شيئـاً إلى الـذي أضافه آباؤنا وإخـوتنا؟ . . إن ثـورة يوليـو كانت على الاقـطاع وعلى الملك الفـاسـد وعلى الحـاشيـة الأكثـر فسـاداً . . ثم تـراكمت فوقنـا كـل مـآسي الأمـة العـربيـة . . لقـد كنـا أغنى الدول العربية، واليوم أكبـرها وأفقـرها . . وكـل الذي أصـابنا بسبب هـذه العـروبـة وهـذا الالتـزام الأخـلاقي والأدبي

والسياسي والديني.. إنني أشعر كأن والدي كان غنياً، ولكن لأسباب عائلية وعاطفية أنفق أمواله على ديون أخواته وخالاته وعماته.. ثم تنكروا له جميعاً.. فأبي أمام مشكلة إنسانية أخلاقية.. إن أبي ليس نبياً. ولكنه إنسان عادي يحظى بالقلب وبالعقل. ولم يفقد الأمل.. وأبي هذا قد وفر لنا البيت والأرض وعلمنا في المدارس. ومات وجاء أخوه من بعده يكشف لنا أنه كان من الأفضل ألا يعطي إخوته مالاً كثيراً، وألا يسكت عن انحرافهم.. وجاء هذا الأخ وحقق لنا ثروة أكبر وحرية أكثر، ودخل هو الآخر في مغامرات عائلية واجتماعية، وأودع لنا رصيداً هائلاً في المجتمع الدولي، وعقد صلحاً مع كل خصومه، فلم يعد لدينا خوف على أرضنا وعرضنا.. أريد أن أقول إن الثورة الشعبية المصرية بزعامة عبد الناصر قد صنعت المعجزات لمصر وأضاف إليها السادات قرارات كنا نراها مستحيلة، فإذا كان لأحد أمل فليلتفت إلى ذلك.. فليطور ما لدينا إلى ما هو أفضل.. وحتى لا يسيء بي الظن أحد من الناس.. فلا أنا غني ولا كنت غنياً ولا أمل عندي في ذلك. فأنا ابن مدرس وسوف أكون مدرساً، وهي ثانية مهنة في التاريخ.. المهنة الأولى هي الدعارة. ولم نسمع عن مدرس لغة عربية أصبح مليونيراً.. ولكني أحاول أن أكون منطقياً.. وأن أكون إيجابياً وألا أرفض لمجرد الرفض.. وألا أهدم لمجرد

الهدم.. إن لي أخاً قد ترك مصر منذ ثلاث سنوات.. ولم تجف دموع أمي ولا آهات أبي على فراقه.. ولكنه اتخذ قراراً مثل القرارات التي سمعتها من الإخوة والزملاء.. هذا القرار: إن مصر لم تعد موطناً للمصريين. أو أن مصر لم تعد للمصريين.. وأنا أريد أن أعرف معنى هذا الشعار؟..
إن كانت الأرقام فهي تقول إننا ٤٦ مليوناً مصريون يعيش بينهم بضع عشرات آلاف من الأجانب.. ولا أعرف إن كان من رأيه أننا لم نعد مصريين، لأننا لم نأخذ برأيه.. فهل هو الذي يمثل مصر وحدها، ونحن نمثل الرأي الآخر.. أو الأجانب؟ ولكني احترم رأي أخي، وشجاعته.. وإن لم يكن هذا القرار شجاعاً.. فهو لم يسلك طريقاً جديداً.. فسوف يجد في الخارج أكثر من ثلاثة ملايين مصري.. ولكنه قراره وهو حر.. وسوف يفعل مصريون كثيرون ذلك. ولا عيب ولا خوف.. فكثير من الدول الأوروبية قد أطلقت أبناءها في القارت الخمس: اليونان وتركيا ويوغوسلافيا وسوريا ولبنان.. والمصريون في الخارج يبعثون لمصر أموالاً تعادل ثلاثة أمثال عائدات قناة السويس.. ولولا أبناء المهجر ما كانت سوريا ولبنان واليونان والهند والصين والبرتغال.. وقد قرأت لأحد الكتاب ينقد بيت الشعر المشهور الذي يقول:

بلادي وإن جارت علي عزيزة
وأهلي وإن ضنوا علي كرام!

هـذا الكاتب يقـول: بل إن بـلادي إذا جارت علي فهي جائرة، وأهلي إن ضنـوا علي فهم بخلاء. . ولذلـك يجب أن أهجر بلادي. وأنـا لا أوافقه. . فمـا من واحد منـا إلا ضربـه أبـوه وأمه، فهـل تنكـرنـا لـلأب والأم بسبب ذلـك؟. . إنهم أقدس أقداسنا. . والجنة تحت أقـدام الوالـدين. . ومصر هي الأم والأب!

وصفقت له وحدي. .

وأيقنت أن الأحــزاب السيـاسيـــة في مصـــر. لم تتجـــه بـــدعـــواهـــا إلى مـــلايين الشبـــان. . لا قـــالت لهم مـعنـى الكلمـات. . ولا دلالة البـرامـج. . ولا دورهم في السيـاسـة والـدين. . ولا شـرحت لهم معـاني: الخـواء والفـــراغ. ولا بددت عندهم الرغبة في أن يظلوا هكذا نـائمين تحت أغطيـة من الحرير اسمها: اللامبالاة. .

إذن فليس غـريبـاً أن يحتفظ هؤلاء الشبـان بـأيـديهم في جيوبهم، وأن يديروا رؤوسهم وأحلامهم إلى ناحية أخرى.

ومن الذي لا ينشر العنف؟

كان لا بد أن التفت تماماً إلى هذه المجموعة من الشبان الذين جلسوا بالقرب مني.. فعلاً فرجة.. متعة.. كأن ألف كتاب قد انفتحت صفحاتها.. كأن ألف كاسيت قد انعكست على شاشة بالألوان.. إنهم يتكلمون بصوت مرتفع.. ويوضحون كلماتهم الصارخة بأيديهم وأذرعهم وسيقانهم.. وبالشتائم والألفاظ النابية.. إنهم يشتمون النادي الرياضي المنافس لهم.. أما المقاعد فإنهم يحركونها بأقدامهم.. ويتقاذفون الأكواب.. ويضربون العشب بالجزمة.. ويهجمون بعضهم على بعض.. ما هذا؟

إنها صورة لما يحدث في أماكن كثيرة وفي مجالات مختلفة: صور من العنف.. في الكلام والتفكير والسلوك الاجتماعي.. وصور من التفرقة العنصرية بين مدرسة ومدرسة وبين فريق رياضي وفريق آخر.. ومن الكراهية أيضاً..

ثم ما الذي قالوه بعضهم لبعض.. لا شيء إلا النكت

والقفشات والشتائم الجارحة دون أن يكون وجود الفتيات معهم سبباً كافياً للاحتشام.. وحتى الفتيات لم يستنكرن ذلك..

ولم أجد في أيديهم إلا صحيفة واحدة.. حتى هذه الصحيفة يبدو أن أحداً لم يقرأها أو شرع ثم عدل.. لم يعلق أحد على شيء مما يقال بين الناس أو في الإذاعة أو في الصحف.. لم أسمع أحداً يجري حواراً أو يبدأ حكاية أو يبدي رأياً.. لا شيء! وإنما ألفاظ من هنا وأصوات من هناك.. كأن الكلمات كرات ساخنة لا يكاد يطلقها أحدهم، حتى يهرب من لمسها آخر.. أو يعيدها آخر..

وعندما جاء الجرسون تحدثوا إليه في وقت واحد.. ولما لم يفهم، راحوا يسخرون منه.. ويتهمونه بأنه لا يفهم لأنه يشجع النادي الآخر.. مثلاً يقولون: أنت لا تفهم إذن فأنت زملكاوي.. أنت اللي ستين أهلاوي.. طبعاً أنت لا تقدم إلا برسيماً.. هاها.. وهل الأهلوية يشربون الشاي في دلو أو طشت.. هاها.. ولما ابتعد عنهم الجرسون راحوا يطلقون عليه ألفاظاً عارية.. فلما التفت إليهم ليرى من الذي شتمه كانوا قد اتجهوا إلى الناحية الأخرى حتى لا يراهم - فلا هي شجاعة ولا هي جرأة.. وإنما عنف وجبن معاً!

هذا هو المزاج العام لبعض الشباب: العنف في الكلام

والحركة والسلوك. . ولا ثقافة!

والأفلام السينمائية في العالم كله تعرض العنف والعضلات. . أفلام الحرب والعصابات والسرقة والقتل. لماذا؟ لأن الشبان هم الذين يذهبون إلى السينما. يفضلونها على التليفزيون. لأن التليفزيون مفروض على الذين يشاهدونه ـ أما السينما فهي من اختيار الشبان. . يذهبون إليها أو لا يذهبون. . ويجدون في الذهاب إليها والجلوس على المقاعد أو فوقها والزعيق والصراخ والتريقة مجالاً لممارسة العنف ونقد المجتمع، ولذلك فشباك التذاكر يسجل أرقاماً قياسية للشباب الذي لا يهضم إلا العنف والدم والنار والانفجار. .

فالسينما ـ إذن ـ تقدم للشبان بالضبط ما يريدون. .

حتى الأفلام الدينية فيها كثير من العنف. أي كثير من استعراض العضلات. فالفيلم الديني الذي يقدم للمتفرج قصة الصراع مع الشر، انتصاراً للفضيلة والخير والعدل والرحمة، يجعل الطريق إلى هذه المعاني النبيلة، شائكاً دموياً ـ حتى الأفلام الدينية عندنا فيها الكثير من العنف. صحيح أن العنف عندنا لا يصل إلى حد القتل وسفك الدماء. . وإنما هو العنف المتاح: تشنج الممثلين ونفور العروق في رقابهم الغليظة وتشنج الحناجر أيضاً. وتستطيع أن تستعيد كل المسلسلات الدينية في رمضان. فسوف تجد

الناس جميعاً في حالة من الهيستريا. وهم بدلاً من أن يضعوا السكاكين والسيوف والسهام في أيديهم ليطلقوها على أعدائهم، يكتفون بتسديدها إلى السادة المشاهدين..

فهذا نوع من العنف العضلي أو العصبي ـ أي العنف المسموح به. ولكنه عنف أيضاً!

فليس هذا هو الإسلام، وإنما هو الإسلام «العضلي» أو العصبي.. أو الهستيري ـ وهذا العنف يفسد على المتفرج أن يتبع مسار الحق، ومنطق العدل ومشوار الخير ودرب الرحمة، وساحة التسامح بين الناس. فلسنا في حاجة إلى جرعة كراهية أو شربة تعصب.. وإنما نحن في حاجة إلى من يقول لنا دائماً: الرحمة هي التي يجب أن تسود بين القوي والضعيف والغني والفقير.. والتسامح هو الذي يجب أن يجمع بين المسلم والمسيحي..

واختلاف اللون أو الرأي أو العقيدة طبيعي.. ولا فضل للون على لون، أو دين على دين.. وليست الخلافات في الدين هي قضيتنا اليوم، ويجب ألا تكون.. فعندنا عدو مشترك: هو الأرض البور.. والبطالة.. والديون.. واللامبالاة.. ليس عدونا هو هذه المعارك المفتعلة بين المسلم والمسيحي.. بين المسلم المتطرف والمسلم المعتدل. التعصب الذي يخلق التعصب.. فعندما أقول: نحن المسلمون.. فوراً نسمع من يقول: نحن

المسيحيـون. . نحن وهم. . إما نحن وإمـا هم. . غلط! بل نحن وهم. . بـل نحن جميعـاً على أرضنـا وعلى خيـر بلدنـا ومن أجـل سـلامنـا ورفـاهيتنـا وتقـدمنـا. . يجب إبـادة هـذه «الـواو» في كـل عبـارة فنقـول: نحن «و» هم. . بـل نحن هم. . هم نحن. . نحن فقط. .

فـإذا لم يكن هـذا هـو المعنى من كـل المسلسـلات الـدينية، فهي ضـارة بنا، وتتنـافى مع الـرحمة والتسـامح في كـل الأديـان. إن بعض رجـال الـدين ينشـرون التعصب دون أن يدروا. يكفي أن يقول الـواحد منهم: ونحن المسلمـون ـ لا داعي لأن يكمل العبارة. فقـد أقام حـداً فاصـلاً بيننا وبين غيـرنا. غلط. خـطر. كارثـة على البلاد. مصيبـة تتجدد كـل يوم دون أن ينتبه سيادته ما هذا الذي ينشره ويبـذره، وفداحـة ما سوف يتحقق بعد ذلك!

وليس صـدفـة أن تتجـه كـل شعـوب العـالم إلى إعـادة النظر في برامج التعليم. كل الدول التي أشعلت نار الحـرب العـالمية الثـانية أو شـاركت في وقف أضرارهـا، قد أصابهـا هي الأخرى الكثير من الشر والضرر. . جميعاً يغيرون بـرامج التعليم. لماذا؟

لقـد انهارت القيم الأخـلاقية والـدينيـة في العـالم كله. والأخـلاق أوسـع دلالـة من الـدين. لأن الـدين هـو أحـد المنـاهج من أجـل تحقيق الأخلاقيـات العامـة: الخير والحق

والعدل والرحمة والتسامح والسلام بين الناس.

فقد انشغلت الدول الصناعية الكبرى بتعليم الأطفال مبادىء الجبر والهندسة والكومبيوتر. وقد نجحت في ذلك كثيراً، واستدركت الدول العظمى ما فاتها في هذا السباق الجنوني نحو الكسب التجاري والسيطرة الاقتصادية على الأسواق ـ أمريكا واليابان قد بدأتا حرباً اقتصادية عنيفة. فالتقدم الصناعي الزائد لليابان أدى إلى بوار المنتجات الأمريكية. وكان لا بد أن تحمي أمريكا منتجاتها، ففرضت الحماية الجمركية فصرخت اليابان. ولكن أمريكا سجلت احتجاجها وتحذيرها وأنها تستطيع عند الضرورة أن توقف النمو الجنوني لكل ما هو ياباني.. وسوف تستأنف المعارك ضد اليابان في السوق الأوروبية المشتركة، وفي أسواق العالم الثالث.

وهذه هي النتيجة الطبيعية للتفوق الصناعي والتكنولوجي في الدول المتطورة جدّاً.

أما في أمريكا فهناك هيئات علمية وتربوية كبرى تبحث عن الخلل الذي أصاب الشباب في أمريكا في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وفي أعقاب الحرب مع فيتنام.. وفي ألمانيا وفي اليابان وفي فرنسا أيضاً.

وأول ما اهتدى إليه العلماء هو أن المدارس والعاهد لم تعد بها «روح» ـ أي أن الطلبة يتوجهون إليها، وكأنهم في

حالة نوم مغناطيسي.. فالعلاقات الإنسانية بينهم هزيلة، وبين المدرسين والطلبة شكلية.. وكل الذي يربط الجميع هو الجلوس معاً في الكافتريا والتزاحم على حمامات السباحة وملاعب الكرة. أما الذي يقولونه أو يفكرون فيه أو يشغلهم، فلا يختلف كثيراً عن مجموعة الشبان التي بدأت بها هذا المقال.. كلام وزعيق.. تضارب بالأيدي والأرجل والكلمات.. وهاها.. وهيء هيء.. وانتهى اليوم وإلى اللقاء غداً في يوم ليس جديداً.. وإنما هي أيام متكررة الهلوسة والهذيان.. وفي كل العالم.!

والكافتريا والسندوتشات قد سيطرت على عقول الشباب.. ففي الكافتريا لقاء صاخب هرباً من المحاضرات والمعامل.. وفي الكافتريا كل شيء سريع خاطف.. القهوة والشاي والسجائر أو المخدرات.. والسندوتش هو قليل من الخبز مع قليل من اللحم أو الفول.. فهو طعام خاطف.. ووجبة سريعة.. مثل خطف الشاي وخطف السندوتش والسجائر: خطف المعلومات أيضاً.. فلا هم يأكلون ويشربون على مهل، ولا هم يحصلون العلم كذلك.. فكل ما لديهم لقمة من هنا ولقمة من هناك.. ومعلومة من هنا، ومعلومة لا هي هنا ولا هي هناك،.. وتنتهي الأيام والأعوام، وقد تخلف الشعب كله في كل مجالات البحث والعلم..

وكـل الدول حـريصة على أن تعلم الشبـاب: حـرفـة. . مهنـة. . يعيش منهـا. صنـاعـة يـدويـة. . تشغيـل العقـول الالكتـرونيـة. ولكن شعـوب العـالم لا تعلم الشبـاب كيف يكـون صادقـاً، كيف يكون فـاضلاً. . لا أحـد يعلم أحداً أن يفكر وأن يتأمـل وأن يتذوق مـا في الحياة من قيم وجمـال. . وإنما كل شيء خـاطف ومخطوف. . وأن المهم هـو أن تصل أسرع قبل غيـرك وعلى جثته. وسـوف تجد عنـد خط النهايـة من يصفق لك لأنك وصلت. . ولا يسألك كيف؟. . ولـذلك فالطالب يغش لكي ينجح. المهم أن ينجح. والتـاجر يسـرق من أجـل أن يكـون غنيّـاً. المهم هـو الفلوس. . والأفـلام والمسلسـلات تختـار للفتـاة المتعلمـة غنيّاً جـاهـةً لا فقيـراً متعلمـاً مكـافحـاً. . ومعنى ذلـك أن العلم لا يهم، الفلوس هي التي تهم، والفلوس من أي طـريق وبأي شكـل. والغني السـجـين هـو إنسـان سيىء الحظ. . سيء الحظ لأنـهم ضبطوه. وليس إنساناً سافلاً حقيراً يجب التحذير منه. .

ونحن مبهـورون بالتقـدم العلمي. . وهـو بـالفعـل تقـدم بـاهـر ولكننـا لا نلتفت إلى التخلف الأخـلاقي. فـالحضـارة ليست تـطور الأدوات ووسـائـل الإنتـاج والمـواصـلات ولكن الحضـارة هـي تـوظيف هـذه الأدوات في تـعميق الـقيـم الإنسـانية، أي القيم التي تجعـل الإنسان متحضـراً. فالقـاتل بالسكين كالقاتل بالقنبلة الذريـة، كلاهمـا مجرم. . ولا يقـال

عن القاتل الذري أنه مجرم متحضر، والقاتل بالسكين مجرم بدائي. لأن الحضارة ليست هي القنبلة، وإنما الحضارة هي تحويل القنبلة لصالح الحياة ولاستمرار الحياة وبقاء القيم ونشر السلام..

وفي استراليا ما يزال يعيش مئات الألوف من السكان الأصليين.. والدولة حريصة على أن تجعلهم يحتفظون بالأسلوب الذي يرونه لسعادتهم، وهي تحميهم وتحمي بقية المواطنين.. ورغم أن هؤلاء البدائيين يستخدمون السيارة والطيارة والتليفون فلا يمكن أن يوصفوا بأنهم متحضرون. وإنما هم فقط يستخدمون أدوات التقدم العلمي.. ولكن الحضارة هي أن يكتشفوا ما في العقل من كنوز باهرة تنشر أشكال الحياة الهادئة الهانئة من أجل رفع مستوى الذوق واستطعام التأمل ـ ارتفاعاً بالإنسان عن رغباته الغريزية التي تساويه بالحيوان، والإنسان لا يكون متحضراً وإنما يصير متحضراً.. أي أن الحضارة ليست صفة وإنما الحضارة «فعل». أنت إذاً ارتديت بذلة وركبت سيارة وجلست أمام عجلة قيادتها فهذا لا يدل على أنك متحضر.. وإنما يدل على ذلك أن تحترم الناس والعلاقات الإنسانية والقانون وألا تعتدي على غيرك وعلى حقه وحريته وكرامته.. وألا تكون قد سرقت السيارة والبذلة..

* * *

ففي مواجهة العنف الذي تراه يجب ألا تقف عند استنكاره فقط فهذا لا يكفي. وإنما يجب أن نفكر أفراداً وشعباً في استئصال جذوره من النفس ومن البيت ومن المدرسة ومن وسائل الإعلام. . ولا نكتفي بأن نقلب صفحة أخرى في كل صحيفة عندما نقرأ من يدعو إلى التفرقة بين ألوان الناس وأديانهم، بل ألا نقرأ هذه الصحيفة. . وألا نكتفي بالانتقال إلى قناة أخرى اعتراضاً على الأحاديث الدينية التي تغرس الكراهية والحقد والتعصب بل أن نمنع هذا الذي يشعل الفتنة بين الطوائف لأنه لا يساوي هذا الضرر الفادح الذي يلحقه بالأمة. .

معاً وبين كل الناس يجب أن ننشر الرحمة والتسامح والمحبة بين الشباب حتى لا تكبر معهم كل عناصر الدمار لهم ولبلدهم. . ولمستقبلنا جميعاً. .

تعالوا :
نعلم مصر افضل
ونربيها أعمق
ونطورها أسرع !

البيت يربيك . .

المدرسة : تعلمك . .

المجتمع : يهذبك . .

الدولة تفتح وترصف وتضيء الطرق لمستقبلك

الدين : أوكسجين لهذه الاجواء . . .

فما الذي ينقصنا في مصر؟

لن أمل من تكرار ما حدث في السنوات الأخيرة في الدول الصناعية الكبرى . واختار امريكا : كبرى وعظمى وتاج على رؤوس الدول الصناعية والديمقراطية في العالم . فقد اهتز المجتمع الامريكي بعنف مرتين في هذا القرن : المرة الأولى يوم اطلق السوفيت أول قمر صناعي حول الأرض .

والمرة الثانية: دخولها وفشلها في حرب فيتنام ثم

خروجها من هذه الحرب لتجد الشعب الأمريكي قد انهزم، والذي هزمه وخيب أمله به الأرض: الشباب الأمريكي!

وأمام الرئيس ريجان، وامام الرئيس مبارك اشهر تقرير عن اصلاح التعليم في امريكا. التقرير عنوانه، أمة في خطر، وكنت أول من كتب عن هذا التقرير في مجلة «اكتوبر» وعرضه ولخصه وعلق عليه د. مصطفى كمال حلمي نائب رئيس الوزراء. وقارن بين ما طالب به التقرير، وبين انجازات التربية والتعليم في مصر.. وقد أعدت قراءة هذا التقرير واشرت اليه. وأخذت عنه، وشددت رموش العيون لتراه أوضح وأعمق. واختلفنا. لقد نظر الناس الى ما نظرت، ولكنهم لم يروا ما رأيت، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جئنا ولا قرأنا ولا كتبنا، بينما انعقدت لجنة على ارفع المستويات الامريكية في التعليم والعلم والتربية وقررت ان تظل منعقدة إلى نهاية القرن. فلن ترفع جلساتها إلا إذا ارتفع مستوى التعليم والتربية في امريكا.

وأمام الرئيس ريجان تقرير ثان أغرب وأعجب عن «الصور العارية في الملصقات والمجلات» وعلى الرغم من أن أمريكا هي بلد السينما، فلم يعترض احد على الافلام العارية «ملط» ولكن الاعتراض على صورها التي يراها الطفل والفتاة، والتي تفقأ عين الفضيلة ـ والتي تفرض نفسها على الناس.. أي تغتصب الناس. بينما الافلام

العارية يذهب إليها الناس باختيارهم ، ولكن الاعلان عنها يهتك حرمات الناس!

فهذا التقرير أيضاً يعترض على افساد الذوق العام والتربية الاخلاقية .

وبداية البحث عن برامج التعليم الامريكية بدأ بصدمة . أي دقات على الأبواب التي نام وراءها العلماء الامريكان . فجأة انطلق الروس الى الفضاء الخارجي . . قمر صناعي . . الكلبة لا يكا . . ثم رائد الفضاء جاجارين سنة ١٩٦١ . وفرض السوفييت على الامريكان ان يتفرجوا على التفوق العلمي السوفيتي ـ أي يترك العلماء الأمريكان ما في أيديهم من مشاريع لتطوير صناعة الطائرات والسيارات والثلاجات والساعات والكاسْتات ويلطموا خدودهم : كيف استطاع الروس أن يرفعوا كل هذه الأجهزة لتدور حول الأرض!

وأطلق الامريكان نكتة على جاجارين ، قالوا : أن احد الروس لم يكد يرى جاجارين حول الأرض حتى قال : يا بخته إنه يعيش بمفرده !

من باب السخرية بازمة الاسكان في روسيا . وكانت النكتة الروسية المضادة : ان جاجارين يقول للامريكان لأنه وجد سكناً اخيراً استطاع ان يرتفع الى السماء بينما الكلاب

الامـريكيـة تسكن وحـدهـا من مئـات السنين . . ولم يجـد جاجارين حول الأرض لا الكلاب ولا اصحابها !

هنا فقط احس الامريكان ان «شيئاً مـا» دفع الـروس الى السمـاء . . فما هـو الشيء مـا اجتهـد العلمـاء . قـالـوا : لا يمكن أن تكون الحريـة سبباً في تخلف الامـريكان والـطغيان سبباً في تقدم الروس . . ولا هو الثراء ولا هو الدين . .

آخـر مـا إهتـدى إليـه الامـريكـان هـو : بـرامـج التعليم السـوفيتية جـادة أكثر . . فـالطفـل الروسي يـدرس الهنـدسـة والجبـر وحساب المثلثات والهندسـة الفراغيـة ، وهـو طفـل صغيـر . صحيح أن الـروس قد أفـرغوا السمـاء من الالوهيـة وكل مظاهر التقديس، ولكنهم مـلأوا عيون الأطفـال وخيالهم بـإمكانيـة السفر والاقـامة في الكـواكب الأخرى . . فـاتجهت عيون الأطفال الى فـوق . . والمطلوب من الـطفل الامـريكي ان يرفع رأسه يرفعها عندما يحلم !

إذن لا بـد من مضاعفـة الحصص العلمية والـرياضيـة . ولا بـد أن ينشغل الـطفـل أكثـر . وأن يكـون جـاداً مهمـومـاً بقضايا بلده وأن هـذا ليس عبء الدولـة ، بل هـو عبء على كـتـف الأب والام ـ إن وجـدا ـ وعـلى الـخـادمـات فـهـن الموجودات معظم الوقت !

فـأكثر العلمـاء السوفييت شبـان صغار . أي أنهم أطفـال المعجـزة في دولة تنكـر المعجزة ـ بـاعتبارهـا خرافـة دينيـة .

ولكنهم يرون أنهم قادرون على صنع الدين وكتبه المقدسة ورهبانه وباباواته . كل ذلك موجود وبوضوح ومنطقي في المذهب الشيوعي!

إهتزت امريكا . وانخلعت المقاعد تحت علمائها ، وتصدعت آذانهم ، من دقات الرأي العام يريد ان يعرف : ما الذي ينقصكم ؟ الفلوس اعطيناها لكم بألوف الملايين! الوقت الراحة . . الاستقرار . . الحرية . . الكرامة . . ماذا ينقصنا ؟

والأبحاث التي أجريت والتحليلات التي انتشرت والاستفتاءات تملأ اسماؤها هذه الصفحة وزيادة. لقد اجتاحت امريكا عاصفة من العار القومي . . فقد وضعهم الروس صفراً على الشمال . . لقد احرق الروس مقدسات الغرب في لحظة واحدة ارتفعت فيها الكلبة لايكا الى الفضاء . فثارت عليها جمعيات الرفق بالحيوان .

ولم يحتج الروس أن يردوا على ذلك ، لأن في امريكا وفي اوروبا كما في روسيا : مئات الألوف من القطط والكلاب والخيول والضفادع والفئران تموت في المعامل من أجل الإنسان . . وليست الكلبة لايكا إلا أشهر هذه الحيوانات . . ثم أن الكلبة لايكا أشهر حي وأشهر ميت ارتفع إلى السماء . فسفينة الفضاء التي ارتفعت بها هي أغرب نعش في التاريخ : إنه النعش الذي يدور حول

المشيعين ـ الواقفين على سطح الأرض ـ فلم يرتفع حيوان من قبل إلى هذا المستوى . إنه ارتفع بالعلم ومن أجل العلم . . عاش ومات من أجل سلامة الانسان . . فلولا الكلبة لا يكا وما جربه العلماء فيها ما عاش مئات من رواد الفضاء بعد ذلك !

أذكر أنني في المعرض الدولي في بروكسل سنة ١٩٥٧ تزاحم الناس على الجناح السوفيتي يرون الكلاب التي وقفت ومعها مدربوها ـ أكثرهم من الفتيات . والناس مبهورون والروس في ذهول لسذاجة العالم الغربي كله . فلايكا ماتت . . ولكن الناس نسوا ذلك . ورحنا نلتقط صوراً مع الكلاب !

بيب . . بيب . . . بيب ـ هذا صوت القمر الصناعي السوفيتي في كل جوانب المعرض !

ولما دخل الامريكان حرب فيتنام تصدع المجتمع من أوله لآخره . . الشباب اعترض على الحرب ـ لأنه يكره الحرب ويريد ان يعيش في سلام . وأن تبقى امريكا المثل الأعلى للقوة والثروة وعسكري مرور الشعوب إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن من أجل السلام في كل مكان وأن تظل مأوى المعذبين في الأرض . فالمهاجرون من الاضطهاد الأوروبي هم الذين اقاموا امريكا منذ اكتشفها كولمبوس سنة ١٤٩٢ . .

ولـذلك هـرب الشباب من الجنـدية . . وهـرب من كـل سلطة : الاب والأم والمـدرسة والكنيسـة والمؤسسة والشـركة والجيش . .

وفي هـروب الشبان داسـوا القوانين والعـادات والتقـاليـد والـدستـور . . واستقلوا بسـاط الـريـح ليـطوفـوا بعيـداً عن امـريكا . . وكـان بساط الـريح من دخـان الحشيش والأفيـون والهيـرويين والمسكالين و. ل. س. د والالحـاد والمـذاهب الدينية الجديدة . . هذه المذاهب اخترعها ودعـا لها نصـابون من الصين ومن الفلبين ومن الهند ـ أي أن الشعوب الصفـراء المضطهدة افلحت في أن توفر من يستعبد الشباب الامـريكي ويسحقـه في المـواخيـر والكهـوف والغـابـات والانتحـار الجمـاعي . . إنـه انتقـام الشعـوب الفـقيـرة مـن أعنـف الشعـوب ، إنه انتقـام الخرافـة من العلم ، إنه انتقـام العـالم الثـالث من العالم الاول . . إنـه تجنيد جيـوش من الهـاربين من الجنـدية الامـريكيـة لا ليحـاربـوا فيتنام ولكن ليحـاربـوا امريكا . . وإن لم يحاربوها ، فهم محذوفون من قوتها !

إذن ، ليست امريكا هي حلم الانسـانية كلهـا . . بل ان الشعب الامـريكي احس أن فيتنـام هي «الخـطيئـة» الاولى لامـريكـا ، كمـا أخـطأ أبـونـا آدم حين أكـل من الشجـرة المحـرمـة ، وكمـا وجب على آدم أن يهبط إلى الأرض . . فقـد رأى الامـريكـان أن يهـربـوا من الجنـة . . إلى كهـوف

الحشيش واصطبلات المورفين ، وغابات الامازون يرفضون الحياة بالموت ، وكان موتهم اهانة لجنة الانسان على الأرض : امريكا !

فما العمل؟

هذه هي البداية . لم يجلس العلماء يتبادلون اللطم على الخدود . ولا يستعيرون المزيد من المناديل لتجفيف دموعهم . . ولا أداروا ظهورهم للحاضر واستنكروه . ولا هم حاولوا أن يجعلوا ماضيهم هو مستقبلهم . فيظل البكاء والندم والعار هي الخيوط التي نسجوا منها «اوراق التوت» ليستروا عورتهم التاريخية ـ كما فعلنا نحن ولا نزال بعد نكسة يونيو سنة ١٩٦٧ . .

واكتشف العلماء ظاهرة اخطر بدأت في الخمسينات من هذا القرن : وهي أن الابداع قد حمل عصاه ورحل واستقر في طوكيو. فاليابان هي سيدة الابداع في العالم كله . . أما الطوب الذي يتلقاه الشعب الياباني من لندن وباريس وبون . وعلى كل طوبة مكتوبة هذه العبارة أنتم لصوص !

أي أن اليابان لم تخترع شيئاً ، وإنما هي تقتبس وتطور بأسعار زهيدة . وتصدر سلعها الى الدول التي سبقت واخترعت ، فتزاحم المنتجات الاوروبية والامريكية وتخرب بيوتها وتقفل مصانعها !

فمن الطوب والحجارة التي ألقيت على الشعب الياباني ، اقاموا صروحاً للاختراع والابداع!

فالمطلوب من الامريكان : لا أن يعملوا فهم يعملون ولا ان ينتجوا فهم بلاد الوفرة والرخاء . . ولكن أن يبدعوا ـ أي أن يكون لهم انتاج متفوق انتاج يشبه «مصدات الرياح» أو «حائط كسر الامواج» ـ لوقف الطوفان والاعاصير اليابانية التي ترتاد امريكا وتجتاحها وتزلزل قصورها وبنوكها وتزعزع مدنها الصناعية . . وأخطر من كل ذلك أنها تجرد العالم الامريكي والاقتصادي والسياسي من ثقته بنفسه وشعبه ودولة العقيدة الغربية في الابداع والتسويق والمنافسة وفي المستقبل!

فما الحل ؟

قبل أن يكون حل لا بد من معرفة ما هي المشكلة .

من اجل ذلك اجتمع مائتان وخمسون من عظماء التعليم والتربية في امريكا . ووصفوا تقريرهم البديع البسيط وعنوانه : أمة في خطر!

أين يبدأ الخطر : في البيت والمدرسة .

أما البيت الامريكي فليس هو المثل الأعلى للمكان الذي يتلقى فيه الطفل مباديء الحياة الاجتماعية والاستقلال الفكري والتذوق الفني والالتزام والانضباط ـ فالابوان

غـائبان . يعمـلان وفي اللحظات السعيـدة يتناقشـان في عدد الاطفـال التي يحتـاجـانهـا في المستقبـل . وتجيء الأطفـال لتكـون في حمايـة ورعايـة الخادمـات . . فـالخـادمـة هي ام المجتمـع الامريكي . فكـأن المـرأة الامـريكيـة وزوجهـا قـد تعلمـا وتثقفا لا من أجـل الأسرة ، ولكن من أجـل المـطاعم والأندية الـرياضيـة . . ويتولى صنـاعة المستقبـل أقل النـاس علماً وثقافة وتربية : الخادمات !

صفـة أخرى للمـواطن الامـريكي : إنـه طفـل يتيم ـ لم يمت ابواه ، ولكن كأنهمـا : ليس الطفـل الامريكي لقيـطاً ، ولكن كأنه !

والمطلوب من الطفل الامريكي الذي عاش محـروماً من البيت ومن الأبـوين ومن البذور العميقـة في جسمـه ونفسـه ، أن يكون داعية للدفـء والمحبة والاخلاص والتفوق .

إذن ؟ لا بـــد من اصـلاح الاسـرة الامـريكيــة . وقبـل اصـلاح الاسرة الامـريكية، من الضـرورة اصـلاح المـدرسـة التي تعوض الطفل عن فقدان البيت وغيـاب الابوين وانعـدام الروابط ، ولا بد من تعميق الشعور بالتسامح ـ فالطفـل الذي يتـربى في أحضان الخـادمـات الملونـات لن يشعـر بـالامـان لها . . بل سيكره البديـلات عن الأم . هنا وفي هـذه اللحظة تتولد : التفرقة العنصرية . . التفرقة اللونية . . والمذهبيـة . . والـــدينية . . ويتــردى الى التعصب الـذي هــو ضيق الافق

والاختنـاق في النفس ـ أن يختنـق قلبـك وعقلك . . وأن ينحشر جسمك في القيم الأخلاقية والاجتماعية . . هذه القيم تشبة المصاعد التي تتكدس فيها النـاس . . ولذلك يكرهون الصعود بها . . ويكرهون الصعود أيضاً!

مثـلاً : لاحظ العلمـاء أن الـطالب الامـريكي يقضي معظم وقته في الكافتريا . وفي الكافتريا يـأكل السندوتش . . وهـو هـارب من الـدروس ومن المحاضـرات الى ملاعب الكرة !

فما معنى هذه العبارة : معناهـا أنه لا يحب الـدروس لا يحب مـادتهـا ولا يحب أسلوب الـدرس ولا المـدرس . ويفضل الكافتـريا حيث يلتقي الشبـان يضحكون ويتـاجـرون بـلا ذوق ولا ادب وحيث لا يـفكـرون . . وإنمـا هم قـد انسحبـوا من العلم ومن الانضبـاط ومن الالـتـزام ومن أداء واجب الخـدمة العلميـة لبلدهم . . وفي الكـافتـريـا حيث العـلاقـات عـارضـة . . سطحـيـة . . وحيث المخـدرات والحشيش واهم مـا في الكافتـريا هـو السندوتش : قليـل من اللحم المصنـوع من الفول والمـوستردة وهـذا السندوتش هـو وجبة الطعام الحديثة .

فما خطورة السندوتش؟

إنـه أخطر مـا يتعاطـاه الامريكـان . وأخطر الأطعمـة أثراً على عقـول الشباب وسلوكهم . فهـو أسهـل وهم يتنـاولـونـه

أســـرع . . واقفين وجـالسين على الأرض وفي السيـــارة وفي الماء . . فهم ليسوا في حاجة إلى أن يغسلوا ايـديهم . . ولا ان يجلسـوا الى مائـدة، ولا ملعقة وشـوكـة وطبق. . أي إلى عـلاقـات اسـريـة . . أو جمـاعيـة . . ودون مـــراعـاة للذوق والاحساس بالجمال . . ولا الاحساس بالطعام ولا تذوقـه . . وإنمـا هم يخطفـون السندوتش ، يخـطفون الـطعام ، ولأنهم اعتـادوا على خطف الـطعـام ، والأكـل بـأي شكـل وفي أي وقت ، فهم يخـطفـون المعلومـــات ايضـاً : نـــظرة الى كـل الصحف ، ولحـظة مـع الإذاعـة . . ومعلومـاتهم كلهـــا مثـل السنـدوتش : قليلة سهلة خاطفـة مخطوفـة ، ولذلـك فهم لا يعـــرفـون معنى الأكـــل المتـأني والمضـــع البـطيء والهضم الصحيـح . . لا يعـرفـون الارتبـاط بـــالآخـرين عنـــد الأكـل والشرب والحديث معاً . .

فالثقافة الامريكية هي ثقافة الهامبورجر !

أين هـذا مما يفعله اليـابانيـون : إنك تنـظر إلى الـطفـل الياباني وهو يأكـل يخيل اليـك انه عصفور «ينقر» الـطعام . . ينقله فتـافيت الى فمـه . . ويخيـل اليـك أنـه ليس عنـده أي شيء يعمله إلا أن يـأكل . . ثم تجـده ينهض وينحني يشكـر والـديه على هـذا الطعـام الشهي . مع أن الـطعام ليس أكثـر من شرائح اللحم المسلوقة في البصل . . فعنـده وقت ليأكـل ويمضـع ويتذوق ويشكـر ويستأنف الـطعـام . . والـذي يفعله

أثناء الطعام ومع الطعام وبعد الطعام وقبله ، يفعله ايضاً في القراءة والدراسة والبحث والاختراع !

وقبل كل ذلك يجب النظر إلى المدرس الامريكي ، إنه اتعس الجميع، ولم يكن احد يعرف ذلك . فبعض المدرسين غير مؤهلين . والمؤهلون مرتباتهم ضئيلة . والاساتذة الكبار ليست عندهم أموال لمواصلة البحث . فقبل اصلاح التلميذ ، يجب اصلاح حال المدرس الذي سوف يتولى اصلاح حال الطالب والدروس ، والذي سوف يجعل التلميذ والطالب والباحث ، يحب ما يعمل . ويحب بلاده . وتفوق بلاده .

فأنت لا تطلب من القاضي أن يكون عادلاً وهو مظلوم ، ولا من رجل الشرطة أن يكون ساهراً وهو مغبون ، ولا من الطبيب أن يكون نظيفاً ، وأنت تعطيه أدوات مسمومة . . فالبداية هي المدرس ، وبرامج التعليم . والأسلوب الجذاب الذي تتخذه الكتب ، والأجهزة المتقدمة التي يستعملها العلماء . . والدولة الامريكية التي لا تتردد لحظة واحدة في رصد ألوف الملايين لابحاث الفضاء ، لا بد أن تنفق مثل هذه الألوف على مصانع تفريخ العلماء ، المدارس والمعاهد والجامعات والمعامل الملحقة بالهيئات والمصانع.

ومن أهم ما اكتشفه العلماء في التعليم والتربية ان

المـواطن الامـريكي ضيق الأفـق . . وسبـب هـذا الضـيق أحسـاسه بـالعظمـة ـ عظمـة بلاده وعـظمته هـو ، بمـا يجعله ليستعلي ويستغني عن الشعـوب الأخـرى . ويكتفي بـأخبـار بلاده . . ويكتفي بلغته هو فلا يعرف غير الانجليـزية ، وغيـر الأدب الامـريكي والفن الامـريكي ، غلط! لا بـد أن ينفتـح دماغه فيسع لكل ما ليس أمريكيـاً ايضاً ، أي لمـا هو اوروبي وافـريـقي واسـيـوي . . للقـديـم والجـديـد . . لـلعلوم والأساطير . . ويجب على الأمـريكان ألا يستسلمـوا الى ذلك الشعور القديم بأنهم هاربون من اوروبا ولاجئـون إلى أمريكـا فهم يختبئون لا يريدون أن يعثر عليهم أحد !

ويجب أيضـاً الا يتوهمـوا ان امريكـا مهمتهـا ان تـذهب إلى أوروبا لانقاذها من ويلات الحـرب . . أن امريكـا تدافـع عن مصـالحهـا أيضـاً . . فهي لا تفعـل ذلـك لله ، وإنمـا للدولارات والاستقـرار والسيطرة العـالميـة . . وفي مـواجهـة وضد وخوفاً وصداً ورداً للشيوعية !

ولست في حاجة إلى أن أقول لك ما تعرفـه عن حالنـا . كلنـا يعـرف . وكلنـا يقـرف وكلنـا لسـان واحـد يقـول : وبعدين ؟!

نحن الآن «بعـدين» ـ بعـد نكسـة يـونيـو وبعـد العنف الديني ـ أو العنف الاجتماعي الـذي ارتدى الجلبـاب واللحية وأشهـر كتاب الله في وجـه من يقـول لـه : لا . . فيـرد عليـه

بسرعة : لا إله إلا الله .

امنت بالله وكتبه ورسله ، واحب مصر وشعبها ومستقبلها ودورها التاريخي . وبعدين؟

سلبيون نحن؟ نعم .

لا مبالون ؟ نعم .

يأساً من الحل ومن القادرين على الحل ؟ نعم .

تعددت الكتب في ايدينا ، والابطال في عيوننا ، وتبدلت قواعد اللعبة السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟ نعم . . دون اخطار سابق؟ نعم . أليس هذا يذكرنا بما يحدث في أواسط افريقيا عندما يغير الإنسان اسمه ولقبه كل يوم . . فالذي كان يسمي نفسه بالأمس : حبة . . اصبح يسمي نفسه اليوم : قبة . . فإذا ناديته : يا حبة : . يا حبة . . فإنه لا يرد. لماذا لأنه غير اسمه دون أن يخطر بذلك !

فهو إذن قد اصبح انساناً آخر ـ وعليك أن تناديه بكل ما في القاموس من كلمات حتى تكتشف اسمه الجديد فيرد . ولكن هذا الاكتشاف قصير العمر ، لأنه سوف يصبح باطلاً غداً !

والسبب : تغيير الأسماء ، وتبديل القبلة ورفع اللافتات من الشوارع السياسية والاقتصادية والاجتماعية يوماً بعد

يـوم . . حتى اصبحـت الشـوارع مسـدودة . . واصبـحت المدينة المعروفة مجهولة من ابنائها . .

وكـذلك من هـو مؤمن توضـأ ويريـد أن يصلي ولكنـه لا يعـرف القبلة . لقـد تغيـرت . . هـذه هي الحيـرة وهـذه هي الدوخة . . فنحن نـدور حول انفسنـا ، ثم لا ندور بعـد ذلك لأننا فقدنا انفسنا !

بعض الـذين زارونـا من الأجـانب ورأونـا أوضـح ، لهم رأي ، مثـلاً كان الأديب الفـرنسي كوكتـو في مصـر عـاد الى بلاده وكتب يقول : إنهـا ثلاث كلمـات تتحكم في العلاقـات الانسانية في مصر : مفيش . . بقشيش . . معلش . .

ويبـدو أن هـذا الاكتشـاف قـد أعجبـه فـأضـاف كلمـة رابعة : حشيش !

وليس كوكتو بالرجل ـ ليس رجلاً ـ سليم الـذوق والحس الذي نأخذ برأيه ولكنه رأى لا يخلو من الصدق .

مفيش : معنـاها مـا في شيء . . وهي كلمـة للدلالـة : على أنـه لا يـوجـد شيء . . ولا يـوجـد قـانـون . . وأن المجتمع المصري والروح خالية خاوية . . وأنه لا تـوجد أيـة وعود أو أمل في ملئها .

ومعلش ومعنـاها : مـا عليـه شيء . . اي لا خـطأ . ولا داعي لمحاسبة أحد عن شيء . . والذي يخـطيء : ما عليـه

شيء . . والذي يقتل ما عليه شيء . . والذي يظلم والذي يبطش والذي يقتل . فما معنى القانون ؟ ما معنى العقاب والثواب ما معنى التربية والردع ـ لا معنى !

والبقشيش : كلمة فارسية أو تركية ومعناه تعرفه . وهو ما يطلبه من قدم لك خدمة ، قبل أن ينجز الخدمة وبعد أن قدمها . . وهي المكافأة والحافز والرشوة . . ولا أظن أننا ننفرد بهذه الظاهرة . . والذين سافروا إلى فرنسا بالذات يجدون ما هو أبشع من ذلك !

والحشيش لم يعد ظاهرة مصرية ولكن عالمية ايضاً !

تواكلية؟ ربما كان هذا هو المعنى؟

والذين سافروا إلى اوروبا وامريكا وعادوا تبهرهم الشوارع وعلاماتها وإشاراتها، وأكثر من كل ذلك: احترام الناس للقانون ليلاً ونهاراً ـ وقت غياب رجل المرور والأمن !

سمعت الممثل الكوميدي امين الهنيدي ، يرحمه الله ، إنه كان في الخرطوم . في سيارته بعد منتصف الليل . فوجد السودانيين يقفون عند اشارات المرور رغم أنه لا يوجد مرور ولا رجال مرور . . أما الذين كسروا الإشارة وداسوا على العلامات البيضاء فهم المصريون!

أذكر أنني كنت في اوسلو عاصمة النرويج في سيارة

يملكها مصري سويدي . ووقفت السيارة على العلامات البيضاء المخصصة للمشاة . وإذا بأحد أبناء النرويج يصرخ قائلاً : هنا النرويج وليس السويد يا جاهل!

فأهل النرويج يرون أهل السويد اقل احتراماً للقانون ـ آه لو عرف ان صاحب السيارة مصري !

ما الحل ؟

لا حل إلا الذي اختارته امريكا وفرنسا والمانيا . . واليابان أيضاً ! وهو التعليم والمعلم والبرامج والفلوس . فالذي سوف يزرع ويتعلم ويبني ويرصف ويضيء ويطير ويتفوق هو : «المواطن . . ولن يحدث ذلك إلا إذا تعلم لكي يتفوق. .

وإذا كان البيت غير قادر على اصلاح المدرسة ، فالمدرسة تستطيع ان تصلح البيت . . ولكن إذا بدأنا بالاثنين معاً ، فهذا هو المثل الأعلى .

متى؟

الآن .

ومن الذي يبدأ ؟

كل الناس في كل مكان. وفي كل وقت . ولا أحد يتفرج على أحد . ولا أحد يغني ويرقص والشعب يتضور جوعاً إلى العلم والمعرفة والحياة .

هـل نحن في حاجـة الى أن نعمق الشعـور بـالقلق عنـد الناس؟ لا داعي . فعندنـا ما يكفينـا وما نصـدره الى الخارج أيضاً .

هـل نحن في حاجـة إلى تعميق الشعور بـالخطر؟ لـدينا هذا الشعور . ولدينا ما هو أخـطر من ذلك : عـدم الاحساس بـالخطر. والبـلادة التي هي توأم الـلامبالاة بنت السـطحية أم الانتهازية !

استـاذنا العـظيم طه حسين لـه حكايـة . كان على ظهـر الباخرة عندما سمـع أن «مصر مـريضة» وتشكـك في الخبر ولكنه تأكد أن الكوليـرا تجتاح مصـر . وقد اطـرق طه حسين ليعرف بالضبط مـا الذي يشعـر به : إنـه الحزن والخـزي . . الحـزن على ما أصـاب مصر وأهـل مصـر ، وأصـاب الـذين كـافحوا من أجـل سعادتهـا واستقـرارهـا والخـزي لأنـه كـان يتصور أن مصر قد تحضرت، وأنـه من المستحيل أن يصيبهـا مـرض يـزيـد على الجهـل. . والخـزي من مـظاهـر الغـرور والكبـرياء والاعتـداد بـالنفس والـوطن ـ ولكن كـل ذلـك قـد انهار.

ولمـا عـاد إلى مصـر وجـد أن النـاس لهم ألسنـة طـويلة وعقـول قصيرة وقلوب حجـارة . وأن هناك انـاسـاً لم يغيـروا حيـاتهم وملذاتهم مشـاركـة للمـرضى والفقـراء في تعـاستهم الوبائية . يقول طه حسين :

ولم أملك إلا أن أردد قـولـه تعـالى : ﴿وإذا أردنـا أن نهلك قرية امـرنا متـرفيها ففسقـوا فيها ، فحق عليهمـا القول فدمرناها تـدميراً﴾ ثم قـوله تعـالى : ﴿ضرب الله مثـلاً قريـة كانت آمنة مطمئنة يـأتيها رزقهـا رغداً من كـل مكان فكفـرت بـأنعم الله فـأذاقهـا الله لبـاس الجـوع والخـوف بمـا كـانـوا يصنعون﴾ .

ويقـول طـه حسين : وعلى النـاس إمـا أن يمضـوا في حياتهم السعيدة اللذيذة ، لا يعبأون بمـا أصاب مصـر ، لهذه هي الكارثة السـاحقة الملحقـة ، وأما ان يتضـافروا من أجـل حياة جديدة .

ويقـول طـه حسين : وعلى النـاس إمـا أن يمضـوا في حياتهم السعيدة اللذيذة . لا يعبأون بمـا أصاب مصـر ، لهذه هي الكارثة السـاحقة الماحقـة ، واما أن يتضـافروا من أجـل حياة جديدة .

ولكن يعصم طـه حسين من اليأس قـوله تعـالى : إنـه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

والـذي احـزن طـه حسين على مصـر هـو أنهـا اصيبت بالكوليرا ـ فقط وباء الكوليرا . . وهذه الكوليـرا فلقت الشعب نصفين : أنـاس كانـوا لم يسمعوا عن الكـوليرا : سعـداء في حياتهم ، وأناس سحقتهم الكوليرا . .

ولكن الـذي أصاب مصـر على أيامنـا، مـا هـو أكثـر من الكـوليـرا أو أسـوأ . . في أجسـام النـاس وفي نفـوسهم وفي عقولهم وفي علاقاتهم الإنسانية والسماويـة . . بل اصـابنا مـا لا يعـرف طـه حسين نـوع من «الايـدز» اي انهيـار اجهـزة المناعة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتعليمية والتربـوية ولكن ليس هـو «الايـدز» فنحن نعـرف العـلاج والعـلاج في أيـدينا وممكن . . فكمـا أن عندنـا مـلايين الافـدنـة البـور ، فكـذلك مـلايين المـواطنين . . وكمـا أننـا طـورنـا الـزراعـة رأسياً ، فكذلك التعليم والتربية . .

وكمـا أن في التـوراة آيـة تقـول : في البـدء كـانت الكلمة . .

وفي القرآن : اقرأ

فهي البداية الحقة لكل ثـورة ولكل خلق جـديد : كلمـة إقـرأ يقولهـا مدرس ليس مـظلوماً ولا مغبـونـاً ، لتلميـذ يحبـه ويحتـرمـه ويضحي من أجـل العلم والعمـل والانتـاج ثم الإبداع . .

إن الأمر جاد وخـطير وهـو يبعث على «الحزن والخـزي» إن وقفنـا نتفرج على أنفسنـا ولكن لا يدعـو إلى اليأس ـ اقـرأ المقال من أوله أرجوك !

الديك الفصيح
في البيضة يصيح
أو لا يصيح!

انظر إلى الحقول تجد أعواد القمح ليست في طول واحد ولا في اخضرار من نفس الدرجة.. وإنما تجد عوداً أطول من الجميع.. أو تجد واحد أكثر اخضراراً من كل اخوته..

اذكر أنني اضطررت إلى أن أبيت في إحدى الغابات فوق جبل بالقرب من مدينة انسبروك في النمسا. وعندما طلع النهار وجدت الأشجار التي على حاصفة نهر السالزاخ ملتوية. وأدهشني هذا الالتواء وحاولت أن أفهم.. ورأيت نفس المنظر عندما كنت في مدينة ترافند رووم في ولاية كيرالا في جنوب الهند. وعرفت أن سبب الالتواء أن هذه الأشجار تحاول أن تنمو تحت ضغط المطر والرطوبة وأن تتجه بكل عصارتها إلى أعلى.. إلى الشمس.. ولكن تعترضها أشجار أخرى، فتلتوي أغصانها، فتعترضها أشجار أقوى فتلتوي مرة ثانية، وتظل تحاول وتلتوي وتدور لكي تحصل على نصيبها من أشعة الشمس.. بينما أشجار لم

يعترضها شيء، فنمت واستقامت وطالت وارتفعت أسرع من غيرها. .

ولكن أعواد القمح لا يعترضها شيء. ومع ذلك لا تستقيم ولا تعتدل ولا تنمو إلا ببطء شديد. لماذا؟

وكذلك أطفال الحيوان والإنسان. لماذا؟ لا نعرف بوضوح. .

ولكن الذي نعرفه بوضوح وعن يقين. إن كل كائن حي، وغير حي، هو كائن «مبرمج»!. . فالله قد أودع برنامجاً لكل الكائنات وللكون كله. ونحن لا نعرف هذا البرنامج. . فكل شيء في هذا الكون مكتوب عليه: تاريخ الصنع وتاريخ الصلاحية ورقم التشغيل. وكل شيء له عمر حقيقي وعمر افتراضي. له بداية ووسط ونهاية. وهناك كائنات تنمو بسرعة وغيرها ببطء. . وهناك نباتات وكائنات تزهو وتنضج بسرعة، وغيرها ببطء. . وهناك أطفال يولدون عباقرة، ثم يموتون عاديين، وهناك أناس يولدون كائنات عادية، وفجأة تنفجر العبقرية. . في سن صغيرة. . ونحن لا نعرف البرنامج السري الذي أودعه الله هذه الكائنات. والتاريخ مليء بالأمثلة!

وعندما مثل يقول: الديك الفصيح في البيضة يصيح. .

أي أن الديك الفصيح، تظهر عليه الفصاحة وهو ما

يـزال في البيضة أو بعـد الخروج منهـا بقليـل. . أي إذا كـان هنـاك نبوغ عنـد أي إنسـان، فـلا بـد من أن يـظهـر في سن مبكرة. ولكن ليس ذلك صحيحاً دائماً. .

فالمسيح عليه السلام تكلم في المهد صبياً.

والـرسـول عليـه السـلام بـدأت رسـالتـه وهـو في الأربعينات.

ونوح بنى السفينة التي سينجو بها وعمره ٦٠٠ سنة. .

والشيعـة يعتقدون اليـوم أن الإمام الغـائب، وعمـره الآن ١١٥٠ سنة، سوف يـظل على قيد الحيـاة. . مئات الألـوف، أو ربمـا مـلايين السنين، حتّى يمـلأ الأرض عـدلاً بعـد أن امتلأت ظلماً. .

والطيور لها طفولة قصيرة. . فـلا يكاد الصغيـر يخرج من البيضـة حتى يبدأ حيـاته العـادية بعـد ساعـات «وكأنـه تدرب عليها في البيضة. . والحيوانات تبـدأ حياتهـا بعد أيـام أو بعد أسابيع. .

بينما الإنسان صاحب أطول طفـولة بين الحيـوانات. . لا تكفيـه سنة ولا عشـر سنوات. . بـل يـظل يستعـد لأن يكـون عضـواً قـادر على المسـاهمـة في الحيـاة عشـرين أو ثـلاثين عاماً. فالذي يحتاج إليه الإنسان أكثر بكثيـر جداً من غـرائزه. والغـريزة هي بـرنـامـج عمـل تـوارثـه الإنسـان مئـات ألـوف

السنين. والغريزة هي برنامج مغروس في أعماق الإنسان: الأكل والشرب والخوف وحب الحياة وحب المعرفة. إلخ.

ولكن الإنسان الطفل يحتاج إلى سنوات طويلة من التجارب ـ تجارب العقل لكي يعرف ويفهم ويحلل ويختار..

وبعض الأطفال يجتازون هذه السنوات بسرعة بل يتجاوزونها إلى ما هو أعظم وأروع.. إلى الإبداع العبقري..

ولكننا لا نعرف كيف يظهر هذا الطفل العبقري؟ ولا حتى ما هي هذه العبقرية.. ولا علاقتها بالظروف الاجتماعية أو المادية أو السياسية.. أو لماذا يكون طفل عبقرياً في ظروف لا تسمح بذلك، فلا أبوه ولا أمه..

والشاعر القديم يقول:

فموسى الذي رباه فرعون مرسل

وموسى الذي رباه جبريل كافر؟

إذن ليس صحيحاً أن الديك الفصيح في البيضة يصيح، بل هناك ديوك فصيحة جداً تصيح بعد ذلك بعشرات السنين.. بل إن ديوكاً عظيمة الشأن لا تصيح ولكن نفاجأ بأنها في قمة العبقرية دون أن ندري أو يتوقع لها ذلك..

ففي السادسة: كان الفيلسوف الفرنسي مونتني يقرأ ويكتب باللغة اللاتينية..

وكذلك الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو والموسيقار الفريد ـ في نوعه ـ موتسارت كان يجول بين العواصم الأوروبية مع اخته يقيمان الحفلات الموسيقية.

وفي السابعة: كان الموسيقار شومان قد نشر أول أعماله الموسيقية ثم دخل بعد ذلك الكونسرفتوار وهو في الحادية عشرة..

وفي الثامنة: هرب الأديب الروسي جوركي من المدرسة وقرر أن يعمل بيديه. ولم يصدر عمله الأدبي العظيم «الحضيض» إلا بعد ذلك بثلاثين عاماً.

وفي التاسعة: قام الفتى جنكيزخان يجمع شتات القبائل بعد أن مات أبوه مسموماً وظل يستعد حتى بلغ الأربعين من عمره. وظل ينظم قواته حتى استولى على العاصمة بكين وهو في الخمسين من عمره.

وكذلك الرسام الفرنسي تيسيان عرض لوحاته الرائعة. وأدرك الناس أن موهبة عظيمة قد ولدت.

والموسيقار باخ مات أبوه ومن بعده ماتت أمه. فبدأ يدرس. صحيح أنه موهبة عظيمة ولكنه ليس عبقرية. ثم ترك المدرسة في سن ١٧ سنة وعمل عازفاً للناي في سن

١٨ . . وعرف الناس الموهبة الصاعدة.

وأصيب أديب فرنسا مارسل بروست بأول أزمة ربو وانفصل عن الحياة. واعتقد الناس أنه يتهيأ للموت، تماماً كالحيوانات إذا مرضت انعزلت. . والحقيقة أنه كان يتهيأ للإبداع . .

ومارلين مونرو دخلت أحد الملاجىء سنة ١٩٣٥ بعد أن ألحقوا أمها بمستشفى الأمراض العقلية. . وقالت مارلين: سأكون أعظم من كل النساء. ولا أعرف كيف؟.

والمطربة الإنكليزية جولي أندروز اكتشفت أسرتها في سنة ١٩٤٤ أثناء الغارات الجوية أن لها صوتاً رائعاً.

وفي العاشرة: نشر جان بياجيه أحد عظماء علم النفس أول دراسة نفسية له سنة ١٩٠٦ عن عصفور له ساق مكسورة. وحصل على الدكتوراه مع التفوق وهو في التاسعة من عمره!

وفي سن الحادية عشرة: بدأ والد الموسيقار العظيم بيتهوفن يدربه على العزف والتأليف. أراد أن يجعل منه موتسارت آخر. ولكن المسافة بين الاثنين هائلة. فموتسارت عبقري بكل معاني هذه الكلمة. ولكن بيتهوفن موهوب. ولم تنفجر عبقريته إلا في الثلاثين من عمره.

والموسيقار «ليست» أقام أول حفلة موسيقية في فيينا

سنة ١٨٢٢.

تحطمت أسرة الأديب الإنجليزي تشارلز دكنز: أبوه دخل السجن وكان لا بد أن يعمل فترك المدرسة. أما عمله فهو لصق العلامات على الزجاجات في أحد مصانع الورنيش. وبدأت موهبته الأدبية تتفجر في يديه..

وأديبة الرعب الإنجليزية «أجاثا كريستي»، كان أبوها يلعب القمار فأضاع أموال الأسرة، فكان عليها أن تعمل شيئاً وبدأت تحكي للأطفال الصغار قصصاً مرعبة من صنعها.. وبدأت تكتب.

وفي الثالثة عشرة: ذهب الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو يعمل في صناعة التماثيل سنة ١٧٢٥. وكان شعوره بضرورة الكتابة مفاجأة له.

وفي هذه السن بدأ الفنان العظيم ميكلو نجلو يتدرب على الرسم سنة ١٤٨٨.

وكذلك الرسام رينوار سنة ١٨٥٤.. والرسام تولور لوتريك سنة ١٨٧٨..

أما أديب لبنان خليل جبران فبدأ كتابة «النبي» ولم يكمله إلا في الأربعين من عمره - ١٩٢٣.

وفي الخامسة عشرة: كان الأديب الإنجليزي الساحر برنارد شو يعمل في مصلحة الأراضي. وكان فاشلاً في

الدراسة. ويكره الكتب المدرسية والمدرسين والألعاب الرياضية والمدارس. ويبدأ يسخر من الجميع.

وفي السادسة عشرة: أصبح العالم الرياضي باسكال شهيراً وصال عالمياً في العشرين. وهو الأب الحقيقي لكل الآلات الحاسبة وأول من قدم نظرية الاحتمالات في الرياضة والفيزياء والفلسفة..

وفي هذه السن.. بدأ عبقري الرسم والنحت والموسيقى والشعر واختراع عشرات من الأجهزة: دافنشي، تدرب عند أحد الرشامين. وكان يقول عن نفسه: إنني ابن غير شرعي. ولكن سوف يكون الفنانون في الألف سنة القادمة أبنائي الشرعيين!

صحيح كل إنسان يختار أن يكون ناجحاً أو فاشلاً. كل ذلك في يديك، رغم الظروف، أو بسبب الظروف.

ولكن ليس في يدك، أن تكون موهوباً.. ولا في يدك ولا الظروف ولا كل قوى الكون أن تصير عبقرياً..

فالنجاح من صنعك، والعبقرية من صنع الله..

ومن الصعب أن تكون ناجحاً بلا تعب.. ومن الصعب أن تكون موهوباً بلا صعوبة في حياتك وظروفك.. وكل صاحب موهبة فيه قسوة.. هو يقسو على نفسه لكي يواصل النجاح. والظروف فيها قوة عليه، لأنه يريد أن يكون

عـادياً. . أن يكـون مثل النـاس. . ألا يتقدمهم بخـطوة، وألا يعلو عليهم بشبـر، وألا يلمع أكثـر منهم بشمعـة. . ولـذلـك اختـرع الإنسان القـانون، ليتسـاوى أمـامـه النـاس. . وصنـع السقف ليكون أعلى من كل الناس، ونهاية لرؤوسهم أيضاً.

ثم تولدت التقاليد. . أي أسوار وسلاسـل وحدود، حتى لا يخـرج أحـد عن أحـد. . ولكن العبقـريـة تخـرم السقف، وتزيل الحدود، وتزيح السدود. ويقاومها النـاس. ويرفضـونها ويكفـرونهـا لأنهـا خـرجت عليهم وعنهم. . وقـد اتهمـوا موتسارت بأن «عليه» عفـريتاً. . حبسـوه في غرفـة ليؤلف أمام أعينهم ثم اقتحوا الباب ليـروا بأنفسهم العفـاريت وهي تملي عليـه موسيقـاه العـظيمـة. . ولم يجـدوا العفـاريت. . وإنمـا وجـدوا العبقـريـة الفـذة تبكي من الخـوف. . فهـو مـا يـزال طفلاً، ولكن له رأس مليون رجل!.

وكل الأطفال على درجـة عاليـة من الذكـاء. . ثم يخفت هذا الذكاء. . أو يتوارى كما تتوارى الميـاه الجوفيـة، لتظهـر بعـد ذلـك على شكـل آبـار أو أنهـار. . وقـد تتـوارى الميـاه الجوفية ألوف الأميال أو عشـرات السنين، ثم تنفجر. لمـاذا؟ إن برنامج هذه العبقرية ليس عنـدنا. إنـه هناك. . ولا نعـرف مـاذا يتضمن ولا متى يـظهـر ولا متى يبـدأ ولا كيف ينتهي. ولكنه هناك. .

كـان العـالم العـظيم دارون (١٨٠٩ ـ ١٨٧٢) تلميـذاً

بليداً. لا أمل فيه. دخل الجامعات وخرج منها. أبوه قال: بصراحة يا ابني أنت حمار. لا يهمك أي شيء. ولذلك لن تكون شيئاً في المستقبل. فكل ما يهمك أن تطارد الأرانب والفئران!

وسافر على ظهر باخرة. وأصبحت هذه الرحلة تاريخية. فقد وضع دارون قواعد تطور الكائنات كلها.. وكانت دراساته ثورة في تاريخ الحيوان والإنسان.

والمخترع العظيم أديسون (١٨٤٧ ـ ١٩٣١) كان يبيع الصحف في القطارات. عنده حب للاستطلاع. ولم يلفت نظر أحد. طردوه من المدرسة لفشله. قال له ناظر المدرسة: هات والدك فقد يئسنا منك! هذا التلميذ قدم لنا ألف اختراع. في مقدمتها: المصباح الكهربي والفونوغراف الذي هو أبو البيك ـ أب والريكوردر وهو أبو الراديو والتليفزيون أيضاً.

وعالم الفيزياء العظيم أينشتين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) كان تلميذ بليداً. ولم يعرف كيف ينطق إلا في التاسعة من عمره. نظرا إليه والداه على أن لديه تخلفاً عقلياً. وكان فاشلاً في جميع مراحل التعليم. وفي كل المواد إلا الرياضيات ـ ثم تفجرت عبقريته فجأة فوضع الكون في نظرية واحدة. وفي سطر واحد عرفنا قواعد انفجار القنبلة الذرية. السطر هو: الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء!

وهنري فورد (١٨٦٣ ـ ١٩٤٧) مخترع السيارة الأمريكية لا يحب القراءة والكتابة. ولكن يهتم فقط بفك الأجهزة وتركيبها. وكان يصلح أدوات الحقل التي يستخدمها أبوه.. وفي سن متأخرة اخترع السيارة.

والشاعر الألماني هيني (١٧٩٧ ـ ١٨٥٦) لم يكن يحسن النطق بل كان يتهته مثل: البحتري وأحمد شوقي وإبراهيم ناجي وتوفيق الحكيم. وكان أبوه يقول له: ما لم تعرف كيف تنطق.. أو تنهق كأي حمار، فلا مستقبل لك.. ولكنه كان من أروع شعراء اللغة الألمانية. وتفجرت موهبته في الأربعين!

أما أعظم العقول التي خلقها الله حتى اليوم فهو نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) فلم يكن طفلاً لامعاً ولا شاباً ذكياً. قرر أبوه أن يدخله المدرسة بعد أن فشل تماماً في إدارة المزرعة وكان مشاكساً تعرض لأحد الشبان فضربه علقة. فعكف نيوتن على ضربه دون أن يراه. فراح يفكر.. فاخترع أسلحة عديدة. وعن طريق التفكير في الانتقام اكتشف النجوم والأفلاك والشمس والقمر والجاذبية. وجاءت نظرياته في الرياضيات والفيزياء ثورة كبرى.. فانقلبت كل قوانين العلوم حتى يومنا هذا..

والفنان الفرنسي بيكاسو (١٨٨١ ـ ١٩٧٣) دخل المدرسة متأخراً جداً. طردوه من كل المدارس لأنه يرسم

على الجدران. أخرجه أبوه من المدرسة في سن العاشرة. وأتى له بمدرسين ليعلموه في البيت. فشلوا جميعاً. غضب أحد المدرسين لأن بيكاسو رسم لوحة لفتاة عارية على ظهر جاكته. ولما دخل مدرسة الفنون هرب منها. فقد كره المدرسين.. ثم تسلل إلى باريس. وكافح طويلاً قبل أن يلفت الدنيا إليه.. والمخترع الإنجليزي جيمس وات (١٧٣٦ ـ ١٨١٩) كان مصاباً بصداع نصفي مدى الحياة. خرج من المدرسة لأنه غير قادر على سماع صوت المدرس.. وغير قادر على سماع ضوضاء التلامذة. ولكن كان لديه استعداد عميق لدراسة الهندسة. درسها في البيت. انطلق خياله. قام بتطوير الآلة البخارية. وطلع بها على الدنيا.. فكانت هذه هي البداية الحقيقية للثورة الصناعية في التاريخ!

إحدى الأساطير الألمانية تقول إن هناك كهفاً أسمه: العبقرية.. ومن حق كل إنسان أن يفكر في الذهاب إليه وفي دخوله. بشرط أن يدفع الثمن. وكل واحد يدفع ثمناً مختلفاً. لماذا؟ لا يحق لإنسان أن يسأل. لأن أحداً لا يعرف من الذي وضع قائمة أسعار العبقرية. ولكن عندما يدخل الإنسان، يجد أنه دون أن يشعر قد دفع الثمن، ذراعه اليمنى وهو رسام، عينه أو أذنه أو أنفه.. أو صحته.. أو نومه.. أو سعادته.. أو نصف عمره أو أكثر

من النصف. هـذا هو الشـرط. فالعبقـرية لهـا ثمن، يـدفعـه العبقـري ويدفعـه الناس من حـولـه أيضـاً. وقـد صـور أديب الأطفال أندرسون هذا المعنى في قصـة كتبها وهـو في الثالثـة والسبعين من عمره. القصة اسمهـا: الصحوة.. ومـوضوعهـا أن رساماً كبيـراً في السن قد التقى بـالفتاة الجميلة التي كـان قد اتخذهـا نموذجـاً للوحاتـه الفنية.. وعنـدما التقى بهـا في شيخـوخته، اكتشف كم هي جميلة، وكيف أنـه انشغل عنهـا تماماً. وكـان في استطاعتـه أن يحبها. ولكنـه خاف أن يؤدي هـذا الحب إلى القضـاء على فنـه.. فـلا شيء يقتـل الحب إلا الـواقع، ولا شيء يقتـل جذوة الشـوق إلا الجنس. فقـرر أن يـظل مشتعلاً يتـوهج في لـوحاتـه الفنية، على أن يـطفىء كل هذه المعاني الجميلة في أحضانها..

لقد أحب فنه أكثر..

ولكن قـرر الإثنـان أن يحـاولا من جـديـد. وأن يصعـدا الجبل، وأن يعيشا معاً في إحدى القـلاع فوق الجبـل، حيث تشرق الشمس بينما كانت زوجته في أحضان عشيق لها تتـأوه وتصـرخ من اللذة.. فقـد اكتشف في سن مبكـرة أن الحيـاة مع العبقري هي التعاسة المؤكدة، فلم تضع وقتها!

ويتسـاءل أندرسـون في نهايـة القصـة: كم عـدد النـاس الذين ضاعوا وأضاعوا الحياة، بسبب إخلاصهم؟

كثيرون جداً. وهم على استعداد دائم لأن يفعلوا ذلك.. فالعباقرة لا سلطان لهم على أنفسهم.. لم يخلقوا أنفسهم ولا الظروف، ولكنهم يعيشون ويبدعون ويموتون. تبعاً لبرنامج لا نعرفه قد أودعه الله في خلية من خلاياهم..

فما الذي نفعله نحن؟

فقط نفتح الأبواب والنوافذ ليدخل الهواء وأشعة الشمس.. لا أكثر ولا أقل. وننتظر العقول الالكترونية في كل إنسان. أن تنشط وأن نعمل وأن ننفذ ما جاء في برنامجها حتى تبلغ عمرها الافتراضي والحقيقي.

المهم أن نقوم بحضانة المواهب، وألا ننشغل بصاحبها مبكراً أو متأخراً.. فسوف تصيح على أي حال!

وليس صحيحاً أن الديك الفصيح في البيضة يصيح.. ولا هو صحيح أنه في الشيخوخة يصيح.. ولكن من المؤكد أن صاحب الموهبة سوف يصيح.. وإن الله لم يخلقه عبثاً.. وإنما لوقت ولفائدة ولحكمة بليغة!

الفهرس

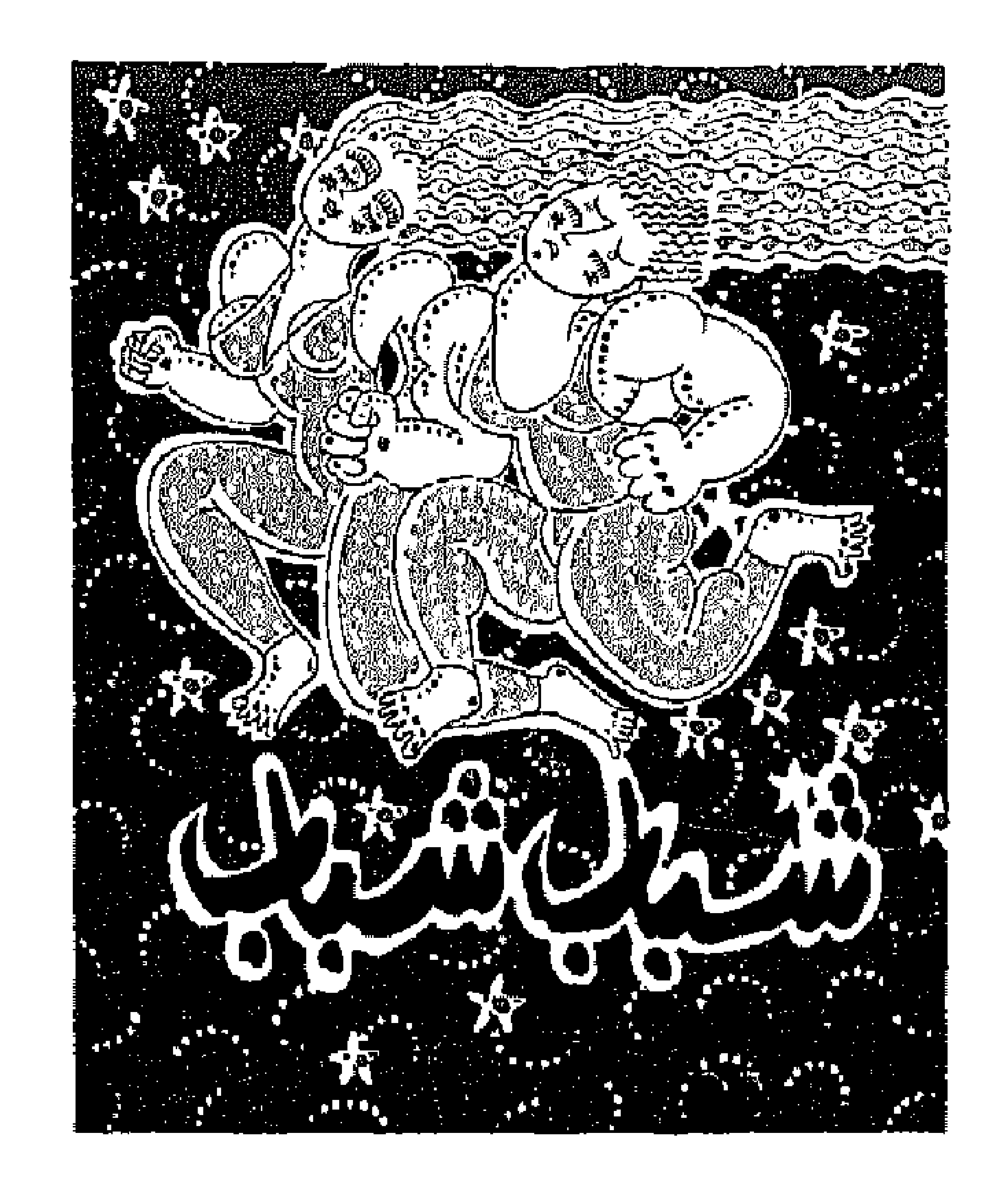
الصفحة

الصفحة

رقم الايداع : ١٩٨٨/٣٨٨٦
الترقيم الدولى : ٩ـ ٢٣١ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ١٧٢١٣



ترتدى أجمل ملابسك وتسوى شعرك وتملأ جيوبك بالفلوس وتقف على عتبة الباب ، ثم لا تجد مكانا تذهب إليه ..

كل شاب لديه مثل هذا الشعور .. عنده القول والأمل والإرادة .. ولكن الطرق أمامه ليست واضحة .. لا الطريق ولا العلامات ولا وسيلة المواصلات ..

كل شاب يريد أن يكون عظيما غنيا صاحب فيلا وزوجة جميلة وأولاد .. ولكنه لا يستطيع كل ذلك أو بعض ذلك !

هذه هى المشكلة : فالمسافة كبيرة جدا بين الذى يحلم به ، وبين الذى يريد .. بين قدرته وبين إرادته .. وفى هذه المسافة تتوالد كل مشاكل الفرد والمجتمع وكل مشاكل الدولة والحضارة الإنسانية .. ويكون الغضب وتكون الثورة ـ التى هى الغضب النبيل !

الغلاف للفنان حلمى التونى

ولا يملك الشاب إلا أن يكون حيا حيويا وإلا أن يكون طموحا وإلا أن يكون الغاضب الساخط المتمرد الثائر ..

اقرأ ما كتبه مفكر الشباب الأستاذ الكبير أنيس منصور الذى فاز فى كل استفتاءات الرأى فى ثلاثين عاما بأنه كاتب الشباب الأول !


6 221102 002431